

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سيرة الرسول ﷺ

صُورَةٌ مُقْبَسَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تأليف الأستاذ

محمد بن دُرَّة

عني بهذه الطبعة ونظم شعرها، غارث العليم، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة
إدارة احساء التراث الإسلامي
في دولة قطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكتبة الانصاري

٧٥٧

الرقم العام :

الرقم الفني : ٢٢ / ١٩

تاريخ الورد : ١٩ / ٤ / ١٩٤٧

سيرة الرسول ﷺ

صور مقتبسة من القرآن الكريم

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري العامة
رقم التصنيف :
الرقم العام : ٢٩
الرقم الفني : ٢٢
جهة التبرع :

تأليف الأستاذ
محمد عزة وروزة

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : ٣٩
رقم التصنيف : ٢١٩

عني بهذه الطبعة ونظم صورها

خادم العام

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

٩١٩

دمس

٧٤٢

طبع على نفقة
ادارة احياء التراث الاسلامي
في دولة قطر

سيرته الذاتية

موجز ترجمة حياة المؤلف الأستاذ محمد عزة دروزة ، وآثاره العلمية

هويته الشخصية :

الاسم : محمد عزة بن عبد الهادي دروزة .

مكان الولادة : ولد في نابلس - فلسطين - في شوال لسنة ١٣٠٥ هـ . الموافق

حزيران سنة ١٨٨٨ م . ، وهو سوري الجنسية .

دراسته :

درس وتخرج في مدارس نابلس الابتدائية والرشدية والإعدادية ، ولم يقم له

دراسة جامعية فثقف نفسه بنفسه ، وبهذه الطريقة تقوى في اللغة الفرنسية ، التي تلقى مبادئها في المدرسة الإعدادية .

عضويته في مجمع اللغة :

في سنة ١٩٥٦ انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة .

عضويته في المجلس الأعلى :

في سنة ١٩٥٨ عين عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية ،

ثم مقررًا للجنة التاريخية ، وفي سنة ١٩٥٩ استقال من العملين بسبب حالته الصحية .

موجز أعماله :

١ - مارس وظائف متنوعة ؛ في دائرة البرق والبريد في العهد العثماني ،

من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٨ ، وكان آخرها سكرتيرية مجلس المديرية العامة في بيروت .

٢ - تولى إدارة مدرسة النجاح الوطنية الابتدائية والثانوية في نابلس من سنة

١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٧ م .

- ٣ - تولى وظيفة مأمور أوقاف نابلس من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٢ م .
- ٤ - تولى مديرية الأوقاف الإسلامية العامة في فلسطين من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٧ وأقاله الانكليز لمساهمته في الحركة الوطنية والثورية ، ولم يمارس بعد ذلك عملاً ديوانياً .
- ٥ - شارك في الحركة والتنظيمات القومية العربية في زمن الدولة العثمانية من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٨ .
- ٦ - ساهم في الحركة الوطنية وتنظيمها في فلسطين في سنتي ١٩١٨ - ١٩١٩ .
- ٧ - ساهم في الحركة العربية في زمن الحكم العربي في دمشق ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، وكان عضواً في المؤتمر السوري المنعقد بدمشق وسكرتيراً له .
- ٨ - شارك في الحركة الوطنية والثورية وتنظيمها في فلسطين من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٧ ، ثم استمر في مساهمته وهو في سورية ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ، وكذلك في سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٨ .
- ٩ - كان يشغل مراكز بارزة في معظم أدوار مساهماته هذه .
- ١٠ - اعتقل أكثر من مرة وحوكم ، وحكم عليه ، وسجن من قبل الانكليز ثم الافرنسيين في كل من فلسطين ودمشق ، ونزح أثناء الحرب العالمية الثانية إلى تركيا ١٩٤١ - ١٩٤٥ ثم عاد إلى دمشق بعد إنتهاء الحرب وما زال يقيم فيها حتى الآن .
- ١١ - في سنة ١٩٤٨ أجريت له عملية في المرارة وأصبح بعدها غير قادر على المساهمة الفعلية في النضال الوطني ولكنه ظل يشارك بلسانه وقلمه ، مع انصرافه إلى القراءة والتأليف في الدرجة الأولى وما يزال على ذلك بفضل الله وتوفيقه ، وقد ثقل سمعه منذ سنة ١٩٣١ حتى صار صمماً ، وكان هذا مما ساعده على ذلك الانصراف .

آثاره العلمية ومؤلفاته المطبوعة حسب سني طبعها :

- ١ - رواية وفود النعمان على كسرى أنو شروان ، طبعت في بيروت سنة

- ٢ - مختصر تاريخ العرب والإسلام كان مقرراً للمدارس المتوسطة ، جزآن
طبعا مرتين في القاهرة في سنتي ١٩٢٥ ، ١٩٢٧ . عدد صفحاتها / ٤١٦ / وقد
طبعا في المطبعة السلفية .
- ٣ - القسم النظري من « كتاب دروس في فن التربية » مترجم من الافرنية .
نشر ملحقاً لمجلة التربية والتعليم في بغداد ثم صدر كتاباً مستقلاً . عدد صفحاته ٢٣٢ .
- ٤ - دروس التاريخ العربي كان مقرراً للمدارس الابتدائية ، طبع ثماني مرات
في فلسطين وبغداد في سنتي ١٩٣٢ - ١٩٤٠ عدد صفحاته ٢٩٢ كانت آخر طبعاته
في بغداد .
- ٥ - دروس التاريخ المتوسط والحديث كان مقرراً للمدارس المتوسطة ، طبع
ثلاث مرات في فلسطين ودمشق في سنتي ١٩٣٢ - ١٩٣٨ عدد صفحاته ٢٣٩
وطبعت آخر طبعاته في مطبعة الترقى بدمشق .
- ٦ - دروس التاريخ القديم كان مقرراً للمدارس الابتدائية ، طبع مرتين في
فلسطين في سنتي ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ عدد صفحاته ٢٠٨ وطبع في مطبعة دار الأيتام
الإسلامية في القدس .
- ٧ - تركيا الحديثة طبع في بيروت سنة ١٩٤٦ وعدد صفحاته ٣٥٥ طبع في
دار الكشاف .
- ٨ - بواعث الحرب العالمية الأولى ، مترجم عن التركية والافرنية ، طبع
في بيروت سنة ١٩٤٦ وعدد صفحاته ١٤٩ وطبع في دار الكشاف .
- ٩ - عصر النبي ﷺ وبيئته من القرآن الكريم وحالتهما المعاشية والاجتماعية
والثقافية والدينية طبع في دمشق لأول مرة في دار اليقظة العربية سنة ١٩٤٦ وكان
عدد صفحاته ٥٠٧ ثم طبع في دمشق أيضاً طبعة ثانية موسعة (اي زيد فيه) في نفس
الدار في سنة ١٩٦٠ وصارت صفحاته ٨٤٨ .
- ١٠ - سيرة الرسول ﷺ من القرآن الكريم ، جزآن طبعا في القاهرة لأول مرة
في سنة ١٩٤٨ وجاءت صفحاتها ٧١٨ ، ثم طبعا مرة ثانية في القاهرة في سنة ١٩٦٥

في مطبعة الاستقامة بالتزام المكتبة التجارية الكبرى وطبع في دار إحياء الكتب العربية وجاءت صفحاتها ٨٣٢ .

١ - القرآن واليهود ، أخلاقهم ومواقفهم وأحوالهم في زمن النبي ﷺ . طبع في دمشق سنة ١٩٤٩ وصفحاته ٤٦٧ .

١٢ - القرآن والمرأة ، رسالة طبعت في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥١ وصفحاتها ٦٤ ، ثم وسعت (أي زيد فيها) وطبعت ثانية في صيدا عام ١٩٦٧ بعنوان (المرأة في في القرآن والسنة) وجاءت صفحاتها ٢٧٣ .

١٣ - القرآن والضمان الاجتماعي ، رسالة طبعت في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥١ وصفحاتها ٣٤ .

١٤ - القرآن المجيد ، بحوث في مختلف مواضيع القرآن ، طبع في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥٢ وصفحاته ٣٠٥ .

١٥ - حول الحركة الغربية الحديثة ، انبعاث هذه الحركة وآثارها والحكم العربي في دمشق وسورية ولبنان ، في عهد الانتداب الافرنسي ، وفلسطين في عهد الانتداب الانكليزي وبعده ، ستة أجزاء طبعت في المطبعة العصرية في صيدا تباعا في سنتي ١٩٥١ ، ١٩٥٢ وجاءت صفحاتها ١٣٣١ ، والسادس يبحث في قضايا العرب الرئيسية وقد أعيد طبع الأجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ في سنة ١٩٦١ وجاءت صفحاتها أكثر من الطبعة الأولى ٣٥ صفحة ، والثالث طبع لحدته والرابع والخامس طبعا معا في مجلد واحد ، وعنوانت كمية من الطبعة الجديدة بعنوان (القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها) وجعل الثالث هو الجزء الأول والرابع والخامس معاً الجزء الثاني لهذا العنوان .

١٦ - مشاكل العالم العربي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، طبع في دار اليقظة العربية في دمشق سنة ١٩٥٢ ونال جائزة من الجامعة العربية . وعدد صفحاته ٢٦٧ .

١٧ - الدستور القرآني في شؤون الحياة ، وفيه شرح لما احتواه القرآن من أحكام ومبادئ وتشريعات وقواعد وتقنيات في مختلف شؤون الحياة السياسية والاقتصادية

والإجتماعية والشخصية ، طبع لأول مرة في دار احياء الكتب العربية في القاهرة سنة ١٩٥٦ وجاءت صفحاته ٦٠٣ . ثم أعيد طبعه سنة ١٩٦٧ في القاهرة أيضاً في نفس الدار موسعاً بعنوان (الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة) وصار جزئين وصدر الأول وصفحاته ٥٨٤ في سنة ١٩٦٧ والثاني وصفحاته ٤٩٨ في سنة ١٩٦٩ .

١٨ - الوحدة العربية ، مباحث في أحوال البلاد العربية والعرب وضرورة الوحدة وتوافر عناصرها وعقباتها ومعالجاتها ، طبع في بيروت سنة ١٩٥٨ بواسطة المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر في مطابع دار الكشاف وعدد صفحاته ٧٢١ ونال الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية سنة ١٩٦١ .

١٩ - تاريخ بني اسرائيل ، من أسفارهم ، طبع في مطبعة نهضة مصر في القاهرة سنة ١٩٥٨ . وعدد صفحاته ٣٣٤ وطبع مرة ثانية في القاهرة طبعة شعبية في سنة ١٩٦١ من قبل اللجنة القومية للتأليف والنشر في ثلاث حلقات وهي ٨١ ، ٨٣ ، و ٨٥ . ثم طبع طبعة ثالثة بواسطة المكتبة العصرية في صيدا ألحق بها رسالة : اليهود في القرآن الكريم - احوالهم وأخلاقهم ومواقفهم من الدعوة الإسلامية والجزء الذي تلقوه منه ﷺ .

٢٠ - تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة ، ويربط حلقات - تاريخ هذا الجنس - وموجاته من جزيرة العرب وتأثرها في مهاجرها ببعض - في سلسلة واحدة ، صدر منه ثمانية أجزاء طبعت تباعاً في صيدا في المطبعة العصرية في سني ١٩٥٨ - ١٩٦٤ وعدد صفحاتها « ٣٢٦٢ » والأجزاء الأربعة الأولى في تاريخ الجنس العربي ؛ في طور العروبة غير الصريحة في الجزيرة وبلاد الشام والعراق ووادي النيل ، والخامس في تاريخه في طور العروبة الصريحة قبل الإسلام في هذه الأقطار ، والسادس والسابع والثامن في تاريخه في طور العروبة الصريحة بعد الإسلام تحت راية النبي ﷺ ثم تحت راية الخلفاء الراشدين ثم تحت راية الدولة الأموية .

٢١ - العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي ، وهو موسوعة في تاريخ الدول والإمارات والمشیخات والاقطاعیات والقبائل العربية في مدى هذه الحقبة التي امتدت أحد عشر قرناً ، في العراق وجزيرة الفرات وسورية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر والسودان والصومال وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى . وطبعت أجزاءه في دار اليقظة العربية بدمشق في سنتي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ وعدد صفحاتها « ٢٠٤٢ » والأجزاء الثلاثة يصح أن تعد من حلقات تاريخ الجنس العربي . وتتمه لهذه الحلقات ، وقد اتفق على إعادة طبع أجزاء هذا الكتاب طبعة جديدة مع المكتبة العصرية في صيدا .

٢٢ - مأساة فلسطين ، رسالة طبعت في دار اليقظة العربية في دمشق ١٩٦٠ وعدد صفحاتها « ١٣٢ » .

٢٣ - جهاد الفلسطينيين ، طبع في القاهرة سنة ١٩٦١ وصفحاته « ١٠٦ » في دار الكتاب العربي .

٢٤ - عروبة مصر ، قبل الإسلام وبعده ، طبع الكتاب لأول مرة طبعة شعبية في مصر من قبل - لجنة التأليف والنشر القومية - في سنتي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ في حلقتين ، ثم طبع في كتاب مستقل طبعة جديدة في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٣ وجاءت صفحاته « ١٩٩ » .

٢٥ - التفسير الحديث ، وهو تفسير كامل للقرآن الكريم مرتب السور حسب روايات النزول وأسلوبه حديث ، يجمع بين المأثور والرأي . أجزاءه اثنا عشر . طبعت في دار أحياء الكتب العربية في القاهرة تباعاً في سنتي ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ وعدد صفحاتها « ٣٥٧٦ » . وقد تم تنقيح الأجزاء وتثبيتها لطبعة جديدة موسعة وستكون صفحاتها نحواً من ٥٠٠٠ ، كما تم الاتفاق مع المكتبة العصرية على طبع الأجزاء المنقحة بتشجيع من سماحة مدير الشؤون الدينية في دولة قطر وبوشر بالطبع فيه .

وبذلك يكون عدد الكتب المطبوعة الصادرة « ٢٥ » كتاباً ومفرداتها « ٥٣ » وصفحاتها في طبعاتها الأولى - ١٦٦٥٠ - وفي طبعاتها الثانية نحو - ١٨١٥٠ - .

والمؤلف في المطبعة العصرية في صيدا كتاب جديد تحت الطبع عنوانه : الإسلام والإشترابية ، ويقدر عدد صفحاته بنحو ٣٠٠ ، وفي المطبعة المذكورة تحت الطبع نسخة موسعة لكتابي تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ، والقرآن واليهود . في مجلد واحد ، ويقدر عدد صفحاته بنحو ٤٥٠ .

٢٦ - المرأة في القرآن والسنة ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٧ وعدد صفحاته ٢٦٠ .

٢٧ - الإسلام والإشترابية نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٨ وعدد صفحاته ٢٥٠ .

٢٨ - الجذور القديمة لسلوك وأخلاق بني اسرائيل ، نشرته مكتبة أطلس في دمشق سنة ١٩٦٨ وعدد صفحاته ١٠٠ .

٢٩ - قصة الغزو الصهيوني ، نشرته مجلة الوعي الإسلامي في الكويت بملحق لها سنة ١٩٧٠ وعدد صفحاته ٧٠ .

٣٠ - نشأة الحركة العربية الحديثة ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٢ وعدد صفحاته ٥١٢ .

٣١ - القرآن والمبشرون ، نشره المكتب الإسلامي في دمشق في سنة ١٩٧٢ وعدد صفحاته ٤٦٨ .

٣٢ - القرآن والملحدون ، نشره المكتب الإسلامي في دمشق في سنة ١٩٧٣ وعدد صفحاته ٤٣٠ .

٣٣ - في سبيل قضية فلسطين ، مجموعة مقالات ورسائل ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٣ وعدد صفحاته ٥١٠ .

٣٤ - الجهاد في سبيل الله في الحديث والسنة ، نشرته دار اليقظة العربية في دمشق سنة ١٩٧٥ وعدد صفحاته ٤٣٢ .

٣٥ - عبرة من تاريخ فلسطين القديم ، مجموعة مقالات ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٨ وعدد صفحاته ١٢٠ .

ومفردات هذه الكتب (٦٥) وصفحاتها نحو (٢١٠٠٠) .

• - وهناك مخطوطات عديدة منها ما هو تحت الطبع ومنها ما هو قيد النظر والترميز والطبع وهي : -

١ - في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ، مجموعة مقالات ورسائل في صدد الوحدة مع ترجمة مفصلة . لصاحب الترجمة .

٢ - الجزء الأول والثاني من كتاب (العدوان الاسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث ومراحل الصراع بين أهل البلاد والمعتدين ومصير هذا الصراع) .

٣ - رسالة نقدية لكتاب أنيس الصائغ (فلسطين والقومية العربية) فيها تصحيح أغلط وتوضيح غوامض في سير القضية الفلسطينية .
وهذه الكتب الثلاثة تحت الطبع .

٤ - مذكرات عنوانها (تسعون عاماً في الحياة) في نحو (١٥٠٠٠) ورقة .

٥ - تاريخ العروبة والإسلام تحت راية العباسيين .

٦ - تاريخ العروبة والإسلام في الأندلس .

٧ - تاريخ العروبة والإسلام في جزيرة العرب .

٨ - مجموعة مقالات في شؤون إسلامية متنوعة .

٩ - مجموعة مقالات في صدد القضية الفلسطينية .

١٠ - مجموعة تعليقات على كتب قرأها .

١١ - مجموعة محاضرات أخلاقية وإجتماعية ألقاها في مدرسة النجاح وأندية

فلسطين .

تم بعون تعالى والحمد لله رب العالمين ، ، ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله القائل في محكم كتابه : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » نزل الكتاب بالحق على قلب محمد النبي الصادق الأمين ، ليكون هدى ونبراساً للبشرية يقودها إلى الخير والسعادة بإذن الله الحكيم الخبير ، ،

وصلاة وسلاماً على هادي الإنسانية ، وحامل لواء الحق ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهداة الذين حملوا الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة إلى يوم الدين ، صلاة وسلاماً دائماً سرمدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ...
وبعد :

فقد شاعت إرادة الله لنا ، أن يمتد بنا العمر إلى قرب مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، وأن يكون عمرنا وجيلنا في هذا الزمان الذي صدق فيه قول النبي ﷺ : (القابض فيه على دينه ، كالقابض على الجمر) هذا العصر الذي تميز بفتن كقطع الليل المظلم « يمسي الرجل مؤمناً ، ويصبح كافراً » .

إننا كدعاة إلى الله لم يكن ، والحمد لله وحده ، ليجد الشيطان طريقه إلى قلوبنا قط ، ولم نياس من روح الله ولا من رحمته ،

كيف لا وهو القائل جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) وقد صدق الله وعده ، وأعز جنده ، وها نحن نرى في جميع آفاق المعمورة أنواراً تتلألأ ، ونجوماً تسطع كلها تبشر بنهضة إسلامية عارمة ، ستغير مجري تاريخ البشرية إن شاء الله في المستقبل القريب ، حيث تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

إننا ونحن جادون اليوم في العمل الدائب للاستعداد لمؤتمر السيرة والسنة النبوية الثالث ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، لا يسعنا إلا أن نستعرض كل أولئك الذين كتبوا في هذه السيرة المطهرة ، من قدامى ومحدثين ، وقد تناول الكل جوانب من السيرة ، وبعضهم أجاد ، والبعض عمل على قدر جهده ، ومن الكتاب المبرزين الذين كتبوا في سيرة الرسول ﷺ ، الأخ الشيخ محمد عزة دروزة في كتابه القيم :

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية

الذي نقدمه إلى القراء الأكارم هدية متواضعة من إدارة الشؤون الدينية بمناسبة إنعقاد مؤتمر السيرة في الدوحة عاصمة دولة قطر والكتاب الذي نقدمه إلى القراء ثمرة جهد كبير قام به المؤلف حفظه الله وأمهه بالعون ، وقد نحا في كتابه هذا منحاً جيداً في

التاريخ ، ألا وهو ذكر الشواهد من القرآن الكريم مستعيناً في ذلك
بذاكرة حافظة قوية وذهن وقاد وقد أجاد في عرض السيرة عرضاً
كاملاً ، ثم جاء هذا العرض مدعماً بنظر ثاقب ، وفكر نير مؤمن
يدل على سعة إطلاع مؤلفه وغزارة المسادة ، والثقافة الدينية
الكاملة التي يتمتع بها ، وما كان له أن يصل إلى هذه المرتبة ،
بدون علم حباه الله إياه ، وتوفيق أمده به . ولقد كان الباعث
على تأليف هذا الكتاب استكمال أبحاث بدأها عندما صدر كتابه
الأول (عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة) . وقد كان
ذلك في أوائل عام ١٣٦٦ هـ . حيث وجد أن استكمال البحث
العلمي في وضع كتاب في السيرة النبوية الشريفة مقتبساً من
القرآن الكريم يعتبر عملاً ضرورياً وجديراً بالمتابعة والبحث .
وذلك اقتناعاً ذاتياً ، دينياً بحثاً ، منه ومن كافة العلماء المسلمين
المخلصين لدينهم ، بأن القرآن الكريم هو أصدق الكتب المشهودة
قاطبة وهو أوعاها وأحفظها لما مر بالبشرية من أحقاب وحوادث
خلدها رب السماء في كتابه المحفوظ ، الذي لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ليكون الدليل
القاطع على صدق القضية (ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

ولأن القرآن الكريم على لسان الخالق جل وعلا ، كان خير
مصور لشخصية النبي ﷺ ، وليس هناك أبر ولا أصدق ، ولا أوفى
بالكلام منه كما يقول المؤلف (لأنه يشف عما كان في الشخصية

النبوية الكريمة من قوي ومواهب جعلت صاحبها ، ﷺ ، موضع التكريم والعناية الربانية وأهلاً للاصطفاء بالرسالة العلوية ، ولأنه يطلعنا على الناحية الرائعة حقاً من الظروف والأدوار التي تقلبت فيها الدعوة حتى انتهت إلى ذلك النصر العزيز والفتح المبين ، وحتى صارت كلمة الله هي العليا) .

على هذا الدرب سار المؤلف موفقاً في عمله القيم حتى خرج إلى الدارسين والباحثين وطلاب المعرفة تحفة فريدة في نوعها ، خالية من المزالق ، بعيدة عن الإنحرافات والمهاوي التي يقع فيها بعض الكتاب الذين يتعرضون لسيرة النبي ، ﷺ ، سواء عن حسن نية أو غير ذلك ، فجاء الكتاب بعيداً عن كل ذلك .

وقد كان هذا حافزاً لنا لاختياره لطبعه طبعة جيدة خاصة تقدم هدية من دولة قطر لطلاب العلم الحريصين على سيرة سيد الخلق بمناسبة إنعقاد المؤتمر الثالث للسيرة النبوية في الدوحة عام ١٤٠٠ هـ .

راجين من الله التوفيق والعون ، وآملين أن نكون بذلك قد ساهمنا في وضع لبنة في البناء الشامخ (سيرة النبي ، ﷺ) التي نعزز دائماً بأن نكون جنداً عاملين في ميدانها ...

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير ...
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه

الدوحة في ١ - ١ - ١٤٠٠ هـ

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

مدير الشؤون الدينية

فصل في شخصية النبي عليه السلام

يتألف هذا الفصل من المباحث الآتية :

- ١ — عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكته وقرشيته .
- ٢ — شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة .
- ٣ — أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله .
- ٤ — حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيئية .
- ٥ — صور من اجتهادات النبي الشخصية وما نزل في صددها من القرآن . وصلة ذلك بالمنصة النبوية .
- ٦ — صور لسلوك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم .
- ٧ — الوحي وأوليائه .

المبحث الأول

عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكته وقرشيته

تعميم المستشرقين حول عروبة جد النبي صلى الله عليه وسلم وخطورة دلالة القرآن على ذلك - المؤيدات القرآنية لمكية النبي صلى الله عليه وسلم وعروته وقرشيته - موقف متشابه بين اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم والمستشرقين ورد القرآن الحاسم - دلالة قرآنية على قدم صلات القرين بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش - استدلالات على مكانة عشيرة النجد صلى الله عليه وسلم الخاصة ورفعة شأنها .

الصورة الأولى

إن تعميم بعض المستشرقين حول أصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكته وقرشيته - على رغم أن ذلك من الأمور اليقينية عند المسلمين - يجعل الاستدلال على ذلك من القرآن سديداً ، ويحمل له في الوقت نفسه معنى قويا وخالصاً ، لأن غير المسلمين ، والمستشرقين خاصة ، يمتدحون بأن القرآن أصدق وأسلم مدونة وصلت إلينا من عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد ورد في بعض الروايات أن عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب ، نشأ وترعرع في يثرب عند أخواله ، وأن عمه المطلب حمله وأتى به إلى مكة وقال لمن سأله عنه إنه عبد له ؛ ولقد ورد في بعض الروايات كذلك أن لوالد النبي أخوالا في يثرب كما كان لأبيه عبد المطلب ، وأنه كان يقضي كثيراً من أوقاته في زيارتهم ، ولقد مات في طريقه إلى إحدى هذه الزيارات ، كما ورد في بعض الروايات أن والدة النبي صلى الله عليه وسلم أخذت ابناً وهو طفل إلى يثرب لتزيره أخواله أو أخوال أبيه فيها ، وأنها ماتت في طريق عودتها من هذه الزيارة ، ولقد ندرت تسمية « عبد الله » عند العرب ؛ ولقد قيل عن هذه التسمية : إن العرب يسمون بها حيناً يريدون أن يبقى الاسم الأصلي مجهولاً ، أو أنهم يطلقونها على

صاحب الشخصية المجهولة ، وإزاء هذه الروايات والأقوال أطلق المستشرقون^(١) لخيالهم العنان يستشفون ما وراءها من معانٍ ومغاري ومجھولات ، لاسيما أن في يثرب جاليات يهودية إسرائيلية ، والنبتات السماوية إنما عرفت في هذا القبيل من البشر خاصة، وتساءلوا مشككين عما إذا كانت أصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وأبيه وحده ومكيتهم وقرشيتهم لا يصح أن تكون موضع اشتباه ، وعما إذا كان لا يصح أن يكون هناك اتصال دم وصهر واستعداد جنسي بين جدّ النبي صلى الله عليه وسلم أو أبيه وبين إسرائيلي يثرب ، ورأوا في تعدّد الروايات واختلافها وتغايرها ما جعلهم ينظرون إلى شجرة نسب النبي صلى الله عليه وسلم القريب منها والبعيد على أنها مآثرات دينية إسلامية قد صنعت بعد الإسلام ، ومن الغريب ألا يخطر ببالهم حين أثاروا هذه الشبهات أو أرادوا أن يثيروها أن العرب لو عرفوا مغمزاً في نسب النبي لوجهوه إليه ولذكروه القرآن في معرض الرد كما ذكر كل التهم والمغامز التي وجهوها إليه ، ومن الغريب كذلك ألا يخطر ببالهم أن ينعموا النظر ، أو لعلهم عجزوا عن إنعام النظر ، في الآيات القرآنية ليكفوا أنفسهم مؤونة هذه الحيرة أو هذا التشكيك والتجويم الذي يحلو لهم حول كثير مما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يساعدهم فيه - والحق يقال - ثغرات الروايات العربية الإسلامية .

الصورة الثانية

والآن نأتي إلى ذكر المؤيدات القرآنية :

أولاً : في سورة محمد آية صريحة الدلالة على أصالة مكية النبي صلى الله عليه وسلم

وهي هذه :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرَبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَّهُمْ

سورة محمد ١٣

فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ...

(١) اقرأ مثلاً المبحث الطويل في الجزء الأول من كتاب كابتاني - ترجمة تركية - في نسب النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : لقد تكرر ورود تعبير : من أنفسهم ، ومنكم ، ومهم ، في معرض الخطاب للعرب ولأهل مكة خاصة وفي ذلك توكيد لتلك الأصالة من جهة ولصلة النبي صلى الله عليه وسلم بالعرب بوجه عام من جهة أخرى ، كما ترى فيما يلي :

١ - رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (١) ...

البقرة ١٢٩

٢ - لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...

آل عمران ١٦٤

٣ - لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

التوبة ١٢٨

يَا الْمُؤْمِنِينَ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ ...

٤ - وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقًا رَّغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالتَّخُوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (٢) ...

النحل ١١٢ - ١١٣

ثالثاً : كذلك تكرر وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأُمِّي ، وهو الوصف الذي جاء في القرآن لغير الكتابي ، أو للعرب لأنهم غير كتابيين أيضاً ، كما ترى في الآيات التالية :

١ - فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

آل عمران ٢٠

وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ...

(١) هذه الآية من دعوات إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم أثناء رفعهما قواعد الكعبة ودعاء إبراهيم صلى الله عليه وسلم بأن يجعل مكة بلداً آمناً ، والسلسلة تدل بقوة على أنها في معرض توكيد صلة الأبوة بينهما وبين العرب .

(٢) جمهور المفسرين على أن القرية هنا هي مكة وأن الآية نزلت في ظروف ابتلائها بقحط ومجاعة فكان ذلك دلالة على عذاب الله لأن أهل مكة كذبوا الرسول الذي جاءهم وهو منهم .

٢ - الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ...
الأعراف ١٥٧

٣ - هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ... الجمعة ٢
وهكذا تلتحم الصلة بين العرب والنبي صلى الله عليه وسلم في الجنسية أيضاً فوق التحامها بينه وبين مكة وأهلها .

ويحسن أن نقف قليلاً عند آية الجمعة لنشير إلى ما يلهم مضمونها ومضمون ما بعدها من مؤيدات ، وإلى موقف لبعض اليهود فيه شيء من التشابه من ناحية ما مع ما حام حوله بعض المستشرقين . ونورد أولاً الآيات التالية التي جاءت بعدها :

« وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّنَا أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّنَا أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...
الجمعة ٣ - ٦

فالآية السابقة وهذه الآيات تلهم بقوة أن اليهود أنكروا نبوة النبي لأنه من العرب الأميين ، وهو أمر مخالف لما كانوا يعتقدون من اختصاص بني إسرائيل بالنبوات من دون الناس ، فأكدت الآيات من جهة أن الله قد بعث في العرب رسولا منهم ليعلمهم ويهديهم هم وآخرين منهم من بعدهم أيضاً ، وردت من جهة ثانية على اليهود بأنه لا حرج على الله فهو صاحب الفضل يؤتيه من يشاء ، ونددت من جهة ثالثة بهم بأسلوب لاذع لتكذيبهم بآيات الله ناسبة إليهم مناقضة التوراة وعدم رعايتها .

ويظهر أن هذا الموقف من اليهود قد تكرر واستمر ، فتكرر التنديد القرآني بهم بأساليب فيها وضوح أكثر ، كما ترى فيما يلي :

١ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ
يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
الْكٰفِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ
مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ...

البقرة ٨٩ - ٩٠

٢ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ...

٣ — وَذَكَرَ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ^(١) لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ...

البقرة ١٠١

البقرة ١٠٩

والاستنتاج الذي تؤدي إليه الآية ٨٩ هو على ما ذكره الرواة زهوم على العرب
قبل البعثة وقولهم إنه سيعث نبي من العرب عندهم صفاته يكونون معه حزبا عليهم . وجملة
« فلما جاءهم ماعرفوا » وجملة « من بعد ما تبين لهم الحق » تتضمنان إشارات تفسيرية تؤيد
الروايات ، كما أن آية الأعراف ١٥٧ التي نقلناها قبل ، تتضمن تأييدا من ناحية أخرى ،
إذ لا يمكن أن يكون محلا للريب ما تؤكد هذه الآية - من أن اليهود والنصارى يجدون
صفات النبي صلى الله عليه وسلم عندهم - وهي تتلى جهره ، فليس لهذا معنى إلا أن يكون
مما قالوه ، وقرروه ؛ والآيات صريحة في تعليل موقف اليهود وتناقضهم بأن ذلك إنما هو
حسد وبغي ومكابرة .

وواضح أن التوكيد القرآني تجاه إنكار اليهود هو توكيد قرآني حاسم كذلك تجاه
تحويلات المستشرقين حول موقف يمانه من ناحية ما .

رابعا : لقد تكرر ورود كلمة « قوم » مضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في آيات
مكية كما ترى فيما يلي :

١ — وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ أَلْحَقُ ... الأنعام ٦٦

٢ — وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ الزخرف ٤٤

وفي آية في سورة إبراهيم تقرر أن الرسل لا يرسلون إلا بلسان أقوامهم ، وفي هذا ينطوي تقرير كونه منهم كما ترى فيها :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ... إبراهيم ٤

ولقد تكررت التقريرات القرآنية بعروبة القرآن ، وبأن الله قد يسره بلسان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ليفهمه الذين خوطبوا لأول مرة وهم العرب ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... يوسف ٢

٢ — فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ...

سريم ٩٧

٣ — نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

الشعراء ١٩٣ - ١٩٥

مُبِينٍ ...

وهكذا تلتحم الصلة أيضاً من هذه الناحية بين عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وكونه جزءاً من العرب ، ثم جزءاً من عرب مكة وقريشها بنوع خاص .

خامساً : في سورة الأحزاب الآية التالية :

« إِنَّا أَهْلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ... »

الأحزاب ٥٠

فهذه الآية تدل بصراحة على أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة أعمام وعمات وأخوال وخالات ، وأنه قد تزوج من بناتهم اللاقي كن في عداد المسلمين المهاجرين إلى يثرب . والمعروف اليقيني أنه لم يكن بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هاشميات

أي من أسرته القريبة كما أنه لم يكن ينهن بنات أخوال وخالات قريبة مباشرة. وزوجاته القرشيات المهاجرات هن عائشة بنت أبي بكر . وحفصة بنت عمر وسودة بنت زمعة . وهند أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة . ورملة أم حبيبة بنت أبي سفيان . وأقرب القرشيات إليه أم حبيبة لأن جدها عبد مناف . وهو جده الثالث . أما الأربع الأخريات فإنما يلتقي بهن في أجداد أبعد . فيلتقي بعائشة التي هي من بطن التيم في جده (مرة) وبحفصة التي هي من بطن عدي في جده (كعب) وبسودة التي هي من بني عامر في جده (لؤى) ويلتقي بأم سلمة التي هي من بني مخزوم في جده (كلاب) . فهن والحالة هذه بنات عمومته من بعيد جداً إلا واحدة وهي أم حبيبة التي هي من بنات عمه من بعد غير بعيد ولقد كانت أم والده من بني مخزوم . وهم بطن أم سلمة فتكون من ناحية ما من بنات خالاته أو أخواله من بعيد غير بعيد^(١) . ولعل بعض الأخريات يتصلن به من مثل هذه الناحية أيضاً . لأن المصاهرة كانت واشجة بين بطون قريش .

وهكذا تبدو بنص القرآن صلة القربى بالعمومة والخوولة غير المباشرتين ، وبالتالي صلة القربى القديمة التي قد تعود إلى عدة أجيال بين النبي صلى الله عليه وسلم ومختلف بطون قريش قائمة لا تحتمل ممرات . ولقد أشير إلى هذه الصلة إشارة قوية في إحدى آيات سورة الشورى وهي :

« قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » الشورى ٢٣

فهي تدعو النبي إلى أن يقول لبطون قريش : إن وشائج القربى بينه وبينهم يجب أن تكون قرينة قاطعة لهم على أن دعوته إليهم إلى الدين فوق كل شبهة من مطمع أو أجر ، وإنما هي دعوة القريب قريبه إلى ما فيه الخير ، للمصلحة المشتركة والمودة المتبادلة ؛ ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه في صدر هذه الرواية . أنه لم يكن من بطن من بطون قريش إلا وله صلة قربى بالنبي صلى الله عليه وسلم^(٢) .

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٢١ - ٣٢٣ .

(١) نعتقد أن هذا أو ما يقاربه هو التأويل الأقرب إلى الحق من ذلك التأويل الذي يجعل الآية أمراً =

سادساً : لقد ورد في سورة الشعراء الآية التالية :

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ... » الشعراء ٢١٤

والآية تتضمن - كما هو ظاهر - دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له في مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، فوق ما يلتحم هذا البطن الخاص بوشائج القرى مع سائر بطون قريش . والقرآن القرآنية مضافة إلى أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة محترمة وجانب عزيز ، فقد اضطر كثير من القرشيين المسلمين إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة بسبب ما نالهم من اضطهاد قريش وذوي قرابهم لمتابعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدم وجود من يحميهم وينصرهم ، وهو معنى أشارت إليه آية في سورة النحل هي :

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ... » النحل ٤١

هذا في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعه غيره من رجالات المسلمين القرشيين لم يهاجروا ، وظل النبي يقوم بدعوته قويا صريحا عنيفا في التنديد والتبكيك والهجوم والإنذار بلسان القرآن ؛ ومع الاعتراف بأن لتأييد الله له بروحه ، وخلق العظيم ، واستغراقه في الدعوة دون مبالاة شيء ، أثرا كبيرا في ثباته في موقفه رغم ما كان يناله من كيد زعماء قريش ومكرهم ومؤامراتهم وأذامهم ، على ما سوف نذكره بعد - فإن مما لا ريب فيه أن قوة عصبية أيضا كان لها أثر غير يسير في هذا ، كما كان ذلك شأن الذين تخلفوا عن الهجرة من رجالات المسلمين القرشيين .

== عودة ذوى قرىبي النبي صلى الله عليه وسلم أجرا على هدايته للناس - هذا مع التسليم بواجب المسلمين باحترام آل النبي صلى الله عليه وسلم لكرامة انسابهم إليه بقطع النظر عن الآية - ونعتقد أن ذلك التأويل إنما دعت إليه تلك الخلافات الحزبية الأولى ؛ على أنه لا يلائم عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتسق مع آيات عدة ورد فيها الأمر للنبي بأن يعلن أنه لا يسأل أحدا أجرا ، وإنما تذكر دعوته للناس حتى يهتدوا . اقرأ آيات الأنعام ٩٠ والمؤمنون ٧٢ والفرقان ٥٧ وسبا ٤٨ والطور ٤٠ والقلم ٤٦ ؛ والخبر المروي عن ابن عباس مما يستأنس به على صحة تأويلنا كما أن تشابه الاستثناء في آيتي الشورى والفرقان يدعمه أيضا . وهذا هو رأى المفسر الطبري بعد أن أورد جميع الأقوال في تفسيره .

ومعلوم أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم كان يتولى سقاية الحاج، وأنه المقصود في المقايسة التي تضمنتها آية التوبة التالية :

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... »

التوبة ١٩

وهذه المهمة التي كان يتولاها العباس ، واحدة من المهام العليا التي كان يتولاها رؤساء بيوتات قريش الرفيعة أو نبالها ووجهاؤها ، أو بتعبير آخر هي عضوية في حكومة مشيخة الأشراف المكية ، وفي هذا دلالة قرآنية من ناحية ما أيضاً على ما كان لبطن النبي صلى الله عليه وسلم الخالص من عزة ومكانة^(١) .

(١) ومن الروايات التي تكاد تصل إلى حد اليقين في صحتها أن عم النبي أبا طالب زعيم بني هاشم والنبي كان شقيق أبيه كان يقف إلى جانبه وينصره ويدافع عنه . وأن معظم بني هاشم وبني عبد المطلب كانوا يتمسبون له مع أنهم لم يكونوا مؤمنين . وأن رؤساء قريش كانوا يتعاشون أذية النبي بسبب ذلك . ولم يسكر في النزوح عن مكة إلا بعد موت أبي طالب . وقد اعتدى عليه هشام بن المغيرة المعروف بأبي جهل مرة فسارع عمه حمزة شقيق أبيه إلى الانتقام منه وضربه ثم أعلن إسلامه . ومما قاله ابن هشام عزواً إلى دين إسحق (إن المصائب إنما تتابعت على رسول الله يهلك خديجة التي كانت له وزير صدق على الإسلام ويهلك عمه أبي طالب الذي كان عضداً وحرزاً ومنعة له ففالت منه قريش من الأذى ما لم تكن تطمح به في حياته) . (ج ٢ ص ٢٥ - ٢٦) .

المبحث الثاني

شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة

غلو بعض المسلمين في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم غلوا لا تبرره نصوص القرآن - بواعث الغلو - كفار العرب وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم طبيعة النبي البشرية في القرآن - عدم علمه من أمر نبوته شيئاً قبل نزول الوحي عليه - مماثلته لسائر الأنبياء - كونه عرضة للأعراض البشرية المتنوعة - تحليلات واستدلالات قرآنية حول نشأته - مدى تعبير « ووجدك ضالاً فهدى » - تعليق على ما يردده بعضهم من أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم قومية - حفاوة القرآن بعملة إبراهيم ومداهها - اتباع ملة إبراهيم قبل البعثة وترجيح كون النبي صلى الله عليه وسلم مهم - اعتكافاته الروحية قبل البعثة وأثرها - تصدياته - مشاركته في بعض تقاليد الجاهلية - تنزهه عن فاسد الأخلاق وشائبة الشرك - صلته ببعض الكتائبين - رفاقه - معارفه المكتسبة - مدى جهد بعض العلماء في نفي ذلك وعدم وجاهته وجدواه - اقتباضه وعدم فضوله - مقامه ورجحان عقله وخلقه في قومه - عدم بروزه في طبقة الزعماء - عدم معرفته الكتابة والقراءة - تنبيهات في صدد ذلك.

الصورة الأولى

من العجيب أن يكون في القرآن آيات كثيرة فيها الكفاية لرسم صورة صادقة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وفيها قرآن وإشارات ودلالات عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته قبل البعثة ، ثم يعتمد بعض المسلمين بل بعض علمائهم ، إلى تجاوز ذلك إلى ما لا تساعد عليه نصوص القرآن ، بل ما تتناقض معها .

فإذا كنت ممن تسنى لهم أن يسموا قصة من هذه القصص التي تتلى في حفلات المولد فقد سمعت ولا ريب نماذج من الغلو الذي يكاد يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم شخصية لاهوتية أو في نطاق اللاهوتية . ولقد وقع غير واحد من كتاب السيرة والشامل وشراحها في هذا الغلو : سواء في سياق ذكر ما قبل نشأة الإنسان الأولى ، أو في سياق

ذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم وحمله وولادته وبشائره ، دون أن يكون لذلك أصل من قرآن أو سند من حديث صحيح ، أو دعامة من منطوق معقول ؛ بل لم يرد في روايات السلف ومدونات السيرة القديمة أيضاً . ويبدو أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتجلى في التميز في عظم الخلق ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وقوة الإيمان ، والفناء في الله والمهمة العظمى التي اضطلع بها ، ورأوا أنه لا بد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون ثمة مقدمات وبشائر ، وإن كان فيها ما يخرج النبي صلى الله عليه وسلم عن النطاق الطبيعي للبشر أو لا لبشائر الأنبياء ثانياً ، ويدخله في نطاق اللاهوتية أو ما في معناها ؛ وذلك حين يصفونه بأنه الأب الأكبر لجميع الموجودات ، وأنه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه لأنه هو المقصود من خلق النوع الإنساني ، وأن جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسي وسموات وأرضين وإنس وجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره ، وأن أحد أجداده ، إلياس ، كان يسمع تلييته بالحج وهو في صلبه ، وأنه كان يعلم بأمر نبوته منذ كان في عالم الدر وبعد خلقته ، ويرى علام ذلك في الشجر والحجر ، وأن أمه سمعت بشائر نبوته ورأت علامتها حين وضعته إلى آخر ذلك مما تجده في القسطلاني وشروحه ومختصراته وغيرها من كتب السيرة والدلائل والشمائل ، وغفلوا عن أن ذلك قد يذهب بحكمة الاصطفاء الرباني لبعض البشر التي انطوت في الجملة القرآنية :

الأنعام ١٢٤

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... »

الصورة الثانية

ومن الغريب والطريف معاً أن يكون مثل هذا الغلو في اعتقاد صفات النبوة هو الذي حمل طائفة من العرب على أن يحددوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ويقفوا منه موقفاً جودياً ، إذ تخيلوا أن النبي لا بد أن يكون فوق البشرية في القدرة على الخوارق

ومعرفة الغيب وتسخير الأكوام والخلود والصعود إلى السماء واستنزال الملائكة الخ ،
فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بشراً مثلهم يقرر بلسان القرآن مثلته البشرية ، ويرد
عليهم حينما يطلبون منه الخوارق بأنه ليس إلا بشراً رسولاً ، عجبوا ووجدوا ، وردد
القرآن موقفهم وندد به في آيات كثيرة ، كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ
جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلْفَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ
عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَإِلَهِهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ
تُرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُوقِكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي
هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ
قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ...

الإسراء ٩٠ - ٩٤

٢ — وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ...

الأنبياء ٧ - ٨

٣ — وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ
إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُنزِلُ إِلَيْهِ كِتَابًا أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا
وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجَالًا مَّنْحُورًا ...

الفرقان ٧ - ٨

والآن نأتي إلى المؤيدات القرآنية .

الصورة الثالثة

فأولا : ما يتصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم .

إن النصوص القرآنية صريحة :

١ - بأن النبي صلى الله عليه وسلم بشر وأن بشريته مماثلة لبشرية الناس جميعا : كما ترى في الجملة القرآنية التالية :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... » الكهف ١١٠ وفصلت ٦

وقد أكد هذا المعنى في معرض الرد على الذين طلبوا الخوارق من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في آيات الأسراء ٩٠ - ٩٤ ، وفي معرض تأكيد أن الأنبياء جميعا بشر كائر الناس كما جاء في آيات الأنبياء ٧ - ٨ التي نقلناها آنفا .

٢ - بأنه لم يكن يعلم من أمر نبوته شيئا قبل نزول الوحي عليه كما ترى في الآيات التالية :

« قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... » بونس ١٦

٣ - بأنه لم يكن بدعا من بين الرسل ولم يكن في شخصيته ورسالته ووحى الله له غير ما كان في الرسل السابقين ، كما ترى في الآيات التالية :

١ - « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ... » آل عمران ١٤٤

ب - « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ... » النساء ١٦٢

ت - « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ... » يوسف ١٠٩

ث - « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... » الرعد ٣٨

ج - « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ... » الفرقان ٢٠

ح - قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِيَوْمِ الْقِيَامِ إِنَّ اتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...
الأحقاف ٩

ونبه خاصة إلى أن جل هذه الآيات إنما ورد ردًا على الذين جحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه بشر كسائر البشر ولأن شخصيته كسائر الشخصيات البشرية ؛ وهذا مما يدعم المعنى الذي نقرره .

٤ - بأنه لم يكن من جنس الملائكة أو المخلوقات العلوية ولم يكن يعرف الغيب وأنه عرضة للضرر والأعراض المتنوعة الأخرى كسائر البشر كما ترى في الآيات التالية :

١ - قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُكَ إِلَّا مَآيُوحَىٰ إِلَيَّ ...
الأنعام ٥٠

ب - قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ...
الأعراف ١٨٨

ت - وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ أَتَّخِلِدُونَ ...
الأنبياء ٣٤

ث - وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يُحْضِرُونِ ...
المؤمنون ٩٧ - ٩٨

ج - لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ...
الأحزاب ٥٢

ح - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ ...
التحریم ١

خ - أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ...
الضحى ٦ - ٨

د — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَقْنَصَ ظَهْرَكَ . . .

الشرح ١ - ٣

إذا كان أكثر هذه الآيات قد نزل لمناسبات حدثت بعد البعثة - إذ جاء بعضها في معرض الرد على تعجيز الكفار وتحديهم ، وبعضها في صدد ظروف النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية - فإن شمول دلالتها لشخصيته قبل البعثة من باب أولى ؛ كما هو المتبادر .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وثانياً: ما يتصل بنشأة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة .

فأولاً : أن آيات سورة الضحى ٦ - ٨ من أقوى وأوضح النصوص القرآنية في نشأة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته إلى مبدأ الوحي ؛ وقد نقلناها قبل قليل ؛ إذ تقرر الآيتان الأولى والثالثة :

١ - ما هو من البدائه المعروفة اليوم من أن النبي كان يتيمًا ، وأنه نشأ في حضانة رحيمة من جده ثم من عمه أبي طالب . وتعبير « فأوى » يتضمن تقرير هذه الحضانة بالصفة التي وصفناها والتي استمرت حتى انقلبت إلى حماية قوية من عمه كما يدل معنى « الإيواء » ولقد استعمل هذا التعبير في آيات أخرى تضمنت تقرير هذا المعنى ، كما ترى فيما يلي :

١ - وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

الأنفال ٢٦

٢ - إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الأنفال ٧٢

وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا . . .

ب - أنه كان فقيراً فأغناه الله . وأخبار السيرة التي لا اختلاف في جوهرها ولاتناقض تذكر ظروف ذلك على ما هو معروف من صلة السيدة خديجة بنت خويلد رضى

الله عنها به عن طريق عمله لها في التجارة واقتترانه بها نتيجة هذه الصلة^(١) .
وإذا كان ثمة شيء نذكره على هامش ذلك ؛ فهو ما نعتقده من أن هذه الصلة
كانت فاتحة عهد جديد ، بل حادثاً حاسماً في حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم
كان له أكبر الأثر في الاتجاه النهائي الذي اتجه إليه ، وتهيأت به نفسه وقواه الروحية
لتلقي الرسالة العظمى والنهوض بها ؛ إذ أغناه الله عن الضرب في الأرض في سبيل
الرزق ، فاستطاع أن يتمتع في جانب السيدة بالحياة العائلية الهنيئة المطمئنة من جهة ،
وأن يتفرغ من جهة أخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر في ملكوت الله
وآلائه ، والقيام برياضاته أو اعتكافاته الروحية ، فارغ القلب من هموم المعيشة
وضروراتها . ولعلنا لا نتجاوز إذا قلنا أن الإشارة القرآنية إلى هذا الحادث بالأسلوب
الذي وردت به ، تتضمن تنويهاً أو بالأحرى تقريراً لاستحقاق الحادث للتنويه . وننبه
على أن روايات السيرة لم تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بأي رحلة تجارية ،
أو شغل نفسه بأي مشغلة دنيوية كسبية بعد اقتترانه بالسيدة خديجة رضي الله عنها وكل ما
ذكرته فهو أخبار رياضاته واعتكافاته ، ثم أخبار قليلة أخرى أهمها حادث التحكيم في
وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة ؛ وفي هذا توكيد لصحة ما نقره^(٢) .

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وتجمع هي والنبي في قصي . وكانت أرملة
من زوج اسمه أبو هاله وكانت ذات مال تبعت الرجال مع القوافل ليتاجروا لها . فعرض أبو طالب عليها أن
تسأجر عمدا فوافقت فخرج بمالها وربحت التجارة فتوثقت الصلة بينهما إلى أن انتهت بالزواج . وكان عمره
حين تزوجها خساً وعشرين وعمرها أربعين . وقد خطبها له عمه أبو طالب من عمها في رواية وأبيها في
رواية وابن عمها في رواية .

انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٨ - ٢٠١ .

(٢) خبر هذه الاعتكافات أو الرياضات الروحية ورد في حديث رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين
سنورد نصه في مناسبة آتية . وقد ورد فيه ما يفيد أنه حبب إلى النبي (ص) الحلاء فكان يتزود ويذهب
إلى غار حراء للتعبد في أوقات معينة سميت في الحديث بالليالي ذوات العدد . وحين ينفذ زاده
يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود ثم يعود إلى الغار إلى أن نزل عليه الوحي . الثابت اليقيني بنفس
القرآن أن الوحي القرآني الأول نزل عليه في ليلة من ليالي رمضان . والأحاديث الصحيحة تذكر أنها
إحدى ليالي العشر الأخير منه أو ليلة السابع والعشرين منه . والمتبادر أن هذه الليالي هي الليالي التي كان
يتزود للاعتكاف فيها والتي سميت ذوات العدد . ولقد روى الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ٤٨) أي
بعض الورعين من قريش كانوا يعتكفون في هذه الليالي للتعبد . وسيأتي بعد قليل شرح عن حادث التحكيم .

وإنه ليكني المرأة العربية نغراً أن يكون للسيدة خديجة هذا الأثر العظيم في حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي استمر عظيماً بعد بعثته أيضاً إلى أن توفاه الله وهو أثر نوهت به الأحاديث المروية وخاصة في بدأ بعثته ، وما كان من ثنائها عليه وتشجيعها له وثبيتها إياه ، وإيمانها بكل ما أخبر به ، على ما سوف نشير إليه بعد ، ثم ما كان من تفجع السيد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفاتها وأثرها في نفسه وفي سيرته في أواخر العهد المكي .

أما الآية الثانية : أي « ووجدك ضالاً فهدى » فإنها تقرر فيما نعتقد ، حالة ذات خطورة ودلالة كبيرتين في صدد نشأة النبي صلى الله عليه وسلم الروحية .
ولقد قال المفسرون : إن الآية تحتوي إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته أو في إحدى رحلاته ورووا في ذلك روايات ، كما قالوا : إنها تعني أنه كان غافلاً عن الشريعة التي لا تتقرر إلا بالوحي الرباني ، أو أنه كان حائراً في أسلوب العبادة لله ؛ ونفوا عنه على أي حال أن يكون ضالاً أي « مندجماً » في العقائد والتقاليد الشركية . والنفس لا تطمئن إلى رواية تيهان النبي صلى الله عليه وسلم مضموناً وسنداً ، بل أنها ليست متنقة مع ما تضمنته الآية من من الله على النبي صلى الله عليه وسلم بأعظم أفضاله عليه ؛ وتفسير ضال « بجائر » يحمل معنى الآية على أن المقصود الخيرة في الطريق التي يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه ، وهو المعنى الذي نراه ويضد ذلك :

١ — جملة « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا أَلِيمُنْ » الشورى ٥٢

٢ — آيات الأنعام التالية :

« قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمَالِكِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ... »

حتى لكان هذه الآيات بمثابة شرح وتفسير لآية الضحى .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

ولقد ذكرت ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم في القرآن مرات عدة بحفاوة عظيمة ، في آيات مكة ومدنية ، وفي صدد الجدل والخطاب مع العرب في مكة ومع اليهود في المدينة ، وفي صدد الدعوة إليها والتنويه بها وتقرير صفتها وماهيتها لذاتها أيضاً ، كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...
البقرة ١٣٥

٢ — قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...
آل عمران ٩٥

٣ — إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنَّمِهِ أَجْتَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...
النحل ١٢٠ - ١٢٣

٤ — وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مِثْلِكُمْ إِبْرَاهِيمَ ...
الحج ٧٨

فهذه الآيات وأمثالها تلهم أن ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم التوحيدية الحنيفية ، كانت مما تتداوله الألسنة قبل البعثة ، وعنوانا على الملة المثلى لمعرفة الله وعبادته .

ولقد وردت روايات عديدة عن أفراد من العرب في مكة ويثرب تخلوا قبل البعثة عن تقاليد العرب الشركية ووجدوا الله ، ومنهم من تنصر بعد ذلك ، ومنهم من عبد الله

على ملة إبراهيم أو ماظنه ملة إبراهيم، ومنهم من خرج ينشد اليقين عنهما . على ما ذكرناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » ومما ورد في تلك الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي بعضهم قبل البعثة مثل : زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل ، وأمّية بن أبي الصلت ، وعبد الله بن جحش .

والذي نعتده وهو ما وصلنا إلى استنتاجه وتقريره أيضاً في كتابنا الآنف الذكر ، ونرى أن الآيات القرآنية تلهمه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من هؤلاء الأفراد الذين أنفوا من تقاليد الآباء الشركية والجاهلية ، واعتنقوا فكرة الوحدانية وأخذوا يعبدون الله على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم أو ماظنوه كذلك أو أخذوا يعشون عنها، ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية لما رأوا من انحراف أهلها واختلافهم وتفرقهم شيعاً متنازعة ، وأنه كان كذلك منذ أن نضج شبابه ، وأن اقترانه بالسيدة خديجة رضى الله عنها ساعده على التفرغ لأتجاهه وحياته الروحية هذه التي كان من مظاهرها الرياضات أو الاعتكافات الروحية السنوية في رمضان وفي غار حراء خاصة على ما سوف يأتي بعد والتي كانت وسيلة من وسائل تصفية نفسه وتجليته ذهنه ، واستغراقه في آلاء الله وملكوته وعظمة كونه ووحدانيته والفناء فيه ، مع شيء من الخيرة وطاق النفس ، إلى أن خصه الله بفضله ، فاصطفاه دون غيره من أهل طبقتة لما علم فيه من مواهب عظمى جعلته أهلاً للرسالة ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فصار من الخيرة والفاق إلى الهدى والطمأنينة والخطوة الواضحة القويمية .

الصورة السادسة

هذا ، ونريد أن نشير إلى ما يردده بعض القوميين من العرب من أن الرسالة الحمديّة هي رسالة قومية ، أي أنها استهدفت النهوض بالأمة العربية وإصلاحها وتقويتها وتوحيدها الخ ؛ ومع أن في القرآن آيات تذكر مسئولية العرب عن الرسالة السامية التي شرفهم الله بها مثل :

- ١ — وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ... الزخرف ٤٤
- ٢ — وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِّأَيِّكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... الحج ٧٨

فإن في تلك الدعوى في الحقيقة تميزاً كبيراً ، وإن من الحق أن يقرر أن اتجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته كان دينياً منبعثاً من شعور ذاتي ، أو إلهام ، بما كان عليه العرب من سخر في العقائد الشركية والوثنية ، وانحراف عن سبيل الهدى الديني ، وأن رياضاته الروحية ، وانصرافه عن كل شيء ، واستغراقه في آلاء الله ، في الفترة التي سبقت اتصال وحي الله به ، قد كانت بسبيل ذلك في الدرجة الأولى ، وهذا مفسر لعمومية وإنسانية الدعوة القرآنية وطابعها الديني البارز ، وخاصة في القرآن المبكي . ولعل في آية سورة بونس (١٦) التي نقلناها من قبل قرينة قرآنية حاسمة ، إذ تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي كان بعيداً عن أي نشاط وفضول ، ولم تظهر منه أي بادرة من دعوة عامة قومية أو دينية .

ولا يمنع هذا بطبيعة الحال القول إن الرسالة الحمديّة قد استهدفت كخطوة أولى إنهاض الأمة العربية وتخليصها من جاهليتها وتوحيدها وطبعها بالطابع الإسلامي الذي أهلها لحل مشعل الهداية للعالم .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

ثانياً : ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على كيفية تعبد النبي صلى الله عليه وسلم لربه قبل البعثة .

ولقد استدللنا في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » بآيات عدة ، مثل آيات البقرة ٤٣ و ١٢٥ والأنفال ٣٥ وإبراهيم ٣٧ ومريم ٣١ والحج ٢٦ والإسراء ١٠٧ على أن أهل هذه البيئته من العرب كانوا يعرفون أن الصلاة مظهر من

مظاهر العبادة لله أو الآلهة ، وأنهم كانوا يهومون بصلاة تعبدية ، وأن حالات القيام والركوع والسجود كانت معروفة وممارسة ككيفيات تعبدية عند العرب والكتابين ، وعند العرب أمام الكعبة بنوع خاص ؛ وبناء على هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف هذه الكيفيات ، وأنه كان يمارسها جهرًا عند الكعبة وفي خلواته كعمليات تعبدية قبل بعثته لله وحده تبعاً لاتجاهه الديني الذي ذكرناه آنفاً^(١) ثالثاً : إن آية الصوم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ... »

البقرة ١٨٣

صريحة بأن الصوم كعمل تعبدية كان معروفاً وممارساً عند أهل الكتاب الذين كان منهم في الحجاز عدد كبير ؛ ونص الآية يسوغ تقرير أن العرب أيضاً كانوا يعرفون الصوم كعمل تعبدية ديني أيضاً .

أما أنهم كانوا يمارسون ذلك أو يمارسه النبي صلى الله عليه وسلم فليس في القرآن ما يدل عليه ؛ غير أن هناك روايات وأحاديث يمكن أن يستأنس بها على وقوع ذلك ، ولقد ورد في البخاري حديث عن عائشة رضی الله عنها ذكر فيه أن قريشاً كانوا يصومون يوم عاشوراء في الجاهلية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصومه أيضاً . وهو يوم تجديد أستار الكعبة^(٢) .

ربما : ليس في القرآن نص يمكن الاستدلال به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤدي قبل البعثة شعائر الحج ومناسك الكعبة من طواف واعتكاف واستلام وسعي ووقوف بعرفة ، أو أنه كان يقوم بالمناسك ويرعى الحرمات المتنوعة الأخرى كتقريب القرابين وتحريم الصيد والأشهر الحرم الخ الخ ؛ غير أن الآيات الواردة

(١) كان زيد بن عمرو أحد أفراد هذه الطبقة قبل البعثة النبوية يناجي ربه فيقول (ليك حقا حقا . تمبدأ ورقاً . عدت بما عاذ به إبراهيم . أنني لك راغم . مهما تجشمني فإني جاشم . ثم يسجد) انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٩ .

(٢) انظر تفسير آيات الصيام في تفسير المازن وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي - ج ٥ ص ٤٠٦

في شعائر الحج ومناسك الكعبة المتنوعة تدل دلالة لا ريب فيها على أن جل ما في الإسلام من هذه الشعائر كان يمارسه العرب قبل البعثة ، فلما جاء الإسلام طهره من شوائب الشرك والوثنية على ما قررناه في كتاب عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة ، وبناء على هذا فإن مما يسوغ الجزم به أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بمختلف شعائر الحج ومناسك الكعبة قبل البعثة مجردة من شوائب الشرك والوثنية تبعاً لاتجاهه الديني التوحيدي أيضاً وبما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام أن العرب كانوا يعزون هذه الشعائر والمناسك إلى ملة إبراهيم . وقد أيدت النصوص القرآنية ذلك في آيات عديدة مثل آيات سورة الحج (٢٥ - ٢٦) وسورة البقرة ١٢٤ - ١٢٩ وسورة آل عمران (٩٥ - ٩٧) وقد كان النبي ممن ينشدون ملة إبراهيم ، ولكنه كان على يقين أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ؛ فمن المعقول أن يكون قد مارس تلك الشعائر والمناسك منزهة عن تلك الشوائب .

الصورة الثامنة

خامساً : في القرآن قضية معينة متصلة بممارسة النبي صلى الله عليه وسلم لتقليد من تقاليد الجاهلية ، وهي قضية تبنيه لزيد بن حارثة^(١) ، والجمع عليه أن هذا التبني قد كان قبل البعثة .

أما النص القرآني الذي يتضمن تبني النبي صلى الله عليه وسلم لزيد فهو هذا :

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي . وكان مملوكاً للسيدة خديجة رضى الله عنها فاستوهبه النبي (صلم) منها وأعتقه . وجاء أبوه فخيره النبي بين البقاء عنده أو الذهاب مع أبيه فاختر البقاء فترأ أبوه منه فأعلن النبي (صلم) على ملائ الناس تبنيه له حسب العادة المعروفة فصار يدعى زيد بن محمد . وكان ذلك قبل البعثة . وظل يسمى بهذا الاسم إلى أن أبطل القرآن تقليد التبني وتبعاته . وأمر بنسبة المتبنيين إلى آبائهم في آية سورة الأحزاب الخامسة التي تقول (ادعوهم لآبائهم هو أفسط عند الله) فصار يدعى زيد بن حارثة . وفي فصل التفسير في صحيح البخاري حديث عن ابن عمر جاء فيه ما كنا ندعوه لإزيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعوهم لآبائهم هو أفسط عند الله) انظر أيضاً : تفسير آية الأحزاب في تفسير البغوي والطبرسي وانظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ... »

الأحزاب ٣٦ - ٣٧

وهناك آية أخرى تنفي أبوة النبي صلى الله عليه وسلم لزيد جاءت بعد قليل من هذه الآيات وهي :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ... »

الأحزاب ٤٠

والآيات تحتوي قرائن قوية على أن قضية زيد متصلة بالنبي صلى الله عليه وسلم وتبنيه ، وأنها بسبيل إبطال هذا التقليد وآثاره التي فصلناها في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ، والتي منها حرمة نكاح مطلقة أو أرملة المتبني أسوة بجرمة نكاح مطلقة الابن من الصلب أو أرملة .

وإذا لم يكن في القرآن ما يستدل به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمارس قبل بعثته تقليداً آخر من التقاليد العائلية والاجتماعية التي كانت جارية في بيئته فإننا نرجح ، إن لم نقل نجزم ، قياساً على ممارسته هذا التقليد وتقاليد الحج المتنوعة ، أنه كان يمارس غير هذه وذلك أيضاً .

وفي أخبار السيرة خبر اشترك النبي صلى الله عليه وسلم في حرب الفجار حيث كان يهيب السهام ويعطيها لبعض أعمامه وهو فتى ، وخبر اشترآكه أو شهوده عقد حلف

الفضول ، وخبر تحكيمه في أمر وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة عند تجديد بنائها الخ الح (١) .

على أن من الواجب أن ننبه إلى أن ثناء القرآن على أخلاقه في آيات مبكرة جدا في النزول وهي آيات سورة القلم :

« نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ تَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... »

٤ - ١

يدل دلالة حاسمة على أنه لم يكن بتورط في عادة أو تقليد جاهلي ينبو عنه الذوق السليم والخلق الكريم ولا يتسق مع انصرافه إلى الله وحده واعتكافاته ورياضاته الروحية ، من مثل أكل الميتة وشرب الخمر ومقارفة الزنا والقمار وتقريب القرابين للأوثان . والاشترك في حفلات وطقوس عبادتها وتكريمها الخ الح .

(١) في هذه الجملة ثلاثة أخبار . وهذا موجز فيها :

١ — حرب الفجار التي شهدها النبي كانت بسبب عدوان وقع في منطقة الحرم . والكلمة تعني ذلك . وكانت بين قريش وبعض حلفائهم من ناحية وبين بعض قبائل قيس بن عيلان من ناحية . وهناك حديث مروى عن النبي (صلم) ذكر فيه أنه حضر هذه الحرب مع عمومته ورمى فيها بأسهم وقال وما أحب أني لم أكن فعلت . وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة . (ابن سعد ج ١ ص ١٠٩ - ١١٠) . وفي رواية ابن هشام عن هذا الخبر أن النبي قال : كنت أنبل على أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

٢ — حلف الفضول . بعد أن انتهت حرب الفجار المذكورة اجتمع بعض زعماء بطون قريش في دار أحدهم عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه . وشهد النبي الاجتماع وروى عنه أنه قال (ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حرالتم وإني أغدر به . وقد تحالفت هاشم وزهرة ونيم أن يكونوا مع الظلوم ما بل مجر صوفة . ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول . (ابن سعد ج ١ ص ١١٠ - ١١١) .

٣ — حادث التحكيم . تعرضت الكعبة لسيل شديد صدعها فاتفق زعماء قريش على هدمها وتجديد بنائها . ثم اختلفوا على من يضع الحجر الأسود - وهو حجر صواني لامع كان من تقليد العرب أنه نزل من السماء وأنه هدية سماوية مقدسة فتركوه به ووضعوه في ركن الكعبة تظيما له وكانوا يقبلونه أو يمسونه أو يمشون إليه كلما طافوا بالكعبة في مكانه حتى كادوا يقتلون . ثم اقترح بعضهم تحكيم أول داخل إلى الحرم فكان محمداً فارتاحوا وهنأوا لأنه الأمين وكان قد اشتهر بهذا النعت وحكموه فوضع الحجر في نوب وطلب إلى زعماء قريش أن يسكوا بأطرافه ويرفوه معاً إلى أن بلغ مكانه فوضعه فيه بيده فأرضى بتديره الحكيم الجميع . (ابن هشام ج ١ ص ٢٠٤ - ٢١٤ وابن سعد ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٩) .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

سادساً : في سورة النحل آية تحكى دعوى بعض الكفار أن شخصاً أجنبياً معيناً كان يعلم النبي ، وترد هذه الدعوى ، وهى هذه الآية :

« وَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ... »

١٠٣.

والآية تنفي التعليم الذي أراد ناسبوه في ادعائهم جحود نزول الوحي الرباني بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، غير أنها لا تنفي اتصالاً ما بينه وبين أحد أفراد الجالية الأجنبية كما هو ظاهر ؛ والمتبادر أن الجاحدين لم يكونوا يقولوا ما قالوه لو لم يروا أو يعرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد على شخص من أفراد هذه الجالية في مكة هو أهل علم وتعليم ديني ، وله وقوف على الكتب الدينية السماوية . ولقد أورد المفسرون في سياق هذه الآية رواية مفادها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد فعلاً على نصراني غير عربي اسمه جبر كان يشتغل بالحدادة ، وأنه كان يستمع أحياناً إلى ما يقرأ من تلك الكتب^(١) . وليس من المستبعد - إن لم نقل من المرجح - أن يكون هذا الاتصال بقطع النظر عن اسم الشخص وصنمته ، قبل البعثة ، ثم امتد إلى ما بعد البعثة ، وأن يكون الشخص المنسوب إليه تعليم النبي ممن آمن به وصدق برسالته واندمج في دعوته ، وكان ممن تشير إليهم الآيات المكية الكثيرة التي تستشهد على صحة الرسالة النبوية بهم وتذكر فرحهم بما أنزل الله على النبي صلى الله عليه وسلم وإيمانهم به ، مثل آيات القصص ٥٢ - ٥٣ - والأسراء ١٠٧ - ١٠٩ التي نقلناها في مناسبة سابقة ، ومثل الآيات التالية :

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطبري والزمخشري . وقد ذكرت الروايات أسماء أخرى في هذا السياق منها اسم عائش أو يعيش غلام حويطب بن عبد العزى وكان صاحب كتب وعلم . ومنها اسم بلعام وكان حداداً نصرانياً وكان النبي يمر عليه ويقف عنده أو يدخل إلى عله على مرأى من المشركين .

١ — الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ . . .

الأنعام ٢٠

٢ — وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ . . .

الأنعام ١١٤

٣ — وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِضُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ . . . الرد ٣٦

سابعاً: في سورة الفرقان آية تحكي كذلك دعوى بعض الكفار أن النبي صلى الله

عليه وسلم كان يستمين في نظم القرآن بقوم آخرين ، كما ترى :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْكِرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ

جَاءَهُمْ ظُلْمًا وَزُورًا . . .

٤

والآية إنما تنفي كذلك دعوى الاستعانة ولا تنفي اتصالاً أو صحبة بين النبي صلى

الله عليه وسلم وفريق من الناس ، كما أن تعبير « قوم ءآخرون » يلهم أن المنسوب إليهم

أكثر من واحد والذي يتبادر إلى الذهن أن الكفار لم يكرهوا ليقولوا ما قالوه مما حكته

الآية لو لم يروا أو يعرفوا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم حلقة أو رفاق يجتمعون إليه

ويجتمع إليهم ويتحدثون في الأمور الدينية . وليس من المستبعد - إن لم نقل من المرجح -

أن هذا كان قبل البعثة ثم امتد إلى ما بعدها ، وأن يكون من هؤلاء الرفاق أفراد من

الجلالية الكتابية الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واندمجوا في دعوته ، وعن كانت

تعنيهم تلك الآيات المكية . وقد ذكرت الروايات أسماء عدد من هؤلاء بين المسلمين

السابقين كسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي رضى الله عنهم . ولقد كان

أبو بكر رضى الله عنه صديق النبي صلى الله عليه وسلم الصدوق قبل البعثة ، وكان دائم

الاتصال به على ما ذكرته الروايات المتعددة ، وكان أول من آمن به من الرجال ، وكان

بعض كبار الصحابة مثل عثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف

وأبي عبيدة رضوان الله عليهم كذلك من المؤمنين السابقين ، وكانوا من فتيان قريش

النيرين الذين يكتبون ويقرأون ، فلا يبعد أن يكون هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر من السابقين الأولين من فتيان قريش أيضاً - من هذه الحلقة أو هؤلاء الرفاق .

الصُّورَةُ العَاشِرَةُ

ثامناً : في القرآن بعض آيات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غافلاً قبل نزول القرآن عليه كما ترى في الآية التالية :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ »
يوسف ٣

وأن الله قد علمه ما لم يكن يعلم كما ترى في الآية التالية :

« وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ... »
النساء ١١٣

وأنه لم يكن يتلو قبل القرآن من كتاب ولا يحطه بيمينه ؛ وقد سبق هذا للتدليل على عدم وجاهة ترتيب المجاحدين في صفة التتريل والوحي الرباني كما ترى في الآية التالية :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُضْطَلُونَ ... »
المنكوت ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها قد حملت على ما يبدو بعض علماء المسلمين على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، بل على بذل الجهد في هذا النبي وتوكيده وهذا ما جعلنا نعرض لهذا الأمر في هذه التبذة ؛ لأن له صلة وثيقة بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة .

ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبذل الجهد في هذا النبي ، كما أننا لا نرى هذه

الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحتويه الكتب الدينية وغيرها من مبادئ وأسس وتشريعات وقصص ومما كان يدور على ألسنة الناس من مثل ذلك ، كتاييب كانوا أو غير كتاييب ، بسبب تلك الاتصالات التي تلهم وقوعها الآيات القرآنية ، وبسبب الرحلات التي أجمعت الروايات على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قام بها ، وبسبب طبيعة وجوده في بيئته تلم إلماً غير يسير بهذه المعارف ؛ وكل ما في الأمر أن هذه الآيات هي بسبيل تأكيد صحة الوحي الرباني والتنزيل القرآني ، والتنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد فكر قبل الوحي والتنزيل بالدعوة أو أمل بأن يكون هو الذي اصطفاه الله ورآه أهلاً لوحيه وتنزيله مما يمكن أن تكون الآيات التالية قد أرادت تقريره كما ترى فيها :

١ — قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١) ...
يونس ١٦

٢ — وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُبَلِّغَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...
القصص ٨٦

٣ — وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ...
الشورى ٥٢

ولقد أثبتنا بالاستدلالات القرآنية في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » أن أهل بيئته النبي صلى الله عليه وسلم كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستقرين منهم في الحجاز وعن طريق الرحلات المستمرة

(١) تتضمن الآية فوق ذلك إشارة إلى أنه لم يبدر منه قبل نزول القرآن بادرة دعوة أو سعى في سبيلها حتى يكون للجاحدين مسوغ لاتهمه باقتراء القرآن ونسبته الدعوة إلى الله مؤخرأ .

إلى البلاد المجاورة ، وأن كثيرا من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم قد تسربت إلى العرب وشاهدوا مشاهدتها التاريخية والمعاصرة ، وليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يبقى النبي صلى الله عليه وسلم في عزلة أو غفلة عن هذا كله ؛ وإذا كان من الحقائق التي لا يصح الممارة فيها أن الله قد علم النبي بوحيه وتنزيله أموراً متنوعة كثيرة كان غافلا عنها هو وقومه ، فإن ذلك لا يقتضي أنه كان غافلا عن كل ما حوله من أمور وما يدور في بيئته وعلى السنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين وعرب وغير عرب من أنباء وقصص وظروف وحالات ؛ فإن هذا يناقض طبائع الأشياء .

ولقد يقال إن في القرآن آيات قررت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقومه لم يكونوا يعلمون ما جاءت به القصص القرآنية ، مثل الآيتين التاليتين :

١ — « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ... »
هو د ٤٩

٢ — « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ... »
يوسف ١٠٢

غير أننا لا نرى هذا مما ينقض ما قلناه أو يتعارض معه ؛ فهناك آيات كثيرة أخرى فيها مؤيدات على أن العرب لم يكونوا غافلين أو جاهلين لكثير مما كانوا يسمعون من قصص القرآن وأخبار الأنبياء والأمم الغابرة وأحوالهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ... »
الأنفال ٣١

٢ — « بَلْ قَالُوا أَضُفْتُ أَحْلَمَ بَلِ افْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِثَابِتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ... »
الأنبياء ٥

٣ — فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخُلُقُ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ
يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ...
القصص ٤٨

٤ — وَعَادًا وَتَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَلَهُمْ ...
المنكبات ٣٨

٥ — وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١) ...
الصفات ١٣٧ - ١٣٨

فأيتا هود ويوسف لا تقرران شمول نبي علم النبي وقومه بكل قصة أو خبر قرآني قبل نزول القرآن ، وإنما ما بسبيل قصتي نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم اللتين جاءت الآياتان عقبهما ، فمن الجائز أن يكون في القصتين بعض المعاني أو المواقف الدقيقة التي غفل عنها النبي صلى الله عليه وسلم والسامعون ، وأن تكون الآياتان إنما عنتا ذلك ، لاسيما أن قصتي نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم من القصص الواردة في سفر التكوين من أسفار التوراة بإسهاب ، وقد كانت التوراة متداولة بين أيدي الكتائبيين وخاصة اليهود الذين كان منهم جاليات كبيرة مستقرة في الحجاز كما هو معروف ؛ وليس مما يصح فرضه أن تكون القصتان برمتها مجهولتين جهلا تاما في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرها من القصص القرآنية الواردة في التوراة .

ومعلوم أن في القرآن إشارات إلى أمور كثيرة جدا مما كان عليه الناس في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ودائرا فيها من شؤون وظروف وحالات دينية واجتماعية وأخلاقية ومعاشية ومعارف وأبناء تناولها القرآن بالذكر جدلا وعظة وتعلما وتنديدا وإصلاحا وتشريعا وحظرا وإباحة ، ولا يقول أحد بطبيعة الحال إن هذه الأمور جاءت في القرآن جديدة ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أو يمكن أن يكون في غفلة أو عزلة عنها

(١) يعني قوم لوط وأهلهم المدمرة في طريق القوافل التجارية الحجازية .

قبل بعثته ، وكثير منها متصل بتاريخ وأحوال وتقاليد وظروف عربية وغير عربية ، وليس هناك فرق فيما نعتقد في المدى بين الحالتين .

الصُّورَةُ الحَادِيَةِ عَشْرَةَ

تاسعاً : أن في الفقرة الثانية من آية بوس (١٦) التي نقلناها منذ قريب تدليلاً لأهل مكة أو لزعمائهم على أن الدعوة النبوية والتنزيل القرآني من أمر الله ووحيه ، إذ لو كانت الدعوة من عند النبي صلى الله عليه وسلم لبدت منها بوادر قبل بعثته أيضاً ، على حين أن شيئاً من هذا لم يبدر منه في السنين الطويلة السابقة التي قضاها بين قومه ، ففي هذا التقرير صورة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من انقباضه وعدم تدخله فيما لا يعنيه وعدم ابتداره الناس بأى شأن متصل بعقائدهم وتقاليدهم الدينية . والفقرة القرآنية تنطوي على تذكير زعماء مكة بهذه الصورة النبوية في الحقبة الطويلة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، والتي نعتقد أنه قضاها في الاعتكافات والرياضات الروحية ، وخاصة منذ نضج شبابه وسكون نفسه بالطمأنينة العائلية ، وإغناء الله له عن الضرب في الأرض ابتغاء الرزق على ما ذكرناه قبل .

ونظن أننا في غنى عن القول بأنه لا تعارض بين هذه الصورة وما ذكرناه في الفقرتين السابقتين ، من ترجيح تردده على بعض الكتابيين ، ووجود حلقة رفاق له يجتمع إليهم من الكتابيين وغيرهم ، وجريان الحديث بينه وبينهم في أمور دينية وثقافية متنوعة ؛ فهذه دائرة ضيقة وخاصة كما هو واضح ، بل قد تكون حلقة من حلقات اعتكافاته ورياضاته الروحية .

عاشراً : في سورة « المؤمنون » الآية التالية :

٦٩

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ... »

وقد جاءت في سياق التنديد بكفار قريش على تكذيبهم وجحودهم وعدم

تدبرهم فيما جاءهم ورمىهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون أو مخالطة الجن له كما ترى فيما يلي :

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ... »

٧٠ - ٦٨

والسؤال في الآية (٦٩) استنكاري ، للتنديد بالكفار على تجاهلهم للنبي صلى الله عليه وسلم مع أنهم يعرفونه حق المعرفة ، ويتضمن تعبير « يعرفوا » معاني عديدة كما تلمه روح الآية ؛ أي أنهم يعرفونه بالعقل الراجح ، والأمانة والصدق ، وبعدم الفضول والتدخل فيما لا يعنيه ، وبجبه الخير ومكارم الأخلاق واشتغاره بهما ، وباقتباضه عن الشرور والنكرات والفواحش ومواقف التهم ؛ لأن التنديد بالكفار لم يكن ليستحکم إلا على تجاهلهم مثل هذه الصفات السامية التي يعرفونها فيه تمام المعرفة من قبل .

وفي كل هذا صور عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من أحوال وأخلاق معروفة ، ومكانة محترمة بسببها . ولقد روت روايات السيرة المعتبرة حادث تحكيم زعماء قريش النبي صلى الله عليه وسلم في الخلاف على وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة ، وأنهم كانوا يسمونه الأمين ، وإن قوة الصورة التي تتضمنها الآية لتلمهم بأن هذا الحادث صحيح ، كما تلمهم أن تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بهذه التسمية العظيمة صحيحة أيضاً .

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ

حادي عشر : في سورة الزخرف الآية التالية :

« وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ... » ٣١

وقد تضمنت الآية حكاية حنق الزعماء وعجبهم لعدم نزول القرآن على عظيم من

عظماء مكة والطائف ، واختصاص النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الشرف الرباني . ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم - على أنه كان معروفاً غير نكرة على ما ذكرناه في الفقرة السابقة ، وعلى أنه كان من بطن ذي مكانة محترمة وعصبية عزيزة على ما ذكرناه في فقرة قبلها - لم يكن من الزعماء البارزين في بيئته ، وأن هذا كان من أسباب وقوف زعماء قريش منه موقف الاستكبار والأنفة ، ترفعا عن اتباع شخص ليس له زعامة توجب الطاعة وتبرر الاتباع ، فقد كان للزعامة أثر ودور قويان في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم . وعصره قبل البعثة كما ذكرنا ذلك في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيئته ، ولقد رددت آيات أخرى هذه الأقوال والمعاني وردت عليها كما ترى :

١ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِحَتَّىٰ تَأْتِيَنَا مِثْلَ مَا آتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... الأنعام ١٢٣ - ١٢٤

٢ - وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ... الفرقان ٤١

٣ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ...

٤ - أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ... ص ٨

ونظن أننا في غنى هنا أيضا عن التنبية إلى أن عدم بروز النبي صلى الله عليه وسلم في مجال الزعامة ، وما ورد في آية الفرقان من حكاية استهزاء الكفار به ، لا يتناقض مع ما قلناه في الفقرات السابقة من أنه كان معروفاً برجاحة العقل ومكارم الأخلاق ، ومن أن عشيرته الأقربين كانت ذات مكانة محترمة وجانب عزيز ، فليس ضروريا أن يكون كل معروف بكرم الخلق ورجاحة العقل ، أو كل فرد من عشيرة ذات مكانة

في المجتمع ، زعيما عظيما بارزا كما لا يخفى . ولعل هذا ما استهدفت تقريره الآية التي تلت آية الزخرف التي نقلناها وهي :

« أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مِمِّيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ... »

٣٢

إذ ردت على الزعماء الذين أبدوا العجب لاختصاص النبي صلى الله عليه وسلم من دونهم بالرسالة - مع أنهم الزعماء النافذون المطاعون إذا أمروا ، والمستجابون إذا دعوا - ردا خاصا بأن هذه أعراض دنيوية ، وبأن أمر النبوة رحمة ربانية خاصة منوطة بمؤهلات عظمى لا تمت إلى تلك الزعامات والأعراض الدنيوية بسبب ، وهو ماقررت آيات الأنعام أيضا بسبيل الرد عليهم كما هو ظاهر .

ثاني عشر : إن آية المنكبات ٤٨ التي نقلناها تضمنت نصا صريحا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب أو يقرأ قبل بعثته ، وصيغة الآية تدل على أن هذا الأمر لم يكن يجمله قومه ، إذ تساق في معرض التذليل على صحة الوحي والتنزيل الرباني وفي سورة الفرقان آية أخرى قد تكون مؤيدة للنقطة الأخيرة خاصة وللنقطة الأولى أيضا وهي :

« وَقَالُوا أَأُطِيرُ الْأُولِينَ اُكْتَبَهَا فِيهِ نُمَلِّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأُصِيلًا ... »

فتعير « تملى عليه » بمعنى : تلى عليه ، وتعير « اكتبها » بمعنى استكتبها^(١) والقول حكاية عن الكفار ، أي أنهم كانوا يقولون : إنه كان يستكتب قصص الأمم السابقة ويستمع إلى من يتلوها عليه صباحا ومساء حتى يحفظها ثم يقصها على أنها وحي من الله ، وهذا يؤيد أنه كان لا يقرأ ولا يكتب ، وأن زعماء مكة كانوا يعرفون ذلك .

(١) الرأ تفسیر الطبري والكشاف لآية الفرقان .

ونبه أولاً إلى أن هاتين الآيتين هما اللتان تفيدان أن النبي لم يكن يقرأ أو يكتب
لا كلمة « الأمي » التي وصف بها في آيتي الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ اللتين نقلناها في
مناسبة سابقة ، إذ إن هذه الكلمة قد استعملت فيهما كما استعمل جمعها في الآيات
القرآنية الأخرى^(١) بمعنى غير كتابي وغير كتابيين ، وصفاً للعرب الذين هم ليسوا
أهل كتاب .

وثانياً إلى أن آية العنكبوت إنما تنفي معرفة القراءة والكتابة عن النبي صلى الله عليه
وسلم قبل بعثته ؛ ولقد وردت روايات تفيد أنه كان بعد بعثته يكتب اسمه ، وأنه محا
كتابة معينة بيده في أثناء مفاوضات صلح الحديبية وكتابة عقد الصلح^(٢) . وبقطع النظر
عن سند ومضمون تلك الروايات فليس من المستبعد أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة
بعد بعثته ، كما أن الآية لا تنفي ذلك ، غير أن هذا ، إن كان وقع ، قد ظل فيما نعتقد في
دائرة محدودة لا تعدو كتابة الاسم أو قراءة بعض الجمل ، لأنه لو تعدى هذه الدائرة لأثر
في الروايات والأحاديث على الأقل .

وثالثاً لقد رأينا بعض المستشرقين^(٣) يحاول البرهنة على أنه من غير المعقول ألا يكون
النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً كاتباً على حين قد احتوى القرآن على معارف كتابية
كثيرة ، وكان كثير من فتيان قريش من أمثاله وفي مثل سنه يقرأون ويكتبون ؛ بل
قد رأينا بعضهم يزعم أنه كان يكتب ويقرأ وإنما كان يحاول كتمان ذلك عن الناس
وعن أصدقائه الذين يعرفون ذلك فيه . ومع أننا لا نرى كبير شيء في كتابة النبي صلى
الله عليه وسلم وقراءته وعدمهما ، كما لا نرى إمامه بذلك أو عدمه ينقص من عظمة شأنه على

(١) يمكن استثناء آية البقرة ٧٨ لاحتلال دلالة « الأميين » فيها على معنى الضعفاء في القراءة والكتابة
أو الجهال .

(٢) روى الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٢٨٢ أن النبي صلى الله عليه وسلم أملى على علي رضي الله عنه
عقد الصلح وهو : (هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله) فقال مفاوض قريش : لو نعم أنك رسول الله
ما مننالك ! فقال لعلي : امح رسول الله ، فقال : لا والله لا أحرك أبداً ، فأخذ رسول الله الورقة وليس
يحسن يكتب فكتب مكان رسول الله : محمد .

(٣) كابتاني في بحث الخط العربي ونشأته .

ماسوف نبيته بعد قليل ، فإننا نرى ذلك الزعم غير سليم وغير مستقيم ، وخاصة بالنسبة لما قبل البعثة تجاه صراحة آية المنكبات التي كانت تتلى على الناس وعلى أصدقائه الأذنين الذين يرون صدقه وأمانته وإخلاصه من المقدسات التي تعلو فوق كل مظنة والتي يقوم عليها إيمانهم برسالته ؛ فلا يعقل بأي حال أن تفتوي آية قرآنية على نبي شيء يعرفون عكسه ، كما لا يعقل بأي حال أن يحاول النبي صلى الله عليه وسلم كتمان أمر مثل هذا عن الناس وعن أصدقائه وهم يعرفون صفته ، وليس من الضروري أن يكون قارئاً كاتباً لأن أمثاله ولداته قارئون كاتبون ؛ إذ من الممكن أن يكون عدم قراءته وكتابته بسبب ظروف حياته الخاصة ، إذ تيسر لرفاقه ولداته ما لم يتيسر له ، وهو اختلاف طبيعي ونعتقد أنه هو الواقع .

أما الدعوى بأن ما اكتسبه النبي صلى الله عليه وسلم من معارف كثيرة كتابية وغير كتابية وتاريخية وجغرافية واجتماعية وكونية ودينية تتوقف على معرفته الكتابة والقراءة ، فنشئها في نظرنا أن الباحثين ينظرون بعين الحاضر وعقله أكثر مما ينظرون بعين زمن مضى منذ أربعة عشر قرناً وعقله في بيئته مثل بيئته الحجاز بنوع خاص . وقليل من التفكير يكفي لتبين الغلو في هذه النظرة ؛ فلا مطابع ولا مكاتب ولا وراقة ولا كتب منتشرة متيسرة ، وكل ما هنالك بعض كتب ورسائل وصحف دينية مكتوبة على الأعم الأغلب بغير اللغة العربية ، وفي نطاق محدود جداً . ومن المعقول جداً أن يكون الاعتماد في مثل هذه الظروف على الذاكرة الواعية ؛ وليس بدعاً ولا غريباً أن يكون السماع والحفظ هما طريق اكتساب المعارف التي اكتسبها النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبعدها . إن لم يكن اكتسابه بالوحي الرباني - ومثل هذا غير نادر الوقوع في كل زمان ومكان إلى اليوم ، ومن الأولى أن يكون هو الأكثر حدوثاً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته .

ورابعاً ما دام اكتساب المعارف ليس متوقفاً على القراءة والكتابة لاسيما في ذلك العصر وتلك البيئة ، وما دامت المعارف الكثيرة التي تعلمها النبي صلى الله عليه

وسلم بطريق الوحي والتنزيل الرباني لا تتعارض مع احتمال ، بل حقيقة ، اكتسابه كثيراً من المعارف المتنوعة عن غير طريق الوحي لا سيما قبل بعثته ، فإننا لا نرى في عدم كتابة النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته ما يحاول أن يراه بعض علماء المسلمين أيضاً للتدليل على دعوى أنه لم يكتب شيئاً من المعارف اكتساباً خارج نطاق الوحي ، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها ، لأن في هذا غلوا لا نرى له محلاً ولا إليه ضرورة في صدد كرامة النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة شأنه وقدره ، فوق ما فيه من التناقض مع طبائع الأشياء على ما ذكرناه من قبل بشيء من الإسهاب . ولقد يتوهم متوهم أن في آية العنكبوت نفسها ما ينقض قولنا هذا ، ونحن لا نعتقد ذلك ؛ لأن الآية بسبيل التدليل على صحة الوحي الرباني بالقرآن والتنديد بجاحدي ذلك ؛ والمعارف التي يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسبها شيء ، وأسلوب الكتب السماوية التي كانت تتداولها الأيدي شيء ، والوحي القرآني في طابعه وأسلوبه وطريقته ومداه وروحانيته المستولية النافذة شيء آخر . وكأنما تقول الآية : لو كنت تقرأ وتكتب ولم يكن القرآن وحي الله لكان في أسلوبه ومداه ونظمه وطريقته كالكتب المعروفة المتداولة ، ولكان للجاحدين المبطلين أن يجدوا سبباً للارتباب . ولا تعارض البتة فيما نعتقد بين هذا وبين ماقررناه مدى ومعنى .

المبحث الثالث

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله

في القرآن من وصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ما يفي عن التزيد - تجاهل المستشرقين والمبشرين لنصوص القرآن وتمسكهم بالروايات ومدى ذلك - العبرة في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من هجمات كفار العرب - تحليلات واستدلالات في صدد أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قبل البثثة - مدى ثناء القرآن على خلقه العظيم في آيات مبكرة - لين جانبه وعدم فظاظته وغلظته - رأفته وحرصه - حياؤه - حزنه لعدم امتداع قومه ومفراه - بطولته في ميادين الحرب - استغراقه في مهمته وتعالیه عن مباحج الحياة - جرأته على الزعماء ومعناها - صدقه وأمانته - معرفته لحدوده وإخلاصه - صلة ما بين أخلاقه بمدالبثثة بأخلاقه قبلها - أخلاقه وفضائله الأخرى - تنفيذ ما نسب إليه من الجنون والسحر والشعر والكهانة والافتراء .

الصورة الأولى

في القرآن آيات كثيرة جداً من شأنها أن تساعد على إعطاء صورة مشرقة قوية وصادقة لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، تنفي عن كثير من المبالغات التي يعمد إليها بعض المسلمين على غير ضرورة وعلى غير سند وثيق ، كما أن من شأنها أن تكون ردا حاسما وقويا على الموقف المنكر الذي يقفه سفهاء المبشرين ، ومعرضو المستشرقين من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، إذ يتجاهلون أو ينفلون عما في القرآن في نصوص وتقريرات ، ويتمسكون دوماً بالروايات التي كثيراً ما تكون مخترعة أو مفسوسة أو ضعيفة ، أو يشوهوها أو يحملونها ما لا تتحمل فينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأخلاق والصفات والأعمال المعبية أو المريية أو المسفة ، أو يعزون إليه التناقض بين الأقوال والأفعال وخاصة في العهد المدني ؛ في حين أن في القرآن من الآيات ما فيه كل المقنع لمن لم يحتم الله على قلبه بما كان عليه السيد الرسول عليه السلام من

الصميمية والرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد والاستغراق في الله والتزام المثل الأعلى وإعطاء القدوة الحسنى لذلك كله ، وتبليغه كل ما كان يوحى إليه من الآيات التي احتوت المؤاخذة والعتاب واللوم على ما كان يبدو منه من تصرفات اجتهادية تخالف ما في علم الله أنه الأولى ، وفيه ما يحمل كل منصف من غير المسلمين إذ يقرأ تلك الآيات - بل إذ يقرأ القرآن كله - على اليقين بعظمة النبي صلى الله عليه وسلم كل العظمة ، لا سيما حين يطلع على الصورة القرآنية الصادقة القوية التي تضمنت قصة ما كان من نضال بينه وبين الجاحدين ، وحكاية ما كانوا يقولونه عليه ، وينسبونه إليه من مثل تلك الأقاويل والنسب ، وما كان يرد عليهم القرآن من الردود الساحقة المفحمة ؛ ثم اليقين بما يمكن أن يدل عليه ذلك النضال في أدوار الدعوة المختلفة من قوة شخصية ، وما كان له من نصاعة بيان وسلامة منطق وسطوع حجة وإخلاص وبساطة مشرقة أخاذة .

الصورة الثانية

وإنه لما يذهل الإنسان ويثير فيه أشد العجب أن يكون القرآن في متناول كل شخص ، وفيه ما فيه من الدعوة القوية إلى الله وحده منزها عن كل شائبة ، وتوطيد الإيمان والاحترام لجميع أنبيائه وكتبه ، وفيه ما فيه من الحض على كل مكرمة أخلاقية واجتماعية وإنسانية ، والتشجيع على الظلم والإثم والباطل والفواحش ما ظهر منها وما بطن والحث على السلم والسلام . والبر بكل مسلم ، ومراعاة العدل والحق في كل موقف وجعلهما فوق كل اعتبار ، والدعوة بالموعظة والحكمة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى ، وفيه ما فيه من حكاية مواقف أهل الكتاب وخاصة النصارى وفيهم القسيسون والرهبان وما كان مهم من خشوع وخضوع وتصديق واندماج ، حينما لقوا النبي صلى الله عليه وسلم واستمعوا له وشاهدوا أعلام نبوته الصادقة - ثم يكون من هؤلاء الناس الذين يزعمون أنهم داعون إلى الله وهادون إلى

سبيله ومبشرون بملكوته وحاضون على المحبة والسلام ، وأنهم القيمون على الحضارة الإنسانية والآداب الإنسانية والحرية الإنسانية - يكون مهم هذا الجحود وهذا التجاهل وهذا الحقد وهذا الإقذاع في النيل من شخصية من بلغ هذا القرآن وتخلق بأخلاقه وقام بدعوته ، وتحمل في سبيل ذلك راضيا مطمئنا مالا يتحملة إلا أولو العزم الجبار والإيمان الفياض . ومهما يبلغ الحقد في الناس من العمق والشدة ، فإنه ليكون من البشاعة في أقصى درجاتها أن يكابر بعض الناس في إيمان هذه الشخصية الكريمة الطاهرة وقوة عقلها وعمق صدقها ونبل خلقها وإخلاص قلبها .

الصورة الثالثة

وإنه لمن العجيب الذي يزيد في غنائه موقف هؤلاء أن يكون كفار العرب قد وجهوا إلى صاحب الرسالة نفسه وفي حياته كل تهمة ، ورموه بكل فرية ، ونسبوا إليه كل نسبة على أوسع مدى مما يوجه هؤلاء ويرمونه به وينسبونه إليه ، كالكذب والافتراء والاستعانة بالغير والأخذ عن سبق والتعلم والجنون والسحر والشعر والكهانة ، مما حكاه القرآن ، وأن يصمد لهم صموداً باهراً ، وأن يرد عليهم بلسان الوحي القرآني كل ما يتهمونه به وينسبونه إليه رداً قوياً مفجعاً ولاذعاً ، وأن يستمر في دعوته ثابت الجنان ، قوى الإيمان ، إلى أن صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي الدنيا ، وإلى أن اندمج فيها أكترية العرب الساحقة بما فيهم أولئك الذين كذبوا وماروا وجحدوا ونسبوا إليه ما نسبوا إذ لم يعد في إمكانهم المكابرة والمارة وقد رأواهم أيضاً من أعلام النبوة ما رأى من سبقهم إلى الإيمان من عرب وكتابين ، ولسانهم يردد ما حكاه القرآن عنهم .

« رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ^(١)

من المعجيب أن يكون ذلك شأن العرب ثم يأتي أولئك السفهاء والمفرضون اليوم ليكرروا ما قيل من حديث مملول ويميدوا ما كان من أكاذيب مجوجة قد هدمها القرآن هدمًا ساحقًا .

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ^(١) »

٣٣ - ٣٢

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

والآن نأتي إلى المؤيدات القرآنية :

(١) إن الآيات القرآنية الواردة في صدد أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله متنوعة الأساليب والمناسبات ، فمنها ما هو في معرض التنويه والتخصيص في الخطاب ، ومنها ما هو في معرض أحداث السيرة النبوية في عهدها المكي والمدني . والآيات لا تفرق بين ما قبل البعثة وما بعدها كما لا تفرق بين عهدي مكة والمدينة ؛ وكثير مما هو في معرض أحداث السيرة إنما هو في صدد مواقف النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ، وبالتالي في صدد ما ظهر منه بعد البعثة من أخلاق وفضائل ومواقف .

غير أن هناك أولاً تنويهاً وثم نزل مبكراً جداً في أوائل ما نزل من القرآن : وهو آية القلم .

٤

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... »

كما أن هناك آية مكية نزلت في أواسط العهد المكي تضمنت حكمة الله في اصطفاؤه رسلاً ، في معرض الرد على زعماء قريش وتخص النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الأولى ، وهي آية الأنعام :

« وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ
حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... »

١٢٤

فهاتان الآيتان يمكن أن تكونا تعبيرين قويين لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ومواهبه واستعداداته الروحية والذهنية بوجه عام وبالنسبة إلى ما قبل البعثة في الدرجة الأولى ، كما أنهما يصح أن تكونا مسوغين قويين للقول بأن الأخلاق والفضائل النبوية التي أشارت إليها الآيات القرآنية في مناسبات أحداث السيرة راجعة في الأصل إلى هذه الأخلاق والمواهب والاستعدادات التي نضجت في النبي صلى الله عليه وسلم قبل اتصاله بوحى الله وقبل أن يتلقى رسالته وآياته .

والإطلاق في الآيتين يعني سعة الشمول من دون ريب ؛ وليس من وصف يمكن أن يكون أقوى وأصدق وأوسع مدى مما فيهما . فتعبير « الخلق العظيم » يشمل كل عمل وميزة وعادة ومظهر يتصل بخلق شخصي أو اجتماعي أو إنساني أو عائلي ، ويطبعه بطابع العظمة والسمو والتميز كما لا يخفى . ولعل فيما روى في حديث البخاري من أقوال السيدة خديجة رضى الله عنها حين عودته من غار حراء بعد نزول الوحي عليه لأول مرة : « والله لا يحزبك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »^(١) - شيئاً من بيان هذا الخلق العظيم الذي وصف به النبي في أوائل آيات القرآن في معرض التثبيت وبعث الطمأنينة ، كما تدل على ذلك الآيات السابقة لآية القلم وهي :

« ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا
غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَبْيَاسِكُمُ الْمَفْتُونُ .

(١) جاء في هذا الحديث أن النبي (ص) حينما عاد إلى خديجة لأول مرة بعد نزول الوحي وقص عليها ما رآه وسمعه قال لها إني خشيت على نفسي فقالت له كلا والله لا يخزبك الله ... الخ) وهناك حديث رواه الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٤٧ - ٤٨ جاء فيه أنه قال لها (إني خشيت أن أكون شاعراً أو مجنوناً فقالت له أعينك بالله من ذلك يا أبا القاسم . ما كان الله ليصنع بك ذلك مع ما علم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحك) .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . ٧-١

ومقام الرسالة من الرفعة والعظمة لا يسامي ويقتضي من المؤهلات الشخصية والخلقية والعقلية والروحية مالا يمكن أن يوجد إلا فيمن وصلت فيه هذه المؤهلات إلى الكمال ، والتعبير الوارد في آية الأنعام تقرير رباني بأن النبي صلى عليه وسلم قد وصل إلى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس وكبر القلب ورجاحة العقل ، فاستأهل بذلك أن يكون موضع اصطفاء الله ورسالته لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ولأن قولك إن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الذي وصلت به أخلاقه وروحه وعقله وفضائله ومواهبه إلى ذروة الكمال الإنساني - أقوى وأعظم بكثير من أن نقول إنه خلق قبل الأكوام وإن الأكوام قد خلقت لأجله وإنه أبوها الأكبر الخ ؛ لأن هذه الأقوال إلى ما فيها من تعارض مع طبيعة الأشياء ونصوص القرآن ، فيها إيهام بأن له صفة جزئية إلهية جعلته منذ الأزل في هذه الصفات والأخلاق ولم يكتسبها اكتساباً كما يكتسب الناس أخلاقهم وفضائلهم .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

(٢) في سورة آل عمران الآية التالية .

« فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضْنَا مِنْ

حَوْلِكَ ...

١٥٩

فهذه الآية تقر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من دماثة الخلق ولين الجانب وحسن المعاشرة ، والتنزه عن فظاظة الخلق وغلظ القلب . وهذه أخلاق كريمة عظيمة كانت دون ريب من عوامل نجاحه في مهمته العظمى ، وفيما كان من تفاني أصحابه في سبيله وفنائهم فيه ، وانضواء الناس إلى دعوته ورايته في النهاية كما تلهمه الآية نفسها .

(٣) في سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلُوبِنَا خَيْرٌ لِّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ...

وهذه الآية وردت في معرض حكاية أخلاق المنافقين ومواقفهم وأقوالهم والردّ عليها، حين قالوا إنه أذن، أي سريع الاستماع والتصديق، فصدقت الآية الوصف ثم فسرته، فهو سريع الاستماع والإجابة لكل شيء أو قول فيه خير للمؤمنين، قوي الإيمان بالله والاعتماد عليه، قوي الركون إلى المؤمنين المخلصين والاعتماد عليهم أيضا، قوي الاعتقاد بحسن نياتهم، وهو بهذه الصفات رحمة لهم؛ وهكذا احتوت الآية وصف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من خلق رضي وقلب نقي وسريرة طيبة ورغبة شديدة في خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم.

(٤) في السورة نفسها الآية التالية :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ... »

وهذه الآية تصور أقوى تصوير ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من رحمة ورافة وبر وحرص شديد على مصلحة قومه والمؤمنين، وشعور بما يلزمهم من آلام وما ينافم من مشاق، وما يلقي من جهد وعنت في سبيل إزالة آلامهم وتخفيف ما يشق عليهم. ومما لا ريب فيه أن هذه الأخلاق الكريمة كانت هي أيضا من أقوى عوامل نجاحه وتفاني أصحابه في سبيله وفنائهم فيه وانصواء الناس إلى دعوته ورايته في النهاية.

(٥) في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَّظِيرِينَ إِنَّهُ^(١) وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا

(١) نضجه، أي لا تنتظروا نضجه في البيت.

مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي
مِنَ الْخَلْقِ ...

٥٣

وقد تضمنت الآية تنويها بخلق من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الحياء
والصبر على ما يؤذي نفسه من أصحابه ، وتجنبه كسر قلوبهم وجرح عواطفهم . وهذا من
أعظم الأخلاق وأكرمها وخاصة في الدعاة الهداة .

(٦) في سورة الكهف وطه والشعراء وفاطر الآيات التالية :

١ — فَلَمَّا كَبَبِخِمْ^(١) نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ
أَسَفًا ...

الكهف ٦

٢ — طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ...

طه ١ - ٢

٣ — لَعَلَّكَ بَخِيعٌ^٢ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ...

الشعراء ٣

٤ — أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ^٣ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي^٤ مَنْ
يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ...

فاطر ٨

فهذه الآيات تشير إلى ما كان يطرأ على النبي من غم وهم وحزن وشدة من جراء
مواقف قومه من الدعوة وعدم استجابتهم لها واهتدائهم بهديها . وهذا من أعظم الأخلاق
وأكرمها ، وهو متصل بما قررته آية التوبة ١٢٨ من خلق الحرص الشديد على مصلحة
قومه وهدايتهم ورأفته عليهم .

وهناك آيات عدة تلهم روحها أن من مقاصدها تهذبة روع النبي صلى الله عليه وسلم
وتسليته عما يجده - بسبب عناد قومه وجحودهم وعدم اهتدائهم - من هم وغم حرصا على
خيرهم ومصالحهم ونجاتهم وإسعادهم مما هو متصل بالخلق الذي تضمنته الآيات السابقة ،
ونكتفي من هذه الآيات بما يلي :

١ — وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اُسْتَطَمْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ

(١) مهلك أو قاتل .

أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِنَايَةٍ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ...
الأنعام ٣٥

٢ — وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ
حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ...
يونس ٩٩

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

(٧) في جملة آيات سورة آل عمران في وقعة أحد وردت هذه الآية:

« إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تُلُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ ... »

١٥٣

وقد تضمنت الآية وصف الموقف حيا دارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وثبت
السيد الرسول صلى الله عليه وسلم وحيداً أو كالوحيد في ميدان المعركة غير مبال بما كان،
حتى ظن أنه من جملة القتلى كما ذكرت ذلك آية أخرى في السورة نفسها: « وما محمد
إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » لولا أن
بعض أصحابه سمعوا دعاءه فأسرعوا إليه والتفوا حوله، وكان موقفه وثباته سبب استمسك
المسلمين شيئاً ما. وفي الموقف صورة رائعة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من شجاعة
وثبات جنان في مواقف الشدة وميادين الكفاح والقتال.

ومن هذا الباب موقفان آخران للنبي صلى الله عليه وسلم أشارت إليهما الآيات القرآنية؛
أحدهما: موقفه يوم حنين الذي ذكر في سورة التوبة في الآيات التالية:

« وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ ... »

إذ تضمنت أن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم كان على رأس الفئة القليلة التي ثبتت في الميدان عندما انهزم أكثر المسلمين وكادت تدور عليهم الدائرة؛ وقد روت الروايات هذا كما روت أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم كان يهتف بالمهزمين ويرتجز: أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب .

وثانيهما : موقفه في وقعة الأحزاب التي ذكرت بعض مشاهدتها ونتائجها آيات من سورة الأحزاب إذ جاء أمر عظيم تزلزل منه المسلمون كما ذكرته هذه الآيات :

« إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ...

١١ - ١٠

وقد اغتم المناقون الفرصة فشمتموا ودسوا وبتطوا ، كما ذكرت ذلك هذه الآيات:

« وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ...

١٣ - ١٢

فكان النبي صلى الله عليه وسلم قطب الرحي في هذا الموقف العصيب ، إذ ثبت ثبات الجبال ، رابط الجأش مطمئن النفس ، فكان في ذلك الأسوة الحسنة التي دعا القرآن المسلمين إلى التأسى بها في هذه الآية التي جاءت في سياق وصف الوقعة ، والتي تعني في الدرجة الأولى موقفه فيها :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ...

الأحزاب ٢١

على أن من الحق أن نذكر أن صورة بطولة النبي صلى الله عليه وسلم وثبات جنانه ورباطة جأشه في ميادين الجهاد ليست في القرآن مقصورة على هذه الوقعات الثلاث ، بل هي

قوية البروز في جميع المواقف الجهادية التي تضمنتها سور القرآن كما يلمس ذلك في سور البقرة والنساء والأنفال والتوبة والمجادلة والحشر والمتحنة والصف، إذا ما أنعمنا النظر في آياتها الجهادية ونفدنا إلى روحها، وسوف نستعرض هذه الآيات في فصل الجهاد فنكتفي هنا بهذه الإشارة .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

(٨) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِحْكَ إِن كُنْتَ تَرِدُنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعُنَّ وَأَسْرَحُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا. وَإِن كُنْتَ تَرِدُنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكَ أَجْرًا عَظِيمًا ... »

٢٨ - ٢٩

وهذه الآيات تعرف بآيات التخيير ، وتروى في سبب نزولها رواية مفادها أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبنه بزيادة النفقة والاستمتاع بمتع الحياة بأوسع ما يستمتعن ، وألحعن عليه حتى أئرن غضبه . وروح الآيات تؤيد هذا السبب لاسيما أنها قد جاءت بعد الإشارة إلى ما كان من استيلاء المسلمين على أموال يهود بني قريظة وديارهم وأرضهم ، إذ يلهم ذلك أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبن بما طالبن ، بعد أن رأين أن الله قد فتح على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين هذا الفتح العظيم ، فأنار هذا في نفسه الماء وغضباً أدى إلى أن يهجرهن شهراً وأن يعتزلهن وأخذ يعيش في مخدع وحده كما جاء في روايات السيرة أيضاً على اختلاف لا تأثير له في جوهر الموقف .

والآيات تتضمن في الحقيقة تعليماً وتوجيهاً ربانيين ، غير أنها وخاصة ظروف نزولها تلهم أنها تأييد رباني لما اعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من مضاضة وألم لموقف نسائه الذي من شأنه أن يعوقه عن أداء ما عليه من واجب ، وعن حمل ما على كاهله من أعباء عظمى ، لتعارض ذلك مع ما يطلبن . وفي القرآن أمثلة كثيرة لمثل هذا التأييد الرباني نذكر منها ما تضمنته إحدى آيات تحويل القبلة هذه :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ... البقرة ١٤٤ »
 وفي هذا الذي تلهمه آيات التخيير صورة رائعة جداً من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم تتجلى في عيافه عن زينة الحياة الدنيا ومباهاها ، واستغراقه في مهمته العظمى وفنائه فيها ، وتقديره تعارض تلك مع هذه ، وتخيير نسائه بين رضائهن معه على ما تطمئن به نفسه ولا يتعارض مع مهمته وخلقه ، وبين انصرافهن عنه وتركه يتفرغ لأعباء واجبه الأكبر . وهي من أعلى ما وصلت إليه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من ذرى . وكانت دون ريب من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية ، كما أنها في الوقت نفسه أقوى رد على سفهاء البشرين ومفرضي المستشرقين الذين حاولوا النيل من أخلاقه الكريمة في نسبتهم حب الدنيا ومباهاها وشهواتها إليه ، مع ما كان منه من استغراق في الدعوة وابتعاد عن ذلك في مكة . وتبدو قوة الرد حينما يلاحظ أن الآيات قد نزلت في أواسط العهد المدني وبعد أن تمكن من القضاء على أعدائه اليهود وخضد شوكة المنافقين ورد عادية الأحزاب الذين غزوا يثرب بقوى هائلة لم يجرؤوا بعدها على معاودة الكرة .

الصورة الثامنة

(٩) في القرآن آيات كثيرة جداً تتضمن ردوداً عنيفة قاسية على زعماء قريش وسادتهم وكبرائهم وأغنيائهم وطفاتهم كآيات التالية :

- ١ — كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لِنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فليَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدُ وَأَقْتَرِبُ ... العلق ١٥ - ١٩
- ٢ — وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَسِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ . عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسْطِرُّ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطُومِ ... القلم ١٠ - ١٦
- ٣ — وَبِئْسَ لُكْلٌ هُمْزَةً لُزَّةً . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْأُخْطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْأُخْطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ . الَّتِي تَطْلِعُ عَلَى الْأَفْتِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ... الحمزة ١ - ٩

٤ — تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ... المسد ١ - ٦
مما كان ينبعث منه الشرر ، ويوجه به إلى وجوههم لطات داميات بالوعيد والتفريع
والتحدي . وقد عبرت آية في سورة الحج عن أثر ذلك كله فيهم كما ترى :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغِينَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ
يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ...
٧٢

وفي اعتقادنا أن صرخات النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات وتوجيهها إلى زعماء
القوم وطغاتهم ، وعدم مبالاته بقوتهم وضعفه ، وكثرتهم وقلته - لاسيما أنها من أوائل
ما نزل حين كان المشركون في عنفوانهم وقد كان منهم ما كان من اضطهاد كثير ممن
آمن به وتابعه اضطهاداً أودى بحياة بعضهم ، وأدى إلى افتتان بعضهم - لتمثل خلقاً عظيماً
من أخلاقه الشريفة ، وهو الجرأة في الحق وعدم خشية أحد فيه .

الصورة التاسعة

(١٠) وفي القرآن آيات عدة تحتوي عتاباً أو لوماً على ما كان يبدو منه من تصرف
خلاف الأولى في علم الله ، وما كان يعتلج بنفسه من خلجات لم يكن يطلع عليها غيره ،
مثل الآيات التالية :

١ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُبْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ
عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ
لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ...
الأنفال ٦٧ - ٦٨

٢ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا
قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ...
التوبة ١١٣

٣ — فَذَلِكِ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا

أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ...

هود ١٢

٤ — وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَّ تَرُكِنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ...

الإسراء ٧٣ - ٧٥

٥ — آية الأحزاب ٣٧ التي نقلناها قبلاً .

٦ — عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ...

عبس ١ - ١٠

ففي تبليغ هذه الآيات يتجلى في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الصدق والأمانة في أعلى درجاتهما ؛ ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها حديث جاء فيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان كاتماً لشيء من وحي الله لكان كاتماً آيات الأحزاب ؛ مما يمت إلى ما نحن في صدد تقريره .

(١١) كذلك هناك آيات عدة تحتوي أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن

نفسه والاعتراف بحدوده والوقوف عندها مثل الآيات التالية :

١ — آيتي الأنعام ٥٠ والأعراف ١٨٨ اللتين نقلناها قبلاً .

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ إِيَّايَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ...

يونس ١٥

٣ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ

الشورى ٢٤

الْبَطْلَ وَيَمْحُ الْخُلُقَ بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ...

٤ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . . .

الأحقاف ٨

ففي هذه الآيات وفي تبليغها يتجلى كذلك من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجاتها، الإخلاص والشعور بواجب الوقوف عند ما يجب الوقوف عنده من حدود فضلاً عما يتجلى فيها من قوة تؤكد اتصال الوحي الرباني به وعمق الشعور واليقين به .

ولقد يقال إن مرجع ماجاء خاصة في الفقرات ٨ - ١١ في صدد تبليغات النبي صلى الله عليه وسلم للفصول والآيات القرآنية ، عصمة النبي التي مظهرها الرئيسي التبليغ التام للقرآن وواجب الرسل الذي لا تتحقق صفتهم إلا به ، والذي عبرت عنه آية في سورة الأحزاب وهي :

« الَّذِينَ يُكَلِّفُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا

٣٩

إِلَّا اللَّهَ ...

ثم ذلك الإيمان العميق المستولي على كل مشاعره ، والذي جعله يقيناً في الله والدعوة إليه كل الفناء ، ويرتفع إلى ذرات العظمة والقوة الروحية ، فيستوي عنده الفنى والفقير ، والشبع والجوع ، واللذة والألم ، والراحة والتعب ، وينتفي من نفسه كل خوف من غير الله ، وكل حساب لغير الله ، وكل تردد في سبيل الله ، وتتضاءل في نظره عظمة العظماء ، وهيبة الكبراء ، وعنجهية الأحساب والأنساب ، وعصية الأنانية والذات . وهذا حق لا يحتمل أى شك ، غير أن مما لاشك فيه كذلك أن تحلي النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأخلاق التي قلنا أنها تتجلى في هذه التبليغات ، أمر طبيعي حتى يصح أن يكون أهلاً للاصطفاء الرباني الذي قررت سداها الجملة القرآنية : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، وموضماً للثناء العظيم الذي عبرت عنه الجملة القرآنية هذه : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

الصُّورَةُ العَاشِرَةُ

(٢) وإذا كنا قد عرضنا الآيات التي عرضناها بسبيل التنويه بما تدل عليه من أخلاق وفضائل معينة في النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس معنى هذا أن الأخلاق والفضائل النبوية محصورة في هذا النطاق ، وإنما ذكرناها لأنها وردت بسبيل التخصيص فقط . ففي القرآن آيات كثيرة جداً منبثة في مجموعاته بل في جميع سورته تقريباً انبثاثاً يجعلنا في غنى عن عرض أمثلة منها ، احتوت تنويهاً بمتنوع الأخلاق الفاضلة الإنسانية والشخصية والاجتماعية والمعاشية - من صدق وعدل وبر وأمانة والتزام حق ، واعتدال وإحسان وصلة رحم ، ولين جانب ووفاء عهد ووعد ، ورحمة للضعيف ومساعدة للمحتاج ونصرة للمظلوم ، وصبر وأمر بالمعروف ودعوة إلى الخير وتواضع بالحق والرضاء به وعدم اللجاج فيه والكرم والإنفاق لله والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن ، والتعاون على البر والتقوى والرغبة في السلم والمسائلة الخ - وحنأ عليها وثناء على المتصفين بها وتبشيرهم . وهناك آيات كثيرة أيضاً منبثة في مجموعات القرآن بل في جميع سورته تقريباً احتوت تنديداً بمتنوع الأخلاق السيئة والحاصل المذمومة - من كذب وظلم وبغي وإثم ، وقتل نفس وارتكاب فاحشة ، وانتهاك عرض وإفك وزور ، وعربدة سكر وإسراف وتبذير وخيانة ونكث وعدو وخديعة ، وقطع رحم وحرمان محتاج ، وأكل أموال الناس بالباطل وجبن وشح وأمر بمنكر ، وغلظة قلب وفظاظة خلق وتناقض بين القول والعمل ، ورياء ومنّ ومكابرة وانتقام باغ الخ وتحذيراً منها وإنذاراً للمتصفين بها . ولقد أثر عن عائشة رضي الله عنها حديث فيه جواب لمن سألها عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنها أخلاق القرآن^(١) : وهو جواب فيه كل الحق والصدق والبداهة ، فإن من الحق والمعقول أن القرآن مانوه وأثنى وحث على خلق إلا والذي أوحى إليه به أشد الناس اتصافاً به قولاً وعملاً ، وأنه ما ندد وهبى عن خلق إلا والذي أوحى إليه

(١) روى مسلم عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ، سلم ، فقالت : كان خلقه القرآن (انظر تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٦) .

به أشد الناس اجتناباً له ونفرة عنه قولاً وعملاً ؛ والمصداق القرآني لهذا ثناء الله العظيم عليه وحث الناس على اتباعه وإطاعته والافتداء به :

١ — قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ...

آل عمران ٣١

النساء ٨٠

٢ — مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ...

٣ — لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

التوبة ١٢٨

بِالْمُؤْمِنِينَ رَهُوفٌ رَحِيمٌ :

الحج ٦٧

٤ — وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ...

المؤمنون ٧٣

٥ — وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ...

٦ — يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَىٰ اللَّهِ بِإِذْنِهِ

الأحزاب ٤٥ - ٤٦

وَسِرَاجاً مُنِيراً ...

الشورى ٥٢

٧ — وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ...

القلم ٤

٨ — وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ...

وأي ممارسة في هذا من غير المسلم مهدومة لا تمت إلى أي معنى من معاني المنطق والعقل والإنصاف ، لأن عظمة النبي الهادي ، ونجاح الرسول الداعي إنما يقومان بهذا ، وبهذا فقط ، فهو الأسوة التي يتأسى بها المهتدون به ، والقذوة التي يقتدي بها المستجيبون له ، ولا يتحقق هذا إلا إذا اتصف بأحسن ما بشر به ، واجتنب كل ماندد به ونفر عنه ، ولقد نجحت الدعوة النبوية أيما نجاح فاستجاب له عدد غير يسير من العرب والقسم الأكبر من غير العرب والكتائب الذين كانوا في مكة أولاً ، وبكل رضاء واندفاع وفناء ، واستجاب له عدد عظيم من العرب وعدد آخر من غير العرب والكتائب الذين كانوا في المدينة ثانياً وبكل رضاء واندفاع وفناء ؛ وليس من شك في أن هذا النجاح إنما كان لما شاهدته المستجيبون من أعلام النبوة الصادقة وجماع صفات الخير والفضيلة في

شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يحتمل أي شك أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أول من قدر وأصدق من طبق آية البقرة :

٤٤ « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ... »

وأول من استجاب لأمر ربه ووحيه في آية الزخرف :

٤٣ « فَاسْتَمِيعْ بِاللَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ... »

ومن هذا الباب آية سورة هود هذه .

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

١١٢

بَصِيرٌ ... »

وآية سورة الشورى هذه .

« فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ

أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ... » ١٥

وأي رواية تتضمن ماقد يتناقض مع هذا فهي دون ريب كاذبة أو مفتراة أو ممدوسة

أو محرقة .

الصُّورَةُ الحَادِيَةِ عَشْرَةَ

هذا ؛ وقد يكون مما يتصل بهذا البحث النظر فيما كان يوجهه كفار العرب إلى النبي

صلى الله عليه وسلم من تهمة وعلل عقلية وروحية وخلقية على ما حكاها القرآن عنهم ،

كالجنون والكذب والافتراء والسحر والكهانة والشعر .

والذي نعتقده أن التصدي لتفنيد هذه التهمة والعلل من نافلة القول ؛ فحكايتها في

القرآن - إلى ما فيه من الدليل الناصع على خلق الصدق والأمانة الذي تجلى في تبليغها

وتدوينها - أقوى دليل على كذبها وزيفها ، لا سيما أن القرآن لم يكتب بحكايتها بل

تولى تكذيبها وتزييفها وردّها إلى وجوه قائلها رداً قويا عنيفاً في كل مناسبة حكاها عنهم وكفى بذلك تكديبا وتزييفا . غير أن ترديد سفهاء المبشرين ومفرضي المستشرقين لبعضها وخاصة ابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم بالصرعة يجعل قول كلمة في هذا الموضوع مفيداً ؛ فوق أنه قد خطر لنا بعض الخواطر المستلزمة من القرآن رأينا المناسبة صالحة لتسجيلها .

نحن نعلم أن ترديد هؤلاء لابتلاء النبي - صلى الله عليه وسلم بالصرعة قد استنتج استنتاجا من بعض روايات ذكرت ما كان يطرأ على النبي صلى الله عليه وسلم حينما يوحى إليه أحيانا من حالة جهد وغيوبة وتصيب عرق ، غير أن الروايات التي حكّت ذلك ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حينما تفرج عنه أزمته يستدعي كاتبه ليملي عليه القرآن الذي أوحى إليه به ، أو يجيب على ما يكون قد وجه إليه من سؤال ، كما ترى في النصوص التالية :

١ - حديث في البخاري أن صفوان بن يعلى بن أمية أخبر أن يعلى كان يقول : ليتني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه ! قال : فبينما النبي صلى الله عليه وسلم بالجرانة وعليه ثوب قد أظل فيه معه ناساً من أصحابه ، إذ جاءه أعرابي عليه جبة متضمخ بالطيب فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد أن تضح بالطيب ؟ فأشار عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى يعلى بيده أن تعال ، فجاء يعلى فأدخل رأسه ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم محمر الوجه يفظ كذلك ساعة ثم سرى عنه فقال : أين الذي يسألني عن العمرة آنفاً ؟ فالتمس الرجل فأتى به ، فقال : أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع كما تصنع في حجك .

٢ - من حديث بخاري قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

٣ - من حديث بخاري عن زيد : فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي ،

فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ، ثم سرى عنه فأنزل الله « غير أولي الضرر » وأمرني بكتابتها^(١) .

٤ - في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحي ؟ فقال : أسمع صلاصلا ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض .

وليس لمنصف متدبر أن يصل باستنتاجه إلى تلك النتيجة التي زعموا من هذه الأحاديث .

أما ما كان من نسبة الكفار الجنون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن الآيات التي حكّت ذلك عنهم تلهم أنهم لم يكونوا يقصدون بها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مريضاً مخبول العقل أو مبتلى بصرعة ، وهى الصفات التي تلازم المريض بالجنون . وهو ما لا يعقل عنهم في حد ذاته ، وهم يرونه يتلو الآيات القرآنية الرائعة في بلاغتها ونصاعتها وقوتها ؛ والتي كانت تنفذ إلى أعماقهم رغم مكابرتهم على ما ذكرته الروايات العديدة^(٢) ؛ وإنما كانوا يقصدون رمي النبي صلى الله عليه وسلم بغرابة الأطوار والشذوذ فيما يدعو إليه ويبشر به وينذر ، على ما تعود الناس أن يرموا بمثل ذلك من يتصدى لدعوة جديدة أو يبدي رأياً أو يقول قولاً أو ينحز خبيراً غير مألوف في المجتمع الذي يعيش فيه ؛ وهذا واضح كل الوضوح في الأمثلة الآتية :

١ - وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا^(٣) تَأْتِينَا

الحجر ٦ - ٧

بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ...

(١) هذا الحديث في سياق رواية نزول آية « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » حيث روى أن فقرة « غير أولي الضرر » لم تنزل أولاً وكان ابن أم مكتوم الضرير حاضرًا فقال : يا رسول الله أنا ضرير ! فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الوحي ، ثم نزلت الفقرة (٢) في الجزء الأول من ابن هشام ص ٢٨٥ حديث طويل عن استماع نفر من زعماء قريش للقرآن وتأثيره فيهم ، وكذلك في الجزء نفسه ص ٢٦٥ حديث طويل عن استماع عتبة بن ربيعة للقرآن وانبهاره به . (٣) لوما : بمعنى هلا .

٢ — أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَمْرِفُوا
رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ
كِرْهُونَ ...
المؤمنون ٦٨ - ٧٠

٣ — إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ إِنَّا
لَنَارِكُوا آلَ الْهَيْتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ...
الصفات ٣٥ - ٣٦

٤ — وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ
مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لِنَفِيِّ خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ...
سبا ٧ - ٨

٥ — وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ
إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ...
القلم ٥١ - ٥٢

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةُ

وأما ما كان من نسبتهم إليه الشعر والسحر والكذب والكهانة والاستعانة بالغير
فآيات التي تحكى هذا عنهم تلهم حيناً إنهم كانوا يعنون ما يقولون وحيناً أنهم كانوا
يقولون ذلك على سبيل الممارسة واللدود وقصد الإنكار أو الاستنكار كما ترى في
الأمثلة الآتية :

١ — وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ...
هود (١) ٧

٢ — وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي
وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ...
النحل (٢) ١٠٣

(١) بقصد الاستنكار والممارسة .

(٢) في هذا يعنون ما يقولون حقيقة وقد ردت الآية عليهم .

٣ — لَا هِيَّةَ قُلُوبِهِمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ
أَفْتَاتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ...
الأنبياء (١) ٣

٤ — بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِنَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأَوْلُونَ ...
الأنبياء (٢) ٥

٥ — وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ
كَذَّابٌ ...
ص (٣) ٤

٦ — وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ...
القمر (٤) ٢

ومهما يكن من أمر فالردود القرآنية كاسحة ساحقة لا يمكن لذي عقل ومنطق
وإنصاف من غير المسلمين أن يماري أو يكابر في قوة نفوذها ومداهها وروحانيتها وصدقها
وهدمها لما ينسبونه إليه هدماً تاماً كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ
شَيْءٌ ...
الأنعام ٩٣

٢ — قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّحِرُونَ ...
يونس (٥) ٧٧

٣ — فَلَمَّا أَتَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . . .
يونس (٦) ٨١ - ٨٢

٤ — إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكٰذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِنَايَةِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْكَٰذِبُونَ ...
النحل ١٠٥

(١) في هذا يعنون السحر حقيقة ، وفي الآية رد عليهم ووصف لهم بالظلم .

(٢ و ٣) بقصد المارة والاستنكار .

(٤) في هذا يعنون السحر حقيقة ، وفي الآية رد على ما يبدو منهم من مكابرة .

(٥ و ٦) حمله القرآن على السحر ولو من باب الحكاية تتضمن تزييف نسبة السحر إلى النبي صلى الله عليه وسلم

٥ — هَلْ أَنْبَأْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ . نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُنْقُونَ
السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ...
الشعراء (١) ٢٢٦ - ٢٢٦

٦ — قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفِرَادَىٰ تُنْمٍ تَتَفَكَّرُونَ
مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ
مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنْ
رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيهِ الْبَطُلُ وَمَا يُعِيدُ ...
سبأ (٢) ٤٦ - ٤٩

٧ — آية الشورى ٣٤ وآية الأحقاف ٨ التي نقلناها قبل

٨ — فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ .
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ
لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ...
الحاقة ٣٨ - ٤٨

٩ — فَلَا أُقْسِمُ بِاللُّخَسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا
تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ
أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ
بِضْنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ... التكوثر ١٥ - ٢٦

(٣) تزييف نسبة الشعر جاءت هنا في صورة حملة على الشعراء ، وهذه بلاغة قرآنية .

(٤) يكلفهم أن يفكروا في الأمر منفردين بعيدين عن تهويش المهوشين وحينئذ ينفض لهم الحق ويعرفون في قرارة أنفسهم حقيقة الرسالة النبوية والانداز النبوي .

المبحث الرابع

حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيئية

صور القرآن لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية تصحح كثيراً من الأغلاط المستقرة - مدى تمدد زوجات النبي واحتفاظه بعدد أكبر من المحدد - تنظيم القرآن لزواج النبي وعلاقاته الزوجية ومداه - تمليق على موقف المبشرين والمستشرقين في هذا الموضوع - مدى وصف زوجات النبي بأمهات المؤمنين - مدى إشارة القرآن إلى هبة المؤمنات أنفسهن للنبي - ضحك معيشة النبي البيئية ودلالته ومداه - اختصاصات قرآنية بزواج النبي ومثوليتهن ومداه . مدى عبارة أهل البيت - قضية زواج النبي ... من مطلقة متبناه وتحليلات قرآنية في صدها - عدم التكلف في دخول بيوت النبي وتنظيم القرآن له ومداه - مدى حجاب بيوت النبي وزوجاته تنظيم القرآن لخروج نساء النبي والمسلمين ومداه - صور لمكائدات نساء النبي وغيرتهن - حديث الافك ومداه وأثره - مدى الحملة والتقريرات القرآنية فيه - ذرية النبي صلى الله عليه وسلم - حجرات النبي - مسجده ومجلسه - تمليق على خير خواتم الصحابة عليه - مستلهمات قرآنية عن وقت وفاة النبي ونجاحه العظيم في مهمته السامية .

الصورة الأولى

في القرآن آيات كثيرة تتضمن صوراً عديدة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيئية . والذي ينعم النظر فيها يرى أن في بعض الصور المستقرة في الأذهان ، والمستندة إلى الروايات أغلاطاً لا تتسق معها ؛ وقد استغل بعض ذوي الهوى هذه الروايات التي يحتمل أن يكون كثير منها مدسوساً ومحرّفاً استفلا لا غير تزيه ، وكان يكفي أن تتعارض مع النصوص القرآنية ليظهر الحق واضحاً جلياً .

وفيما يلي نعرض هذه الصور :

الصورة الثانية

(١) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُتْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا . لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا ...

٥٠ - ٥٢

فهذه الآيات تلهم أنها نزلت بعد آية النساء الثالثة التي اعتبرت محددة لما يجوز للمسلم جمعه في عصمته من الزوجات بأربع وهي :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فِي الَّتِي مَاتَ فِيهَا نِكَاحُهَا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنًا وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ^(١) ...

وقد ذكرت روايات السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع في عصمته حين نزول الآيات تسع زوجات بعقد : خمس مهن قرشيات وهن عائشة وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وسودة . وأربع عربيات وهن زينب بنت جحش الأسدية وجويرية المصطلقية وزينب بنت خزيمة وميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة . أما ملك اليمين فكان عنده اثنتان هما صفية النضرية الإسرائيلية ومارية القبطية رضي الله عنهن جميعاً .

(١) بمعنى ألا تجوروا .

وهناك رواية أن آية الأحزاب (٥٢) نزلت متأخرة ، وأن الآيتين ٥٠ - ٥١ نزلتا على حدة ، وليس من ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلق ولم يتزوج بعد الآية (٥٢) . ولما كان هناك رواية تذكر أنه تزوج في أثناء عمرة القضاء وهي العمرة التي أداها في السنة التالية من صلح الحديبية أي في السنة الهجرية الثامنة فتكون الآية (٥٢) إذا صح أنها نزلت على حدة قد نزلت بعد هذه العمرة ، أما إذا كانت الآيات الثلاث قد نزلت دفعة واحدة فتكون قد نزلت في السنة الثامنة ، وتكون آية النساء قد نزلت أيضاً في الظرف نفسه ولكن قبل هذه الآيات فافتضت الحكمة تنزيلها لتنظيم حالة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية - بما لها من صلة بمدى وتحديد آية النساء .

ومهما يكن من أمر فأيات الأحزاب قد استهدفت : (١) استثناء النبي صلى الله عليه وسلم من التحديد الذي ورد في آية النساء : (٢) تحريم زواج جديد عليه (٣) تنظيم علاقاته الزوجية أو صلاته الجنسية بأزواجه .

والنقطة الأخيرة مستلزمة من مضمون الآية (٥١) ، إذ تكاد توحي بأنها تتضمن تعليماً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتصل اتصالاً جنسياً في وقت واحد بأربع من أزواجه ، وتحوله أن يبدل ويغير في هذا الاتصال فيرجي أي يؤجل مؤقتاً من يشاء ثم يعود إلى من يبتغي ممن عزل وأجل مهين ؛ بل نكاد نقول إن هذا القصد ظاهر في مضمون الآية ظهوراً قويا .

وهناك مبرر قوي لهذا المعنى وهو عدم احتمال خروج النبي صلى الله عليه وسلم عن روح التشريع القرآني العام مما هو متصل بأخلاقه الشريفة التي نوهنا بها في البحث السابق . ولقد روى الزمخشري في كشافه رواية ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عاشر بعد هذه الآيات أربعاً فقط من نسائه وهن : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضى الله عنهن ، وأرجأ خمساً . وفي الرواية شيء مما يتسق مع ما قررناه من ملهات الآية (٥١) ، وإن كنا نرى الآية أوسع مدى إذ جعلت عملية الإيواء والإرجاء والعزل والمراجعة شاملة لجميع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم لتقر أعينهن ولا يحزن ويرضين

بما آتاهن كلهن ؛ ولهذا نرجح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطبق هذه العملية على الجميع .

والروايات مجمعة على أن المسلمين الذين كانوا يجمعون في عصمتهم أكثر من أربع نساء قد طلقوا من شاءوا من الزوائد واحتفظوا بأربع . ويبدو أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم خفن هذا المصير الذي يفوت على المطلقات منهن كرامة الزوجية النبوية وكرامة أمومة المؤمنين التي كرمهن الله بها في آية الأحزاب هذه :

« النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ... »

٦

والتي يرجح أنها نزلت قبل الآيات ٥٠ - ٥٢ من السورة ؛ فحزن وقلقن^(١) ، فاقتضت الحكمة الربانية استثناءهن من التحديد مع تنظيم صلوات النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية بهن تنظيماً يتسق مع روحه .

والآية (٥٢) ذات مدى آخر ؛ فإنها حرمت على النبي صلى الله عليه وسلم الزواج ولم تجعل العدد الذي في عصمته أساساً ، بحيث حظرت عليه أن يطلق إحدى زوجاته ليأخذ مكانها غيرها التزاماً للعدد كما هو جائز في حق سائر المسلمين الذين يحق لهم أن يحتفظوا في عصمتهم بأربع زوجات ، وليس عليهم إلا مراعاة العدد المحدد . بل حرمت عليه الزواج لو كان مات جميع نساته بعد نزولها .

ولقد أبدأ بعض المستشرقين والمبشرين وأعادوا في زيجات النبي صلى الله عليه وسلم هذه ، وقالوا : إنه قد سنّ لنفسه قانوناً ينقض القانون الذي سنه لسائر المسلمين ، كما تناولوا عليه بسبب عدد النساء اللاتي تزوج بهن أو جمعهن في عصمته ، ولقد رد كتاب المسلمين على هذا وذلك ردوداً متنوعة وجيهة ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم في تعدد زوجاته لم يكن شاذاً عن بيئته أو عن الطبيعة البشرية ، وأن لجل زيجاته ظروفاً غير

(١) هناك حديث يذكر أن سودة رضيت الله عنها إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أفصحت للنبي عن رضاها بالتنازل عن حقها في العاشرة ، ورجته عدم تطلقها وتقويت مانائته من شرف الزوجية النبوية . انظر تفسير آيات سورة الأحزاب في تفسير البغوي .

دواعي الرغبة الجنسية إذ توخى في بعضها تكريم صاحبيه أبي بكر وعمر رضى الله عنهما بابتئهما عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، وفي بعضها توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل كزيجته بجويرية ابنة رئيس بني المصطلق ، وفي بعضها تكريم الزوجات المهاجرات اللاتي فقدن أزواجهن في هجرة الحبشة وجبر نفوسهن كزواجه من أم حبيب بنت أبي سفيان ، وأم سلمة وسودة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهن لا سيما أن نصف زوجاته كن من المتقدمات في السن وأولات أولاد ممن تقل الرغبة الجنسية عادة فيهن . وجوهر ومدى الردود صحيحان كل الصحة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يرى أنه في حاجة إلى تشريع خاص به مناقض للقانون العام — ونحن نستعمل التعبير مساجلة — لولا أن هناك ظروفاً قاهرة ، وكان بإمكانه أن يستغني عن المتقدمات في السن وذوات البنين وغير الجميلات لو كانت دواعي المسألة هي الرغبة الجنسية فحسب ، فلا يضطر إلى تشريع خاص به ؛ وقد كان تنظيم الصلوات كما جاء في الآية (٥١) حاسماً في أمر هذه الرغبة ومبرراً لاستبقاء الجميع في العصمة النبوية . وفي الآية رد مفحم آخر على الغامزين .

هذا ؛ وبمناسبة وصف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بأمهات المؤمنين نقول : إن هذا الوصف تكريمي فقط ، وأنه لم يترتب عليه أن يكون لهن حقوق الأمهات الإرثية على المؤمنين ، ولا حرمة نكاحهن ؛ بدليل أن هناك نصاً آخر على حرمة نكاحهن كما ترى في هذه الآية .

« وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ

الأحزاب ٥٣

أَبْدًا ...

وبدليل النص على أن محارمهن الذين يجوز لهم أن يدخلوا عليهن بدون استئذان هم أبائهن وأبنائهن وأخواتهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن فحسب ، كما جاء في آية أخرى من سورة الأحزاب وهي :

« لَا جُنَاحَ عَلَيْنَا فِي إِبْرَائِيمَ وَلَا إِسْمَاعِيلَ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَهُمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَهُمْ وَلَا نِسَاءَهُمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ... » ٥٥

وأخيراً نشير إلى جملة « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها » إذ تنطوي على صورة من صور زواج النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة به ، فهو فوق أنه كان يخطب نساءه ويمهرهن جرباً على العادة المعروفة ، كان بعض النساء المؤمنات يمرضن أنفسهن عليه هبة^(١) . ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان قصد التشرف بالصلة به والحرص على نيل الكرامة العليا في الزوجية النبوية ، وقد أباح الله له الاستجابة لمن شاء مسهن تقديراً لهذه الرغبة المخلصة في نيل شرف هذه الزوجية الكريمة . ولعل في هذا ما يؤيد ما كان من حزن نساته وقلقهن من احتمال الفراق ، وما كان من حكمة الله ورحمته بهن بالإبقاء .

الصورة الثالثة

(٢) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكِ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتُمْكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْحَسَنَاتِ لِمَنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا . بَنِيَاءَ النَّبِيِّ مَنْ بَاتَ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضْمَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . وَمَنْ بَقِيَتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَمَلَّ صَلَاحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا . بَنِيَاءَ النَّبِيِّ لَتَنَّى كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أُنْقِيَتْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي

(١) اختلفت الروايات في شخص المرأة التي وهبت نفسها للنبي . وأوتقها أنها ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة . وأنها عرضت نفسها بالذات وفي رواية عرضتها أمها على النبي يوم زار الكعبة في السنة التالية لصلح الحديبية وقد أمرها عباس عم النبي صلعم بأربعائة درهم (انظر تفسير الطبري والبنوني) .

فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا . وَقُرْآنَ فِي بُيُوتِكِنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ
الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا . وَأَذْكُرَنَّ مَا بُتِيَ فِي بُيُوتِكِنَّ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ...

٣٤ - ٢٨

ولقد جعلنا الآيتين الأوليين من هذه الآيات موضوعاً خاصاً في بحث أخلاق النبي
صلى الله عليه وسلم وقلنا في صدد ذلك ما فيه الكفاية .

غير أن فيهما وفي الآيات التالية لهما صوراً متصلة بهذا المبحث غير تلك الصورة
الأخلاقية النبوية .

فأولاً : أن الآيتين الأوليين تدلان على أن معيشة النبي صلى الله عليه وسلم في بيوته
كانت ضنكاً على ما أيدته الروايات الكثيرة ؟ وكان نساؤه يتحملنها على مضض فلما
رأين أن الله قد أفاء عليه أموال بني قريظة على ما ذكرته الآيات السابقة لهاتين الآيتين
طالبنه بالتوسعة فكان هذا التخيير الذي جاء مؤيداً ومردداً لما عرا النبي صلى الله عليه
وسلم من غضب وانزعاج بسبب رغبة نساؤه في الاستمتاع بمباهج الدنيا وشعوره بأن هذا
مما لا يتناسب مع مهمته العظمى ، ومما قد يموقه عن حملها أو التفرغ لها وهذه الظروف
تسوغ القول بأن العيشة الضنك التي كان يعيشها النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن لقلّة
ذات اليد والعجز عن التوسعة مطلقاً ، بدليل أنها ظلت كذلك طيلة حياته ، وإلى ما بعد أن
امتلاً بيت مال المسلمين بالنبيء والغنائم .

وثانياً : أن الآيات التالية للآيتين الأوليين جاءت استطراداً على ما هو المتبادر ،
لتنبيه نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلى مركزهن وواجباتهن ومسئولياتهن الكبيرة
بسبب ما نلن من شرف الزوجية النبوية ؛ كأنما أريد بها التنبيه إلى ما يجب عليهن فهمه
وإدراكه ؛ فمقاب ما قد يقترفنه من ذنب بسبب ذلك الشرف وثواب ما يبدو منهن من
حسنات وخضوع وطاعة مضاعفان ، وقد جعلهن هذا الشرف في مستوى خاص بهن
بحيث صرن قدوة للناس ، وترتب عليهن واجبات أخلاقية وسلوكية وتعليمية كبيرة تتعلق

بما لمن من صلة بالمؤمنين والمؤمنات وبأهداف المهمة النبوية ، وخصصن بالعناية الربانية في رفعة القدر وقصد الإبعاد عن الرجس والتطهير لأنهن صرن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولقد جعلتهن الآية الأخيرة مرجعاً من مراجع الناس في أمور الدين لأنهن ألتصق الناس بمن تنزل عليه آيات الله وحكمته وأكثروا فرصة وقرباً لسماعها وتلقيها وفهمها^(١) ، ومن هنا أيضاً جاء هذا المستوى الخاص الذي جعل لمن ، وهذه المضاعفة في العقاب والثواب ، وهذا التنبيه على عدم الضعف في القول وإطعام مرضى القلوب في التساهل والغفلة في ذكر أوامر الله وحكمته وآياته التي تتلى في بيوتهن وهذا الأمر بالقرار في بيوتهن وعدم الجنوح إلى التبرج واللهو . ولقد احتوت كتب الحديث شيئاً كثيراً عنهن - وخاصة عن اللاتي عمرن منهن طويلاً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - في صدد سنن النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته ، كأثر من آثار هذه التلقينات والأعباء التي قررتها الآيات . هذا ، ونص الآيات وبخاصة عبارة أهل البيت لا تدع مجالاً لتردد ما في أنها قد قصد بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي هن أهل بيته ، وفي توسيع مدى هذه العبارة إلى أبعد من ذلك شيء غير يسير من التجوز ، كما أن صرفها عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم هو في منتهى التناقض والغرابة ولقد تكرر هذا التفسير في سياق قصص الأنبياء ، وكان المقصود به الزوجة في كل مرة كما ترى في الآيات التالية :

١ - قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ...
هود^(٢) ٧٣

(١) مما يبان على هذا حديث رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي موسى قال (ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط فألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً) التاج : ج ٣ ص ٣٣٨ .

(٢) الخطاب لزوجة إبراهيم عليه السلام . ولقد ورد في حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي عن النبي صلعم في صورة الوليمة التي أولمها في مناسبة زواجه من زينب أنه كان يخرج إلى حجرات زوجاته حينما ظل بعض المدعوين يسرون في بيته فيقول لمن السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله (انظر فصل التفسير في كتاب التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ١٨٧ - ١٨٨ .

٢ — وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ

طه ٩ - ١٠

نَاراً ...

٣ — إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا مَخْبِرٌ ...

النمل ٧

٤ — قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا مَخْبِرٌ ...

القصص ٢٩

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

(٣) فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ الْآيَاتِ الثَّلَاثَةِ :

« وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِيَكُنِيَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ... »

٣٦ - ٤٠

وهذه الآيات نزلت على ما أجمعت عليه الروايات في صدد زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزَيْنَب بنت جحش رضى الله عنها مطلقاً دعيه أو متبناه زيد بن حارثة رضى الله عنه .

ولقد روى بعض الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم مال إلى زينب بعد زواجها من زيد لما رآه من مفاتها ، وأنها شعرت بذلك فأخذت تكايد زوجها ، وأن هذا شعر بالأمر فأراد تطليقها ليتسنى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها . وتمسك المبشرون والمستشرقون بهذه الرواية ، وأضافوا عليها معاني خيالية ، وأخذوا يبدون ويعيدون ويتناولون بالباطل على الأخلاق النبوية .

ولقد كانت الرواية موضوع نقد ونقاش قديماً وحديثاً ، فاستبعدها بعض المفسرين القديمين واستنكروها وقالوا إنها مدسوسة ، وتناولها الكتاب الحديثون لينزهوا النبي صلى الله عليه وسلم عما قاله بعض ذوي الهوى . ولم نر أحداً فيما اطلعنا عليه أنم النظر في نصوص الآيات نفسها إنعاماً وإقياً مجرداً عن الروايات وأقوال المفسرين والمؤولين مع أن فيها صراحة تساعد على فهم الموضوع فهماً صحيحاً وتضع الأمر في نصابه الحق ، ومع أن القرآن هو السند الأوثق والمستلهم الأقوى .

ففي الآيات تعليل صريح بأن تزوج النبي مطلقاً متبناه هو لإبطال تقليد حرمة زواج المتبني مطلقاً المتبني ورفع الحرج عن المؤمنين في تزوج مطلقات أديانهم أو أبناءهم بالتبني . ونعتقد أن هذا التعليل هو مفتاح الحادثة كلها . فقد كانت العادة قوية راسخة ، ولم يجرؤ - على ما يبدو - أحد على نقضها بعد أن عابت آيات الأحزاب ٤ - ٦ عادة التبني وأمرت بإبطالها ، وهي هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً . النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ^(١) ... »

(١) في الفقرة الأخيرة هذه نسخ لتوارث التبني والأبناء بالتبني أيضا إذ جعل التوارث بين ذوي الأرحام نسب .

فألم الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم على إبطال هذه العادة بنفسه في زينب .
ولعل زينب التي رضيت الزوج من زيد الذي كان يدعى زيد بن محمد ، قد انبثق في
نفسها شيء من التكبر عليه وأحست معنى من معاني عدم التكافؤ بينها وبينه حينما أبطلت
الآيات النبوية فصار يدعى زيد بن حارثة ، ويعتبر مولى من موالي المسلمين الذين ليس لهم
نسب يباهون به ، وانبثت صلته الأولى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان تغير نظرة
زينب إلى زوجها وموقفها منه مزعجاً له ومبعثاً لشكواه ، وداعياً له للتفكير في طلاقها
فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر والتحمل مع ما قام في نفسه بإلهام الله أن يتزوج بها
إذا طلقها ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة ويكون قدوة لغيره . والعتاب
الرباني في الآيات مصبوب على ترده في الإقدام على تنفيذ ما ألهم الله خشية انتقاد الناس
وحياء مهمهم ؛ وقد تضمنت الآيات توضيح الأمر ، فليس عليه من حرج في تنفيذ ما ألهمه
الله إياه ، وهذه سنة الله في أنبيائه إذا اختارهم لتبليغ رسالاته وجعل لهم إبطال وإلغاء
وتعديل وإثبات ما اقتضت حكمته من عادات وتقاليد ، وأوجب عليهم الإقدام وعدم
خشية أحد غيره في ذلك : ولعل مفهوم الآية الأولى يدل على أن نقض هذه العادة لم
يصعب على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، بل صعب على زينب أيضاً إذ كانت تعد
نفسها كأنها زوجة ابنه ، والناس يعدونها كذلك ولم يكونوا قد تأثروا بعد بما كان من
معاينة آيات الأحزاب الأولى ٤ - ٦ لهذه العادة ؛ فاختوت الآيات ما احتوته من عبارات
قوية بسبيل الحض على الرضاء بما أمر به الله ورسوله وعدم عصيانه ، وزينب وزيد رضى
الله عنهما كانا يعرفان بطبيعة الحال أن التقليد لا يسمح بتزوج النبي منها ، وهذه نقطة مهمة
من شأنها أن تهدم ركناً من أركان الرواية ومادار حولها هدماً ساحقاً ، وأن تجعل الجزم
سائغاً بأن زيداً إنما أراد تطليقها لأسباب غير أسباب تيسير تزوج النبي صلى الله عليه
وسلم بها وبأن ما يمكن أن يكون قد بدا من زينب من سلوك مزعج لم يكن إلى هذا
الأمر بسبب .

وفوق ما قلناه نقرر استيفاء لمقتضيات الجدل أن إثبات الحادث في القرآن مع ما فيه

من عتاب شديد أكبر برهان على أنه لم يكن في سياقه شيء ما يمس كرامة النبي صلى الله عليه وسلم ونزاهته وتصرفه ؛ وكل الأمر هو ما كان من تردده في تنفيذ إلهام رباني فيه إبطال عادة جاهلية ، ولقد جاءت الآية الأخيرة مقوية للتعليل ، وانطوت على تدعيم حاسم لما قلنا إنه مفتاح الحادثة كلها ، فما كان محمد أباً أحد من الناس حتى يحرم عليه نكاح مطلقة دعيه زيد ويسبب هذا قبلاً وقالاً فوق ما في عمل النبي من رفع للحرَج عن المؤمنين في أزواج أديعائهم إذا قضاوا منهن وطراً .

وقد كررنا تعبير الإلهام لأن الآيات تدل على أن الحادث قد وقع بغير وحي قرآني ، وأنها قد نزلت بعد وقوعه ، وتدلل كذلك على أن الحادث سبب قبلاً وقالاً فوق ما كان من تردد النبي صلى الله عليه وسلم وخشيته حديث الناس ووقوع ما توقعه من ذلك فعلاً ؛ فنزلت الآيات للرد على المنتقدين وتأييد النبي صلى الله عليه وسلم في تصرفه والدفاع عنه ، إلى عتابه على ما كان من تردده . ومثل هذا تكرر في القرآن كثيراً . ومن الأمثلة عليه سورتا الأنفال والفتح اللتان نزلتا بعد حادثي بدر والحديبية ، وتضمنتا تأييداً للنبي صلى الله عليه وسلم في تصرفه . ولعل آيات الأحزاب ٤ - ٦ التي أبطلت عادة التنبئ وآثارها هي التي ألهمت النبي صلى الله عليه وسلم التفكير في إبطال حرمة نكاح مطلقة المتنبئ إتماماً لهدم العادة نهائياً ، وهذا يعمل فيما يتبادر لنا ما تضمنته الآيات ٣٦ - ٤٠ من اعتبار الفكرة إلهاماً أو أمراً ربانياً ومن عتاب النبي صلى الله عليه وسلم على تردده وخشية الناس فيه .

وأخيراً نرى أن ننبه إلى أمر ، وهو ما يمكن أن يوهبه عتاب الله للنبي صلى الله عليه وسلم لإخفائه في نفسه ما الله مبدية وخشيته الناس والله أحق أن يخشاه ، من مناقضة لما استدللنا عليه ونوهنا به في المبحث السابق من خلق جرأة النبي صلى الله عليه وسلم في الحق . ولسنأثر في هذا الموقف تناقضاً ولا مغمراً ؛ فالأمر متصل بخصوصية من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية أولاً ، وليس فيه وحي قرآني صريح ثانياً ، وكان مرجع التردد الذي بدا منه اجتهادياً لاحتمال حدوث رد فعل قد يؤثر تأثيراً ما في أوساط المسلمين

والعرب فيما نعتقد ثالثاً ، ولم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم مع ذلك أن تغلب عليه وأقدم على ما ألهمته فطرته رابعاً . وما كان العتاب إلا على لحظة التردد الاجتهادي الذي هو خالصة نفسية كانت خلاف الأولى الذي في علم الله وحسب .

الصورة الخامسة

(٤) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَلْقِ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبَدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءِأَبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ... »

٥٤ - ٥٣

وقد روى عن سبب نزول القسم الأول من الآية الأولى أنها نزلت يوم زفاف النبي صلى الله عليه وسلم على زينب ، إذ دعا المسلمين إلى الوليمة فانتظروا نضج الطعام ولم ينصرفوا بعده وأطالوا المكث في الحديث والسر على الرغم مما بدا من النبي صلى الله عليه وسلم من ضيق ؛ وروى عن سبب نزول قسم الحجاب من الآية أن عمر رضى الله عنه ظل يلح على النبي صلى الله عليه وسلم أن يحجب نساءه حتى نزل ، وروى عن سبب نزول الفقرة الأخيرة منها أن أحد المسلمين قال لآتزوجن بعائشة رضى الله عنها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم عنها !

والرواية الأولى متسقة مع روح الفقرات الأولى من الآية فإن لم تكن هذه الرواية

صحيحة بنصها فلا بد أن تكون قد وقعت مناسبة مماثلة لها . والرواية الثانية تذكر أن عمر رضى الله عنه كان يودّ حجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فلا يختلطن بالناس ولا يخرجن بارزات أو سفارات ، وغوى النص القرآني لا يؤدي إلى هذا عند إتمام النظر فيه ، ولقد جاء في الرواية الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أخبر بانصراف الناس من بيته وعاد ، أمر حالاً بضرب الستار - وهو الحجاب - على الباب ومنع خادمه أنس بن مالك رضى الله عنه من الدخول وتلا الآية ، والنفس تطمئن أكثر إلى أن حادث وضع الحجاب على الباب هو المقصود وأنه متصل بالحادث الأول ؛ وعلى كل حال فليس الحجاب هنا هو نقاب الوجه كما هو مستقر في بعض الأذهان .

ومع أن الآيات قد نزلت لأسباب خاصة فإن الممكن الاستدلال بها على أن المسلمين كانوا يدخلون إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بإذن وبلا إذن ، وبدعوة وبغير دعوة ، وينتظرون نضج الطعام إذا كانوا مدعويين إلى طعام ، ويقضون الوقت في السمر والحديث ، وأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يحضرن مجالسهم ، وأن هذا كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ويضايقه ولكنه كان يستحي أن يجهمهم بالنع ؛ والراجح أن هذا كان شأن المسلمين عامة فيما بينهم أيضاً ، جرياً على مألوفهم ، أو بالأحرى على مألوف العرب الذي تلمه آيات سورة النور (٢٧ - ٣١ و ٥٨ - ٦٠) على ما سوف نذكره في مناسبة أخرى ، مع احتمال أنهم كانوا يكثرون منه بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم وبيوته ، لأنه صار فيهم الهادي المرشد ، والزعيم الجامع ، والمعلم الواعظ ، والقاضي والمفتي ، وصارت بيوته مثابتهم ؛ لأنها بيوت الأمة العامة ، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم كان في الوقت نفسه يكثر دعوة المسلمين إلى الطعام في بيته ، ولقد استفاضت الروايات بأنه كان كثيراً ما كان يطعم الذين كانوا يعتكفون في مسجده من فقراء المسلمين وغربائهم والمتعطلين عن الكسب منهم .

والذي تلمه روح الآيات ونصوصها أن ما كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم هو إطالة المكث في بيوته والدخول إليها بلا إذن وفي غير الأوقات المناسبة ، لا سيما أن

البيوت فيما يرجع لم تكن تحتوي على مرافق تستطيع زوجاته فيها التمتع بحرياتهن ؛ وأن الآيات هي بسبيل تنظيم هذا الأمر ، مع استثناء محارم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم الأذنين وملك اليمين والنساء . وليس في الآيات نص صريح يحظر دخول المسلمين إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الاستئذان والإذن ولحاجة غير تناول الطعام ؛ وقد تعددت الروايات التي تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لمن شاء من المستأذنين بالدخول عليه في بيوته ؛ وليس في الآيات كذلك نص صريح يحظر اجتماع المسلمين من غير المحارم بنساء النبي صلى الله عليه وسلم على الطعام أو غيره وفي بيوته بعد الاستئذان والإذن والدعوة أو في خارجها ولو لحاجة غير تناول الطعام ، وإن كانت روح الآيات أميل إلى الحظر ، وعلى كل حال ففي الآيات صورة لما كان الأمر عليه وما صار إليه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم البيتية وصلة المسلمين بها .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

(٥) في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ... »

٥٩

ورواية النزول تذكر أن النساء كنَّ يخرجن لقضاء حاجتهن بزوي واحد حرائر وإمام وكان بعض الرجال يتعرضون لهم بدون تفريق ؛ فأمرت الآية حرائر المسلمين بإسبال الجلباب للتفريق بينهن وبين غيرهن .

وقد جاء بعد هذه الآية ثلاث آيات يرجح أن يكون لها صلة بها وهي :

« لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْمُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أَخَذُوا »

وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا . سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ...

٦٠ - ٦٢

وقد تدل الآيات على أن المنافقين ومرضى القلوب والأخلاق لم يكونوا يتورعون عن إدارة ألسنتهم في أعراض النساء وإشاعة الشوائع عنهن ، وإسماعهن بذيء الكلام وفاسقه ، فأندرتهم الآيات هذا الإنذار القاصم ، هذا مع احتمال أن يكون الإنذار بسبب ما كان يلقاه نساء المسلمين من الأذى الذي أشارت إليه الآية (٥٩) وما كان يبدر من هذه الفئات من بداءات وغمزات بصورة عامة .

والآية (٥٩) عامة الشمول ، وإنما سلكتها في هذا البحث لأنها ذكرت نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ، ولأنها تبعاً لذلك أدمجتهم في الصورة التي تنطوي فيها .

وننبه إلى أن في الآية إلهاماً تشريعياً آخر ؛ وهو أن الأحكام التي احتوتها آيات الأحزاب ٢٨ - ٣٤ و ٥٣ - ٥٥ التي نقلناها من قبل ، هي خاصة بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم دون سائر نساء المسلمين ؛ فلما اقتضت الحكمة أن يكون حكم عام أو تعليم عام للجميع ذكرن مع سائر النساء . على أن الآيات المذكورة تحتوي في حد ذاتها شيئاً من الصراحة في هذا المعنى أيضاً :

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

(٦) في سورة التحريم الآيات الآتية :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْبَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي

الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ
طَلَقَكَ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُسْكِنًا مَّسْكِينًا مُّؤْمِنَةً قَانِتًا تَتَّبِعْتَ عِبْدَاتٍ
سَاءتِ حَتَّى تَبَيَّنَ وَابْكَارًا ...

٥ - ١

وقد روى المفسرون في سياق هذه الآيات روايات عدة على اختلاف بينها في
الوقائع والأسماء ، ومنها ما يجعل مناسبة آيات الأحزاب (٢٨ - ٣٤) التخيرية متصلة
بها ، بل ومنها ما يذكر أن بعض الحديث الذي أسرّ به النبي صلى الله عليه وسلم متعلق
بالخلافة من بعده .

وخلاصة الرأي الأقرب إلى الصحة من غيره من أسباب نزول الآيات أن النبي صلى
الله عليه وسلم كان يطيل المكث عند زوجته زينب ويشرب عسلا ، فتواطأت عائشة
وحفصة على الكيد لها ، واتفقتا على أن تقولوا له إن رائحته رائحة مغاير ، وهو صنع حلو
الطعم غير طيب الرائحة يمتصه النحل ، فلما قالتا له ذلك أو قالتا إحداهن قال : بل شربت
عند زينب عسلا ! فقالت له : لعل العسل جنى العرفط ؛ وهو الشجر الذي يخرج منه الصمغ .
فحلف أو وعد بالآلا يعود إليه ، وطلب ممن حلف أمامها أن تكتم القصة ولسكنها لم
تكتمها ، وأخبرت بها زميلتها ، ففشا الحديث ففضب النبي صلى الله عليه وسلم وحلف
الآلا يقرب زوجته شهراً ، ومجرهن حتى قيل إنه طلقهن ، ثم سكت عنه الفضب
عند تمام الشهر ونزلت الآيات . وهناك رواية تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع
بمارية في بيت حفصة ، فلما علمت استرضاهما يمين الآلا يقرب مارية واستكتمها الخبر ،
ولكنها أفشته لعائشة^(١) .

ومهما يكن من أمر الروايات فالآيات تحتوي صورة حادث بيتي وقع بين النبي صلى

(١) الرواية الأولى من مرويات البخاري ومسلم والترمذي انظر التاج الجامع لأصول أحاديث
الرسول ج ٤ ص ٢٣٩ .

الله عليه وسلم وبعض زوجاته ، وأنه قد وقع بسبب الغيرة النسائية ، وأن اثنتين منهما كانتا متآمرتين فيه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أحب أن يتصرف في الحادث تصرفاً فيه مسaire ومراضاة ، فاستغلت إحداها هذا الموقف الكريم منه وأفتت ما حدثها أو ما وعداها به ، وأن هذا آلمه وحز في نفسه حتى هم بتطبيق نساته ثم أوحى الله إليه بالآيات التي اكتفى فيها بالتنديد والإنذار . أما ما حرّمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه باليمين فمن الصعب الجزم به ، فمن المحتمل أن يكون العسل أو قرب مارية مدة ما أو ما كان من حلفه بهجر نساته شهراً ؛ ونحن نرجح أن يكون أحد الأمرين الأولين أو ما يماثلهما ، لأن الآية تنص على أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم على نفسه ما يحل له ، وأنه حرّمه مرضاة لأزواجه ؛ وننبه إلى أن تحرّم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحل الله له ليس بمعنى جعل الحلال حراماً ، وإنما بمعنى حرمان نفسه ما هو حل له مما ليس غريباً في الحياة البشرية .

الصورة الثامنة

(٧) في سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا ^(١) إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّلَاتِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ

(١) هي وغيرها في الآيات بمعنى : ملا .

تَعَوَّدُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ...

١١ - ١٩

وموضوع الآيات هو ما عرف في السيرة النبوية بحديث الإفك عن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها . وخلاصة القصة على ما رواه البخاري ومسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم استصحب عائشة في إحدى غزواته على عادته في استصحاب إحدى نسائه معه ، وأن الجيش في العودة نزل منزلاً فذهبت عائشة لحاجتها ثم فقدت عقداً لها فتأخرت في البحث عنه فلما رجعت وجدت الجيش قد رحل بهودجها إذ حمله الموكلون به يظنون أنها فيه ، فجلست مكانها أملاً أن تفتقد فيرسل في أثرها ، وكان أحد المجاهدين متأخراً ؛ فلما وقع نظره عليها أناخ بعيره فركبته ولحقت بالجيش . وقد كان تأخرها وقدمها مع المجاهد وسيلة لظن بعض المسلمين والمنافقين السوء ، وقد استغل رئيس المنافقين « أبي » الحادث استفلالاً قبيحاً فتولى إشاعته والخرس فيه واتسعت دائرته بالتناقل حتى أثر ذلك في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفق أن مرضت عائشة فرأت من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من الجفاء لم تعهده ، فاستأذنت وانتقلت إلى بيت أبيها ؛ ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزورها فقد ظل منقبضاً جافياً حتى أنه أخذ يشاور أخصاءه في أمرها ؛ وقد شكى على المنبر ما ناله من أذى من الخوض في الحديث ، ولقد جرى كل هذا دون أن تدري عائشة منه بشيء إلى أن عرفت ذلك اتفاقاً بعد نحو شهر ، فكبرهما وبكت كثيراً لما في الحديث من إفك قبيح وما كان له من أثر وذيوع . وقد تحدث إليها النبي صلى الله عليه وسلم أخيراً في مجلس من بيت أبيها وعلى مسمع من أبويها طالبا إليها أن تقول شيئاً وأن تستغفر الله إن كانت ألت بذنوب ، فتسكهرب الجوار وأخذتها الأنفة أن تبريء نفسها معلنة طمأنينتها إلى أن الله لا بد أن يبرئها . وقد أخذ الوحي النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس ، فلما انفصل عنه تهلل وجهه وهتف بعائشة مبشراً ثم تلا الآيات .

ومع أن الآيات ليست بسبيل حكاية القصة ، شأنها في ذلك شأن ماورد في القرآن من أحداث السيرة ، فإنها تحتوي بعض الدلالات المتسقة مع المروي إجمالاً ، كما أن فيها دلالة على ما كان للحادث وظروفه من آثار مزججة ومؤذية ، ومستوجبة للنقد والتنديد ، لا سيما ما كان من غفلة جمهور المسلمين عما فيه من إفك ظاهر وكيد بين كان يجب أن يدركوه بداهة حينما سمعوه ، لأن الذين قيل في حقهم أرفع وأطهر من أن يتورطوا فيه ، وما كان في سلوكهم من بواعث الألم النفساني في النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة وذويها ، وفيها كذلك نقد أو عتب على من يتصل الحادث بهم شخصياً بسبب سكوتهم أو حيرتهم أو اختلاج نفوسهم باحتمال صحته ، إذ كان يجب أن يدركوا الأوتل وهلة ما فيه من كذب وبهتان ، وأن يعلنوا هذا في الحال .

ولعل ما يحمل عليه التنديد بالساكتين الغافلين أو الحائرين المترددين من جمهور المسلمين أو الأخصاء ، وعلى انتقاد موقفهم ، بيان ما في الحديث من إفك بديهي ، وأنه لا يمكن أن يصح في العقل ، أولاً : أن تقترف زوجة النبي صلى الله عليه وسلم إثماً خطيراً مثل الذي نسب إليها ، وهي ابنة أول بيت في الإسلام بعد بيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي مرتبة سامية من الكرامة عند الله والمسلمين تمنعها منه بداهة ، وهي مع ذلك زوجة النبي التي كانت تعتقد أن وحي الله متصل به وأن الله لا يخفي عليه شيء . وثانياً : أن يجروا مسلم على التعرض لزوجة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه ذرة من إيمان بالله ورسوله . والحق أنه من الغريب ألا تكون هذه الحجة وروح الآيات مقنعة لكل ذى عقل ببراءة عائشة وتنزهها ، وأن يكابر أحد في ذلك مكابرة ما ، ونعتقد أن إعاة الروايات كل الاهتمام ، والغفلة عن التمعن في نصوص الآيات وروحها ، والأهواء الحزبية التي كان مبعثها الفتنة الهوجاء بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه - من أسباب ما كان حول هذا الحادث من قيل وقال ، وروايات جعلت بعض ذوي الهوى يستغلونه استغلالاً مفضلاً كما استغله المنافقون ومرضى القلوب في زمن النبي ؛ والآية الأخيرة قوية التعبير عن هذا المعنى ؛ إذ تدل على أن فئة كانت هنالك تتعمد إشاعة الفاحشة وأخبار السوء عن المسلمين الخالصين ، وهي

التي خاضت في الحديث وتولت كبره ، ولقد جاء بعد قليل من الآيات آية أخرى متصلة بذلك وهي :

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... »

٢٣

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

(٨) إن رواية أسباب نزول سورة الكوثر .

« إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ » .

قالوا : إن بعض بغاة الكفار وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر تعبيراً له ، لأنه لم يمش له أولاد ذكور ، فنزلت السورة تندد به من جهة ، وتبشر النبي صلى الله عليه وسلم بماله من قدر عظيم عند الله من جهة أخرى .

وروايات السيرة المتعددة التي بلغت مبلغ اليقين تخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رزق أولاداً ذكوراً من السيدة خديجة رضي الله عنها زوجته الأولى ، ومن أمته مارية رضي الله عنها ، ولكنهم لم يعمروا إلا قليلاً . ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم التاع أشد اللوعة عند ما مات إبراهيم بن مارية في يثرب . وروح السورة تلهم أن تعبير النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر قد حز في نفسه كثيراً ، وقد يكون في هذا ما يدل على أن عدم تعبير أبنائه الذكور كان شديد الأثر فيه . ولقد ذكر بعض الكتاب أن مما يمكن أن يخطر بالبال أن يكون زواج النبي صلى الله عليه وسلم بمائشة وصفية وجورية وميمونة ومارية رضي الله عنهن وكلهن فتيات بسائق الرغبة في الأولاد الذكور ، ولا يخلو هذا من بعض الوجاهة فيما نرى .

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم تبني قبل بعثته : زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو فتى صغير ، وكان عبداً لخديجة رضي الله عنها فاستوهمها إياه وأعتقه وتبناه . فليس

مما يستبعد أن يكون هذا التبني بسبب من عدم تعبير أولاده الذكور من السيدة خديجة رضى الله عنها .

والقرآن ينص بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له بنات بلغن مبلغ النساء ، وذلك في آية الأحزاب (٥٩) ، والأخبار اليقينية أن بناته من السيدة خديجة أيضاً ، وأن السيدة فاطمة رضى الله عنها منهن هي التي خلفت ذرية ، وأن الثلاث الأخريات ، زينب زوجة الربيع بن العاص ، ورقية وأم كلثوم زوجتي عثمان بن عفان رضى الله عنهما بالتوالي ، قد متن بلا ذرية .

الصورة العاشرة

(٩) في سورة الحجرات الآية التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . . . »

٤ - ٥

ورواية سبب النزول تذكر أن وفدا من البادية جاء ليرى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ؛ فلما لم يجده أخذ يناديه من وراء حجراته بأصوات عالية حتى أيقظه من قيلولته .

والآية الأولى مع ماروى سببا لنزولها تدل على أن بيوت النبي صلى الله عليه وسلم كانت حجرات متلاصقة في طرف مسجده ، بحيث كان المسجد منها كأنه ساحة أمامها . وهذا مؤيد بالروايات التي بلغت مبلغ اليقين .

الصورة الحادية عشرة

والمناسبة سانحة لقول كلمة بشأن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ومجالسه فيه ، فقد كان المسجد على ما ذكرته الروايات المتواترة ساحة مسورة بأربعة أضلاع ، وفي أحد

أركانها حجرات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هذه الساحة كانت مكان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين كما كان بها مجلسه معهم للوعظ والقضاء والفتيا واستقبال الوفود وحل المشاكل والمداولة في شؤون المسلمين المتنوعة ، وكان بعضها مغطى بسعف النخل وقد أقيم السقف على أعمدة من جذوع الشجر ، وصنع له نجار في أخريات سنيه درجتين من خشب للإشراف من فوقهما على المسلمين قاعدا وقائماً وهما اللتان بسميان منبره الشريف .

ولقد جاء في سورة المائدة في صدد شهادة أوصياء من يموت غريباً ، إشارة إلى استماع شهادتهم بعد الصلاة ، وهي في هذه الآية .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَآ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ... »

١٠٦

إذ احتوت الآية تعليماً بمقعد مجلس قضائي بعد الصلاة ، وهذا بالنسبة للظرف الذي نزلت فيه هو في الغالب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ليعقد المجلس في مسجده بعد صلاته بالناس حيث يكونون شهوداً . وفي هذا قرينة أو بالأحرى دلالة على ما ذكرناه آنفاً وتواترت به الروايات .

ولقد جاء في سورة البقرة آية فيها حث على المحافظة على الصلاة الوسطى وهي .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قِسْمَتَيْنِ ... » ٢٣٨

والجمهور على أنها صلاة العصر ، حتى أن في موطن الإمام مالك حديثين عن عائشة وحفصة رضی الله عنهما أنهما أمرتا ناسخاً ينسخ مصحفين لهما أن يكتب جملة « صلاة العصر » بعد جملة « الصلاة الوسطى » ، ولعل ذلك من قبيل التفسير . ولقد روى أن

النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى أصحابه بعد صلاة العصر، فمن السائغ أن يقال إن إطلاق كلمة الصلاة في آية المائدة إنما كان لأن وقت مجالس النبي صلى الله عليه وسلم للقضاء والوعظ وحل المشاكل المتنوعة كان معروفاً، ولعل اختصاص الصلاة الوسطى التي هي صلاة العصر بالحث على المحافظة عليها هي لبعث اهتمام المسلمين لشهود هذه المجالس . والحق أن وقت العصر هو الملائم لهذا بسبب قيظ النهار ومشاغل الناس فيه .

ولقد جاء في سورة المجادلة الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... »

١١

والآية تتضمن تأديباً عاماً مستمر التلقين ، وقد قال جمهور المفسرين والرواة : إن المجالس المذكورة هي مجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا وجيه من ناحية نزول الآيات لظروف ومناسبات حاضرة ثم تكون تشريعاً وتعلماً مستمرين . وعلى هذا فالآية تلهم أن المسلمين قد تأثروا بالحث على شهود الصلاة الوسطى لشهود مجالس النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ، وأنهم كانوا يتسابقون إليها حتى ليصعب على المتأخرين أو الشيوخ أو المرضى أو الضعفاء أن يجدوا مكاناً . فاقتضت الحكمة تأديبهم بهذا الأدب الذي ينطوي على التطيب والوعد الحسن في الوقت ذاته .

ولقد جاء في سورة المجادلة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . »

١٢ - ١٣

وقد روى أكثر من رواية في سبب نزول الآيتين ، منها : أن الناس سألوا النبي فأكثروا حتى ثقل عليه ذلك فأراد الله أن يخفف عنه فأمرهم بتقديم صدقة بين يدي أسئلتهم .

ومنها : أن الأغنياء كانوا يفلبون الفقراء على مجالس النبي صلى الله عليه وسلم فتقل ذلك عليه وعليهم فنزلت الآية الأولى فكانت فرجا لهؤلاء ومشقة على أولئك وقلت مراجعة الأغنياء للنبي فلم تلبث أن نزلت الآية الثانية بنسخ الأولى .

وصيغة الآيتين تدل على أن كلا منهما نزلت لحدثها على ما جاء في الرواية الثانية ، غير أننا غير مطمئنين لجميع ما جاء في هذه الرواية ولا الرواية الأولى ؛ لأن هذا غير منسجم مع مهمة الرسول وطبيعة أخلاقه على ما نعتقد ، والذي يتبادر لنا أن المسلمين كانوا يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم في غير المجالس العامة المعينة أيضاً ويستفتونه في مشاكلهم الخاصة ، ومهم من كان يطلب منه خلوة أو مجلساً خاصاً من أجل ذلك ، وهذا هو مفهوم تعبيري « ناجيتهم ، ونجواكم » اللذين ينطويان على معنى المسارعة ، وأن هذا قد أكثر فاقترضت حكمة التنزيل أن يفرض رسم على الأغنياء منهم لتصرف حصيلته في أمور المسلمين العامة كما تدل عليه تسميته بالصدقة ، فنقل ذلك على هؤلاء وقالوا: إن الزكاة كافية ، فاقترضت الحكمة العدل عنه في الآية الثانية .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين صورة لما كان يعقده النبي صلى الله عليه وسلم من مجالس أو خلوات خاصة لمن يطلب من المسلمين ، بسبيل الاستماع إلى مشاكلهم الذاتية وحلها أيضاً .

الصورة الثانية عشرة

هذا ولقد ذكر المفسرون في سياق تفسير فقرة جاءت في آية سورة النساء (٤٣) وهي « إلا عابري سبيل » أنه كان لبعض أصحاب رسول الله أبواب (خوخت) مفتوحة على المسجد النبوي ، وكان ساكنو البيوت يضطرون إلى العبور منها ، فرخص لهم . ونحن

توقف في قبول هذا الخبر لتعارضه مع رواية بناء أسوار المسجد ، ونميل إلى القول بأن الترخيص القرآني إنما كان لسكان بيوت النبي صلى الله عليه وسلم . نقول هذا ونحن نعرف أن هناك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر فيه بإغلاق خوحدات المسلمين عن مسجده إلا خوخة أبي بكر رضى الله عنه ، فهل أقام أصحاب رسول الله مساكنهم من وراء سور المسجد بعد إنشائه ثم فتحوا خوحدات لهم في هذا السور ، سؤال نحار في جوابه ، ولا نمنع أنفسنا من استغراب الأمر لبعده عن الاحتمال ، ونحشى أن يكون لما كان من مشادة بين أهل السنة والشيعة حول الخلافة النبوية أثر مافي هذا الخبر ، ففي الروايات المروية أسباب لنزول بعض الآيات . وفي الأحاديث المسندة أو المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم - كثير من هذا الباب ^(١) .

الصورة الثالثة عشرة

ليس في القرآن بطبيعة الحال شيء عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن هناك روايات في صدد سورة النصر وغيرها تتصل بتعيين وقت هذه الوفاة .

فهناك رواية تفيد أن آخر ما نزل من القرآن هو الجملة القرآنية : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » من آية المائدة الثالثة ، وأنها نزلت في حجة الوداع النبوية في السنة الهجرية العاشرة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث بعدها إلا أشهراً قلائل .

وقد توقفنا في تفسيرنا عن قبول هذه الرواية ونبهنا إلى بعدها ، لأن الجملة بعض آية طويلة لها صلة وثيقة بمطلع السورة وبالآيات التي تليها ، ولأن كلمة « اليوم » التي آخذت دعامة على ما يبدو للرواية قد تكررت في الآية الخامسة من السورة التي لم يقل أحد إنها نزلت مع تلك الجملة .

(١) هناك حديث عن زيد بن أرقم عن النبي (صلعم) أنه قال (سدوا هذه الأبواب لإبواب علي) وهذا الحديث لم يرد في مساند الأحاديث الصحيحة ، ومن رواه ميمون الذي يضعفه بعض علماء الحديث (انظر مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٤) أما الحديث الذي يروى أمر النبي بعدم إبقاء غير باب أبي بكر فقد رواه البخاري ومسلم والترمذي . (انظر التاج . ج ٣ ص ٢٧٣) .

وهناك روايات عن آخر ما نزل من القرآن ليست وثيقة من جهة وليس معها قرينة زمنية متصلة بوقت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى . غير أن هناك رواية تذكر أن سورة النصر وهي :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

قد نزلت قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تذكر أنها آخر السور القرآنية نزولاً ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الفطنة من المسلمين قد استشعروا منها انتهاء مهمته وقرب وفاته^(١) . وروح آيات السورة ومدى مضمونها من جهة والقرينة الزمنية بقدم وفود العرب ومبايعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ودخول الناس في دين الله أفواجاً في السنتين التاسعة والعاشر من الهجرة - إذ ثبت بالتواتر الذي بلغ مبلغ اليقين أن النبي مات في ربيع الأول^(٢) - من جهة أخرى - تؤيد هذه الرواية أكثر من غير هاتين السورتين - وإن كانت تضمنت كلمة «الفتح» التي ذهب المفسرون أن المقصود بها مكة - قد جاءت بسبيل التذكير أولاً ، واحتوت الآية الثانية من السورة إلى ذلك إشارة إلى المشاهد التي تمثلت في سيل الوفود المتدفق من أنحاء الجزيرة على المدينة ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام بعد إهدام السور الذي كان يحول بين عامة العرب وبينه بوقوف مكة موقف الجاحد المناوئ له ثانياً : وقد بدأت هذه المشاهد في العام التاسع وامتدت إلى العام العاشر ، وطبيعي أن ذكر هذه المشاهد إنما كان عقب حدوثها أو على الأقل عقب ما يصحح أن يكون مفهوماً واقعياً للآية الثانية ، ولذلك نرجح الرواية التي تذكر أن سورة النصر هي آخر السور نزولاً حتى ولو لم تكن آخر الآيات القرآنية

(١) في حديث رواه البخاري والترمذي وأحمد أن ابن عباس قال: إن هذه السورة علامة أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى الزمخشري في الكشاف أن هذه السورة نزلت بمجيء في حجة الوداع وهي آخر ما نزل من السور .

(٢) كانت وفاته صلى الله عليه وسلم ليلة الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة على المشهور .

نزولاً؛ وأنها نزلت في أوائل السنة الهجرية العاشرة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث أن توفي قرير العين بالنجاح الباهر الذي يسره الله له فيما ندبه له من رسالته الربانية، وبانتشار كلمة التوحيد والإسلام في مختلف أنحاء الجزيرة، وانفتاح الآفاق الأخرى أمامها، وتوطيد سلطانها، وفي اجتماع العرب في كيان عام بعد أن كانوا شيعاً، وفي انفساح المجال أمامهم بعد الحياة الاجتماعية والاقتصادية الضيقة، وفي إتمام دوره السياسي والاجتماعي والتشريعي العظيم إلى جانب دوره الديني والروحي، وهو الدور الخالد على اختلاف الدهر وتعاقب الأيام والذي يفترق فيه عن أدوار النبيين والرسل من قبله، إذ كانت أدوارهم إما دينية وروحية، وإما قومية ومحلية تحميها الدعوة التي أمره الله بها في هذه الآيات:

١ — الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ...

الأعراف ١٥٧ - ١٥٨

٢ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ...

المائدة ١٥ - ١٦

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ...

الأحزاب ٤٥ - ٤٦

ومستحقا لما اختصه الله به من الصلوات والبركات :

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

الأحزاب ٥٦

تَسْلِيمًا ...

فيستجيب إليها أتباعه الذين يعدون بمئات الملايين مرات عدة كل يوم ومنذ ألف
وثلاثمائة عام ونيف هاتفين مرات عدة في اليوم الواحد وفي مشارق الأرض ومغاربها :
اللهم صل وسلم وبارك عليه .

المَبْحَثُ الخَامِسُ

صور من اجتهادات النبي الشخصية أو الملهمة

وما نزل في صدها من القرآن . وصلة ذلك بالعصمة النبوية

في القرآن آيات عديدة تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدم على أمور ويعتزم عزائم باجتهاد منه أو بإلهام رباني ثم ينزل وحي قرآني فيه إقرار وتأييد أو عقاب وتثريب مما ينطوي فيه صور هامة في صدد السيرة النبوية الشخصية والوحي القرآني معاً .

ومن الأمثلة على النوع الأول وقعة بدر . فإن سورة الأنفال التي تضمنت بعض مشاهد وشؤون هذه الوقعة قد نزلت بعد انتهاء الوقعة على ما هو متفق عليه . والمفسرون يروون^(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه (هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله تعالى أن ينفلكموها) وأن العير لما نجت وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الاشتباك بالقتال مع الجيش القرشي الذي جاء للدفاع عن العير وشجعه زعماء الأنصار على الأقدام استبشر وسر وقال (سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين العير أو قريش . والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم) ثم نزلت سورة الأنفال بعد انتهاء الوقعة فيها تأييد لذلك حيث جاء فيها هذه الآيات فيما جاء :

« كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ .
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ . وَإِذْ
يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ

(١) انظر تفسير سورة الأنفال في تفسير الطبري والبغوي والطبرسي وابن كثير والحازن .

لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ
وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ...

٨ - ٥

وهكذا يكون خروج النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى بدر والوعد الرباني الذي أخبر به إلهاماً ربانياً .. ثم تأيد بالوحي القرآني .

ومن هذا النوع كذلك خروج النبي صلى الله عليه وسلم على رأس أصحابه إلى مكة بقصد زيارة الكعبة في السنة السادسة للهجرة بناء على رؤيا رآها واعتبرها أمراً أو إلهاماً ربانياً . ولما انتهى أمر الخروج بانعقاد الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش وهو صلح الحديبية واستغرب بعض أصحاب رسول الله عدم تمام الزيارة التي أخبر النبي بها ونزلت سورة الفتح تضمنت إحدى آياتها تأييداً للرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم هكذا :

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ... »

٢٧ - ٢٨

ومن النوع الثاني قرار النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الفداء من أسرى بدر فعوتب على ذلك قرآناً في آيات سورة الأنفال هذه :

« مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُبْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

٦٧ - ٦٩

ومن ذلك استغفار النبي والمؤمنين لبعض أقاربهم من موتى المشركين فعوتبوا على ذلك قرآناً في آيات سورة التوبة هذه :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ... »

١١٣ - ١١٤ (١)

ومن ذلك إذن النبي صلى الله عليه وسلم للذين استأذنوه من المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعوتب على ذلك عتاباً رقيقاً . . في آيات سورة التوبة هذه :

« عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ . لَا يَسْتَنْدِئُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَنْدِئُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ... »

٤٣ - ٤٥

ومن ذلك عبوسه حينما جاء إليه الأعمى مسترشداً لئلا يشغله عن حديثه مع زعيم مشرك فعوتب على ذلك قرآناً . . في آيات سورة عبس هذه :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ... »

١ - ١٠

ومن ذلك ما اختلج في نفسه من رغبة في مسابرة المشركين في بعض رغباتهم أو في التردد من تلاوة بعض ما أنزل الله عليهم في ظرف أزمت نفسية فعوتب على ذلك قرآناً في آيات سورة هود والإسراء هذه :

١ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا

(١) النص يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رأوا في استغفار إبراهيم لأبيه المشرك أسوة فقلدوه فنبهتهم الآية إلى الحق في ذلك .

أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . . .

هود ١٢

٢ — وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَا لَادَقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا . . .

الإسراء ٧٣ - ٧٥

ومن ذلك تحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه بعض ما أحله الله له وهو أنه حلف على نساته في ظرف من الظروف فعوتب على ذلك عتاباً رقيقاً . . . في آيات سورة التحريم هذه :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ... »

١ - ٢

ولقد ذهب بعض المفسرين^(١) في مدى تفسير آيات سورة النجم هذه :

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ... »

١ - ٤

إلى أنها تشمل كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل ديني وديني . وإلى أنها من الدلائل القرآنية على العصمة النبوية . مع أن هذا يتعارض بنوع خاص مع النصوص القرآنية التي فيها عتاب ولوم للنبي صلى الله عليه وسلم على بعض ما صدر منه مما أوردناه آنفاً كما هو المتبادر . وآيات سورة النجم منسجمة كل الانسجام مع بقية سياقها الذي جاء فيها إلى آخر الآيات الثماني عشرة كما ترى فيها :

(١) انظر تفسير سورة النجم في تفسير النيسابوري والطبري والحازن .

« عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا
فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ
الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُكْرَمُونَ عَلَىٰ مَا يُرَىٰ . وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِنْدَ سِدْرَةِ
الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَنْفَسِي السُّدْرَةَ مَا يَنْفَسِي . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ .
لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ... »

١٨ - ٥

ومجموعة هذه الآيات في صدد تأكيد صحة ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم من
مشهد روحاني شاهده بالقوة التي اختصه الله بها كما هو واضح بقوة من نصها وروحها .
بحيث يكون صرف الآيات الأربع الأولى منها إلى غير ذلك أو تشميلها لغير ذلك
تجاوزاً كبيراً .

ولسنا نرى مساساً بالمعصية النبوية من هذه الناحية ولا من ناحية تلك الاجتهادات
التي عوتب عليها في القرآن . فالاجتهادات التي عوتب عليها ليست ذنوباً يمكن أن
يكون صدورها من النبي مناقضاً للمعصية التي يجب الإيمان بها فيه . وإنما هي خلاف لما
هو الأولى في علم الله المغيب عنه فيما لا وحي فيه . والمعصية الواجب الإيمان بها ليست
هي التي تجعل النبي يمتنع عليه أن يصدر منه أى فعل أو قول أو اجتهاد في مختلف شؤون
الحياة والناس قد يكون فيه الخطأ والصواب وخلاف الأولى الذي في علم الله والذي
لا ينكشف له إلا بوحي مما لا يمكن أن ينتفي عن الطبيعة البشرية النبوية المقررة في
القرآن ولكنها التي تجعله يمتنع عن أى إثم أو جريمة أو فاحشة أو مخالفة للقرآن قولاً
وفعلًا . . . وعن كتم أي شيء أوحى به إليه أو تحريفه وتبديله نتيجة لما وصل إليه بنعمة
الله وفضله من كمال الخلق والروح والعقل والإيمان والاستفراق في الله الذي جعله أهلاً
للإصطفاء الرباني .

المبحث السادس

صور لسلوك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم

تناول هذا البحث صوراً مشرقة عن مواقف المسلمين من النبي في العهد المكي وتغانيهم في اتباعه وتنظيمه ودلالة هذه المواقف - تنوع مواقف المسلمين في الاحتشام والتأدب في مجالس النبي - صور مشابهة أخرى - موقف بعض المسلمين من تشريع صدقة النجوى - مواقف غير مستحبة تلهمها بعض الآيات - توطيد القرآن لطاعة النبي ومدى ذلك - انعدام المواقف السلوكية غير المستحبة لإزاء النبي في العهد المكي وكثرتها في العهد المدني وتعليل ذلك .

الصورة الأولى

في القرآن آيات تأديبية وتعليمية كثيرة في صدد سلوك وآداب المسلمين نحو النبي كما فيه آيات تنويهيية فيها ثناء على ما كان يبدو من المسلمين المخلصين من تفران وإخلاص وطاعة له ، فرأينا أن نمقد لها هذا المبحث لأنها تنطوي على بعض الصور المتصلة بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية ما ، وننبه إلى أن ما نعرضه هنا هو غير ما انطلوت عليه آيات أخرى من صور لسلوك المنافقين أو سلوك المسلمين من الدعوة إلى الجهاد وظروفه إذ يأتي هذا وذاك في فصليهما الخاصين .

الصورة الثانية

(١) أوردنا في نهاية المبحث السابق الآية (١٥٧) من سورة الأعراف . وقد احتوت صورة مشرقة من تغاني المسلمين في العهد المكي في النبي صلى الله عليه وسلم ونصره توقيره واتباع وصاياه والنور الذي أنزل معه ؛ وهذه الصورة كما تلهمه الآية تشمل الكتابيين ، بل إن الآية تكاد تكون فيهم لولا فقرتها الأخيرة التي احتوت تعميماً للذين آمنوا .

وينطوي في هذه الصورة وصف رائع لما كان من تأثر المسلمين الأولين بالنبي صلى الله عليه وسلم ونور نبوته الساطع وأعلامها الصادقة ، ويقين الكتابيين مهم بأنها منطبقة على ما يجدونه عندهم من أوصاف وإشارات للنبي الموعود والهادي المنتظر ، انطباقاً يظل خالد الشهادة على كر الدهور (١) .

(٢) في سورة الزمر الآيات التالية :

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَمْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأَوْلَىٰ الْأَلْبَابِ ... »

١٧ - ١٨

وهذه أيضا احتوت صورة مشرفة أخرى لتفاني المسلمين في العهد المكي في الإصغاء إلى تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم وإرشاده وما يتلوه من آيات قرآنية ، وبالتالي لتأثرهم بنور نبوته وأعلامها الصادقة ، وحرصهم نتيجة لهذا التأثر على تحري الأفضل والأحسن والأهدى واتباعه .

(١) في أسفار العهد القديم والأنجيل المتداولة اليوم لإشارات عديدة يمكن أن تكون من جملة ما ينطبق على صفات النبي صلعم ورسالته . وقد عقد السيد رشيد رضا في الجزء التاسع من تفسير المنار فصلاً طويلاً : على ذلك أورد فيه ثمان عشرة بشارة مستمدة من أسفار العهد القديم والأنجيل وناقش الشبهات التي يوردها المبشرون . وأورد من الحجج ما فيه المنع لراعي الحق والحقيقة بصواب استنتاجاته وقوة حججه . وليس هناك أي دليل على أن الأسفار المتداولة اليوم العهدين القديم والجديد هي كل ما كان متداولاً في زمن النبي صلعم وقبله . وليس ما يمنع أن يكون فيما لم يصل إلينا بشارات وأوصاف أكثر صراحة مما هو وارد في الأسفار المتداولة اليوم . وآية الأعراف قد نزلت في الذين تبعوا النبي من أهل الكتاب في مكة بناء على ما وجدوه فيه من صفات مطابقة لما كان بين أيديهم من أسفار . ومن المحال أن يكون ذلك جزافاً . وهناك إنجيل متداول منسوب إلى حواربي اسمه برنابا فيه نصوص متفقة مع نصوص القرآن عن عيسى وحياته وشخصية ورسالة النبي محمد وصفاته . ومهما يكن هناك من مأخذ توجه إلى هذا الإنجيل فإن نصوص القرآن الذي لا يمكن لأحد أن يشك في أنه وثيقة تاريخية أمينة سليمة فضلاً عن قدسيتها ترجع إلى أربعة عشر قرناً تحتوي الدليل القاطع على أنه كان فيما يتداوله أهل الكتاب من أسفار إشارات إلى صفات النبي محمد عليه صلوات الله ورسالته .

الصورة الثالثة

(٣) في سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ... »

٣ - ١

والروايات عن سبب نزول الآية الأولى متعددة ، منها اختلاف أبي بكر وعمر رضى الله عنهما في أمر في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يسألها رأيها فيه ، ومنها صيام بعض المسلمين رمضان قبل أن يعلن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوته ، ومنها ذبح بعض المسلمين قربان عيد الأضحى قبل ذبحه ؛ وروى في صدد الآية الثانية أنها نزلت في مسلم جهير الصوت كان إذا تكلم ارتفع صوته حتى يرتفع على صوت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولم يرو سبب لنزول الآية الثالثة .

ومهما يكن من هذه الروايات وما تحتمله من المناقشة فإن مما لا شك فيه أن الآيات نزلت بمناسبة بعض وقائع اقتضت الحكمة الربانية التنبيه على ما فيها من مأخذ ، وتأديب المسلمين فيها . وعلى كل حال فالآيات تدل على أن المسلمين كانوا أصنافاً مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ كان بعضهم لا يحتمش في مجلسه ومخاطبته ، كما كان بعضهم يتسرع في إبداء الرأي والبدء في العمل قبل أن يبدي رأيه أو يفعل ، في حين كان بعضهم يعرف قدره العظيم وشأنه الرفيع صلى الله عليه وسلم فيلزم الأدب والحشمة ويقف عند الحدود الواجبة عليه في حضرته .

وواضح أن هذا متنسق مع اختلاف طبائع الناس من جهة ، ومع طبيعة بيئته لم تتعود أن تتعبد بمثل هذه الآداب مهما يكن الفارق بين الناس ، وكان الكبير والرئيس

يخاطبون فيها مخاطبة الند وبدون استعمال ألفاظ توقيرية من جهة ثانية ، ثم ما كان من قدم إيمان بعضهم ورسوخه في أنفسهم وتأثرهم بأبلغ التأثير بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وتفانيهم في تعظيمه وتوقيره ، وجدة الإيمان عند بعضهم وانسياق بعضهم في الإسلام بدوافع متنوعة من جهة ثالثة ، فنزلت الآيات تؤدب المسلمين وتعلمهم وتوطد مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وحقه ، وتثني على من كان يوفيه هذا الحق ، لأن ظروف البيئة الإسلامية المدنية اقتضت ذلك .

ولقد جاء بعد الآيات الثلاث آيتان فيهما وصف موقف سلوكي آخر وهذا نصهما :
 « إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... » ٤ - ٥

إذ احتوت الآية الأولى مهما إشارة تنديدية إلى صورة فيها جفاء بدرت من وفد بدوى على ماروته الروايات جاءوا إلى المدينة ليجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما لم يجدوه في المسجد أخذوا ينادونه من وراء حجراته بأصوات عالية ؛ وهو أمر يتصل بالتعميل الذي ذكرناه آنفاً ، وكانت الحادثة وسيلة إلى التأديب القرآني الذي احتوته الآية الثانية .

الصورة الرابعة

(٤) في سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَأَ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... »

وقد ذكرت روايات النزول أن الآيات نزلت في ظروف حفر الخندق ووقعة الأحزاب . ومهما كان من أمر ففيها منظر آخر مشابه للمنظر الذي احتوته آيات الحجرات السابقة كما هو واضح ؛ إذ كان بعض المسلمين ينسحبون خفية من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أو من اجتماع دعا إليه لأمر هام دون استئذان ، ولم يكن بعضهم يفرق بين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوة سائر الناس فيعتذر أو يهمل الإجابة ، في حين كان بعضهم يلتزم الأدب والواجب فيهم لدعوته ، ويسارع إلى شهود مجالسه ، ويحرص على البقاء فيها ، ولا يتركها إلا لعذر مهم وبعد الاستئذان والإذن .

(٥) في سورة النور أيضا الآيات التالية :

« وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوَلِّيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَخِيفَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوَلِّيكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوَلِّيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُوَلِّيكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ... »

٥٢ - ٤٧

ومع أن الآيات تتحمل أن تكون بسبيل التنديد بموقف بعض المنافقين ، فإنها تتحمل أن تكون بسبيل التنديد ببعض المسلمين من غير المنافقين أيضا ، وفي القرآن تنديدات مماثلة وجهت إلى المؤمنين دون المنافقين ؛ ولذلك يسوغ أن يقال: إن فيها صورة لمواقف بعض المسلمين الذين كانوا يهربون من التقاضي لدي النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كان الحق لهم خشية أن يقضي ضدهم بالحق . ومع أن الآيتين الأخريين هما بمثابة تقرير لما يجب أن يكون عليه المؤمن المخلص فإن روحهما تلهم أنهما تنطويان على صورة واقعية لموقف المخلصين من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأحكامه أيضا .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

(٦) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَّأهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا
وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللهُ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا
عَظِيمًا ... »

٧١ - ٦٩

وقد روي أن بعض العرب نسبوا إلى النبي عدم العدل في قسمة الغنائم فتأذت نفسه
وقال : فن يعدل إن لم يعدل رسول الله ؟ ثم قال : يرحم الله موسى فقد أودى بأكثر
من هذا فصبر ! فنزلت الآيات ؛ وقد وردت أحاديث عن الأذى الذي أودى به موسى
في سياق تفسير الآيات ، منها نسبة بني إسرائيل إليه قتل هارون . ومنها إغراء قارون
بغياً لثمتهم موسى بالفاحشة ، ومنها أنه كان يتحفظ كثيراً في التجرد حياءً فقالوا : إن في
جسده آفة يخشى أن يراها بنو إسرائيل ؛ وقد ذكرت الأحاديث أنه وقع ما برأ الله به
موسى من التهم .

وعلى كل حال ففي الآيات تحذير للمسلمين من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بقول
أو عمل أو موقف ، وألا يكونوا كبنِي إسرائيل ، وتنبيه إلى أن الله حاميه ومطهره ؛
والمرجح أنه قد وقع حادث فيه قلة أدب وذوق في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو
تعجيز أو شك آذى نفسه فنزلت الآيات .

ومن هذا القبيل ما انطوت عليه آيات الأحزاب ٥٤ - ٥٦ التي نقلناها في مبحث
حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ، إذ احتوت صورة لموقف فيه شيء من التنقيل
على النبي صلى الله عليه وسلم ولقول فيه شيء من الأذى لنفسه في زوجته .

(٧) ولقد أوردنا في المبحث السابق آيتي سورة المجادلة ١٢ - ١٣ ؛ وننبه هنا إلى
أنهما فوق ما تضمنتا من صورة لمجالس النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة ومراجعات

الناس له في مشاكلهم الذاتية فإنهما تتضمنان كذلك صورة لما كان يظهر من بعض المسلمين من اللجاج والتلكؤ في سياق التشريعات والتكليفات المالية التي يأمر بها أو يبلفها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه . وقد تكرر هذا منهم في مناسبات توزيع غنائم بدر وفي بني النضير ، وحكته عنهم سورتا الأنفال والحشر ؛ وسوف نعرض له في فصلي الجهاد والتشريع ، لأن الموقف ثمة أوسع شمولاً من الصورة التي احتوتها آيات المجادلة .

الصورة السادسة

وفي القرآن آيات عدة فيها إيجاب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم وحث عليها وتوطيد لها واعتبارها ملازمة للإيمان بالله ورسوله وأثرأ من آثاره ، ووسيلة إلى الله ، كما أن فيها تنديدات لاذعة بالذين لا يستشعرون هذا الواجب على الوجه الذي ينبغي ، كما تراه في الأمثلة التالية :

١ — قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ...
آل عمران ٣١ - ٣٢

٢ — وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ...
آل عمران ١٣٢

٣ — تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ...
النساء ١٣ - ١٤

٤ — وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ...
النساء ٦٩

٥ — مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ
يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ...

النساء ٨٠ - ٨١

٦ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ...

النساء ٦٤ - ٦٥

٧ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمَعُونَ .
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ...

الأنفال ٢٠ - ٢١

٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ...

الأنفال ٢٤

٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ
وَأْتُمُّ تَعْلَمُونَ . وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ...

الأنفال ٢٧ - ٢٨

١٠ - وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...

التوبة ٧١

١١ - لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ...

التوبة ١١٧

فهذه الآيات تلهم أن بعض المسلمين كانوا يقفون مواقف التلكؤ في واجب
الطاعة والالتقياد ، بل الأمانة للنبي ، وتلهم أن هؤلاء ليسوا من المنافقين ، وإن كانت

تلهم أن منهم المنافقين أيضاً . وقد احتوت تنويها بالذين كانوا يطيعون رسول الله وينقادون لأوامره في ظروف الشدة وغيرها ، وبتعبير آخر ، إن الآيات قد تضمنت صوراً متنوعة لمواقف المسلمين على اختلاف درجات إيمانهم وتفانيهم . ويظهر أن المواقف غير المستحبة كانت أكثر فاققت الحكمة تكرار الأوامر في مختلف المناسبات لتوطيد ذلك الواجب العظيم . ونبهه إلى أن جميع الآيات مدنية ؛ فالتعليل الذي ذكرناه من قبل في صدد وقوع ما لا يستحب من حوادث ومواقف من المسلمين تجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، يطرد هنا ويبدو مفهوماً واضحاً .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

ونريد أن نلفت النظر إلى أمر هام بهذه المناسبة في صدد الأهداف القرآنية والدعوة النبوية وواجب الطاعة . ومع أن من الطبيعي أن تكون طاعة الرسول واجباً دينياً لا حاجة فيه إلى تعليل وإقناع لأنه يصدر في تليغاته عن الله ، فإن في الآيات التي نقلناها وخاصة آيات آل عمران ١٣٢ والنساء ١٣ - ١٤ والأنفال ٢٤ تعليلاً لهذه الطاعة ، إنها خير المسلمين وحياتهم ومصالحهم . وفي آية في سورة الممتحنة ذكر أنها تطلب منهم الطاعة في المعروف ولا تطلبها منهم مطلقاً كما ترى فيها :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... »

وفي هذا ما فيه من أسلوب الخطاب الإقناعي والدعوة الحكيمة ، وهو الطابع العام لأسلوب الدعوة والخطاب القرآني ، الذي تتفتح له نفوس من شرح الله صدورهم ولم يضلهم هوام ، وتطمئن به قلوبهم . وفيه دليل كذلك على أن حياة النبي صلى الله

عليه وسلم وسيرته ورسالته كانت إلى جانب روحانيتها وعلويتها وصلتها بالله ، متسقة مع الاعتبارات البشرية الطبيعية التي تكون فيها المصلحة بارزة والإقناع وسيلة رئيسية .

الصورة الثامنة

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات التي احتوت صوراً سلوكية غير مستحبة نحو النبي صلى الله عليه وسلم هي مدنية ، وأن الآيات القليلة التي جاءت في السور المكية متضمنة صوراً سلوكية نحوه لم تحتو إلا ما فيه معنى التفاني في اتباعه ونصره وتأييده . وكذلك كانت الآيات التي تحث على واجب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه والاستجابة له بأساليبها المتنوعة والمتكررة ، مدنية أيضاً .

وهذا متصل بطبيعة المهديين ؛ فالعهد المكي كان عهد قلة وضعف ونضال مع أغلبية باغية قوية ، وهذا يقضي على الأقلية بالتضامن والتفاني ، ثم هو عهد آمن المؤمنون فيه عن رغبة واندفاع وبقطع النظر عن كل اعتبار خاص ، ومع عدم المبالاة بما كان من أذى الأغلبية ومناواتها وقوتها ، بحيث يقال بحق إن جلّ الذين آمنوا فيه كانوا من الأقوياء في نفوسهم وأخلاقهم والذين رأوا في الإسلام ملاذاً ونجاةً وطمانينة قلب وضمير ، وكشف الله عن بصيرتهم فشهدوا نور النبوة الوهاج وأعلامها الصادقة فامتلات بذلك قلوبهم ؛ فلم يكن ثمة مجال لمواقف متنوعة لإزاء النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة المواقف غير المستحبة ، في حين اتسعت دائرة الإسلام كثيراً في العهد المدني ، وانضم إليها طبقات وفئات متنوعة ومتفاوتة في أخلاقها وبواعثها وظروفها من حضر وأعراب ، كما كان من الذين انتسبوا إلى الإسلام مناققون وطامعون واتبازيون ودساسون ودعاة فتنة ، ثم كان عهد طمانينة واستقرار نوعاً ما ، وعهد تأسيس دولة كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها الرئيس والقائد والقاضي والمشرع وقاسم المال الخ فكان المجال ثمة واسعاً لظهور الناس على سجاياهم ، وتفرغهم لأموالهم الخاصة متعة وكسباً ونشاطاً ، وطمعاً ومغامرة الخ وطبيعي أن تكون هذه الظروف المتنوعة وهذا التفاوت باعثاً على صور سلوكية غير مستحبة .

ونستدرك أمراً في صدد صور المسلمين في العهد المكي ؛ فالذي عنينا هنا ماله صفة سلوكية نحو النبي صلى الله عليه وسلم فقط ، وإلا ففي السور المكية ما يلهم صوراً لبعض المسلمين في العهد المكي فيها بعض مظاهر من الضعف والتزعزع سنعرضها فيما بعد . وهذا الذي جعلنا نستعمل كلمة (جل) بدلاً من (كل) . ونستدرك أمراً آخر وهو أن هذه الصور السلوكية إزاء النبي (صلم) هي صور مواقف مسلمين مخلصين غير منافقين على الأرجح الذي تلهمه الآيات . وأن هناك صوراً أخرى لمواقف سلوكية إزاءه من المنافقين في العهد المدني سوف يأتي الكلام عنها في فصل المنافقين في الجزء الثاني .

المبحث السابع

الوحي وأوليائه

متناول هذا المبحث - مفهوم الوحي ومداه من القرآن - وحي الله للنبي وأنبياؤه صلوات الله عليهم - سنن الله في وحيه - تنزيل جبريل القرآن على قلب النبي - كنه الوحي سر متصل بسر النبوة وواجب الوجود - الوحي منفصل عن النبي وليس نابغاً منه - تعليق على خبر رؤية الناس لجبريل حينما يتمثل برجل - التقريرات القرآنية الحاسمة في صدق شعور النبي بصحته بالوحي - مؤيدات قرآنية أخرى - بعض الأحاديث المروية - مداها ودلالاتها - مدى التهي عن تدوين غير القرآن عن النبي - الأحاديث القدسية - عدم فهم الانسان كنه الوحي والنبوة لا يمنع صدقهما - شهادة العيان الحاسمة في صدق أعلام النبوة والوحي - كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي - وقت بدء الوحي القرآني - تحليلات واستدلالات في صدق أوليات القرآن نزولاً - أثر اتصال الوحي لأول عهده في نفس النبي - صورة أخرى بمناسبة فترة الوحي وتعليقات في صددها .

الصورة الأولى

إن الوحي شأن متصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الأولى ، والدعوة إنما كانت بعد اتصاله الأول به ؛ وهذا ما حدا بنا إلى جعل هذا المبحث من مواضع هذا الفصل .

وسيتناول الكلام في هذا المبحث خمس نقاط :

- (١) مفهوم الوحي ومداه .
- (٢) كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي صلى الله عليه وسلم .
- (٣) وقت بدء نزول القرآن .
- (٤) أوليات القرآن نزولاً .
- (٥) أثر الوحي لأول عهده في نفس النبي صلى الله عليه وسلم .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

مفهوم الوحي ومداه :

(١) يتلخص ماقاله المفسرون واللغويون في معنى كلمة « الوحي » أنه القذف في الروح ، والإلهام ، والإشارة السريعة الخاطفة التي هي أقرب إلى الإسرار منها إلى الإعلان .

(٢) وقد وردت كلمة الوحي ومشتقاتها في القرآن نحو سبعين مرة ، منها ما لا يتصل بمعناه وصدوره عن الله ومنها ما يتصل .

ومن النوع الأول ما جاء بمعنى الإشارة كما ترى في الآية التالية :

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ... »

سورة ص ١١

وبمعنى الوسوسة والتأمر الخفي كما ترى فيما يلي :

١ — « وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ وَجُوهٌ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدْكُمْ ... »

الأنعام ١٢١

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... »

الأنعام ١١٢

أما النوع الثاني فنه ما جاء بمعنى الإلهام الفرزي كما ترى فيما يلي :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ... »

النحل ٦٨

وبمعنى الإلهام لغير الأنبياء والملائكة ، والقذف بالروح كما ترى فيما يلي .

١ — وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... »

القصص ٧

٢ — وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِخَوَارِجِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ... »

المائدة ١١١

وواضح أن هذا وذاك ليس مما يدخل في مدى وحي الله لأتبيائه ، أما ما يتصل بذلك فنه ماجاء مطلقاً لا يفهم منه كنه ولا كيفية كما هو في الآيات التالية :

١ — إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ . . .

النساء ١٦٣

٢ — وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ . . .

الأأنام ١٩

٣ — إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ ٓ إِلَىٰ . . .

يونس ١٥

ومنه ماجاء فيه بعض الدلالات التي يمكن استلهاها شيئاً عن مفهوم الوحي النازل على الأنبياء والنبي محمد صلى الله عليه وسلم ومداه كما في الآيات التالية :

١ — فَلَا أَقِيمُ بِالْخُلُوسِ . الْجُورِ الْكُنُوسِ . وَالْيَلِ إِذَا عَمَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ . وَمَاهُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . . .

التكوير (١) ١٥ - ٢٩

٢ — وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالْأَفُقِ الْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتَمْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . . .

النجم (٢) ١ - ١٢

٣ — وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ

(١) الخنس : جمع خنساء وهي النجوم التي تأتي ثم تكرر راجعة . الكنس : جمع كنساء وهي المحجوبة . والرسول في الآيات يعني الملك .

(٢) ذو مرة : ذو قوة . والراجع أن الأوصاف هي أوصاف الملك ، وأن كلمة عبده تعني النبي .

رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ . وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... الشورى ٥١ - ٥٢

وهناك آيات عظيمة الدلالة في صدد الوحي وتنزله بالقرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد فيها لفظ الوحي ، وهي هذه :

١ — قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... البقرة ٩٧

٢ — قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ... النحل ١٠٢

٣ — نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ... الشعراء ١٩٣ - ١٩٤

وقد ورد في سورة النحل آية فيها صراحة بأن الله يرسل الملائكة على من يشاء من عباده (أي أنبيائه) ولم يرد فيها لفظ الوحي أيضاً وهي هذه :

« يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ... »

٢ وقريب من هذه آية فاطر التالية :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ... »

١ فجميع هذه الآيات تدل على أن الله سنناً في الاتصال بمن يختارهم من البشر لرسالته وخطابه أولاً ، وعلى شيء من كيفية اتصال وحي الله بهم وبالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ثانياً ، وهذه السنن هي :

- ١ - إنزال الملائكة بأمره ووحيه .
 - ٢ - اتخاذ الملائكة رسلا بينه وبين الناس .
 - ٣ - قذف الله في روع من يريد أن يكلم من البشر .
 - ٤ - إسماع الله من يريد من البشر كلاما دون واسطة ودون رؤية .
 - ٥ - إن روح القدس والروح الأمين الذي هو جبريل هو الذي كان ينزل القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .
- والسنة الثالثة مستلهمة من آيات الشورى التي احتوت بيان ثلاث طرق وهى :
الوحي ، والكلام من وراء حجاب ، والكلام بواسطة رسول ؛ فذكر الوحي مع ذكر الرسول الذي هو الملك يسوع تفسير الوحي بمعنى القذف في الروع . والسنة الرابعة كذلك مستلهمة من هذه الآيات . أما تفسير جبريل بالروح القدس الأمين فإنه مستلهم من تشارك تعبير « التنزيل على القلب » في آيات البقرة والنحل والشعراء مع ذكر جبريل بصراحة في آية البقرة ، وهذا مجمع عليه تقريبا عند المفسرين .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن شيء يمكن أن يفيد بصراحة ماهية الملائكة وكنهمم أو يفيد أن غير من اختصه الله يمكن أن يراه ، أو يفيد كيفية إدراك النبي صلى الله عليه وسلم نزول جبريل على قلبه أو كيفية رؤيته إياه بالأفق أو قريبا منه قاب قوسين أو أدنى ، وسماعه صوته ، أو كيفية إدراك النبي وحي الله حيا يكون بطريق الإلهام والقذف التي هى إحدى الطرق التي ذكرتها آيات الشورى .

فهذه الأمور مما كانت وظلت في حقيقة كنهها سرا على غير النبي صلى الله عليه وسلم لأنها متصلة بسر النبوة المتصل بسر الوجود وواجب الوجود : وهى من المسائل الإيمانية التي يجب على المسلم الإيمان بها لأنها وردت نصا في القرآن . وفي الأحاديث والروايات الكثيرة أن جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويكلمه ويلقي إليه بل

يتحدثان معا والنبي جالس بين الناس فلا يرى أحد شيئا أو يسمع صوتا ، ويبقى الأمر بين النبي وجبريل صلى الله عليهما وسلم حادثا روحيا لا يدرك كنهه أحد (١) .
 وننبه إلى النصوص القرآنية صريحة الدلالة على أن الوحي الرباني الذي كان يتصل بالنبي كان شيئا طارئا عليه وليس كما يقول بعض الباحثين أنه نابع من ذاته وباطنه ، لأن شخصية الملك جبريل - مهما تكن غير مدركة الكنه - هي شخصية غير شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كما هو واضح .

الصورة الرابعة

وفي القرآن آيات فيها ردود على الكفار والممارين في صلة وحى الله بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي ردود قوية حاسمة الدلالة على صدق شعور النبي بصلته به ؛ منها آيات التكوير والنجم التي نقلناها ؛ وآيات التكوير تلهم أن الكفار قالوا حينما أخبر النبي بأنه رأى ملك الله : إن ما رآه شيطان ؛ وفقا لعقائدهم كما فصلناه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبينته قبل البعثة ؛ كما قالوا إنه مجنون ، أى محالط في عقله ، فاحتوت الآيات التوكيد القوي النافذ ، بهذا ماجاء في سورة الشعراء رد على زعمهم أن الذي يتصل بالنبي أو الذي يوحي إليه القرآن شيطان ، كما ترى فيما يلي :

« وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . . . »

٢١٠ - ٢١١

وتتبع الآيات بعد قليل آيات تزيد الرد قوة وإخاما كما ترى فيما يلي :

« هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ . تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ

٢٢١ - ٢٢٣

السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ... »

(١) أو ردنا قبل بعض الأحاديث التي فيها بعض كفيات نزول الوحي على النبي (صلم) . ومن ذلك أيضا ما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله (صلم) يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ترى يا رسول الله مالا أرى) ومن ذلك ما رواه مسلم عن النبي أنه قال (وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول) انظر التاج ج ٣ ص ٣٣٦ و ٢٢٥ .

وآيات النجم احتوت فوق توكيد رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ووصف ذلك وصفا تتجلى فيه المشاهدة الواقعية التي لا تتحمل مكابرة - رداً مفعماً آخر ؛ فرؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك هي خصوصية خاصة به لا يمكن أن يكون للمارة محل فيها ، لأن المارة إنما تصح في مشاهد مشتركة بين الناس .

وفي القرآن تنديد شديد بمن يقول إنه يوحى إليه ولم يوح إليه كما ترى .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ

شَيْءٌ ... الأنعام ٩٣

وهي قوية الدلالة من ناحية ماعلى صدق شعور النبي صلى الله عليه وسلم وما يستشعره من رهبة إزاء إخباره بصلته بوحى الله ، ومثل هذا في القوة والنفوذ إلى الأعماق الآيات التالية :

١ - قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ... الأنعام ٥٠

٢ - وَإِذَا لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... الأعراف ٢٠٣

٣ - قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ ... الأنعام ١٩

٤ - وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٥ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ
الْبَطْلَ وَيَمْحُقْ أَلْحَقَ بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ...

٢٤

٦ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ...

الأحقاف

وفي سورتي طه والقيامة ، تأييدات لما نحن في صدد تقريره .

ففي السورة الأولى هذه الآية :

« فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ أَلْحَقُ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ

١١٤

وَحْيُهُ ...

وفي الثانية هذه الآيات :

« لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْءَانُهُ . فَإِذَا قَرَأَهُ

القيامة ١٦ - ١٩

فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ . ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانُهُ ...

فهذه الآيات احتوت تنبيها للنبي في صورة النهي عن الاستعجال في تلاوة ما يوحى إليه به أو تحريك لسانه به قبل أن يتم الوحي إلقاء ما يوحى به إليه ، وفيها صورة قوية الدلالة لشعوره بالوحي الطاريء عليه الملقى إليه بالقرآن ، إذ كان يردد ما يلقى عليه حال إلقائه وقبل انتهائه خشية أن يفلت منه شيء أو ينساه .

وفي سورة مريم هذه الآية .

« وَمَا تَنْزِيلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ

٦٤

رَبُّكَ نَسِيًّا ...

وقد ذكر المفسرون ورواة النزيل أن الآية جواب ملك الله للنبي على سؤاله إياه أن

يكثّر من زيارته ؛ فإذا صحت الرواية ففيها تأييد من ناحية لما نقرره أيضا .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

هذا ؛ ومن قبيل الاستثناس نورد فيما يلي بعض الأحاديث الواردة في صلة النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي ومظاهرها وكيفياتها :

١ - حديث بخاري عن عائشة رضی الله عنها :

« أول ما بدأ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد - قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقاري . قال : فأخذي ففطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقاري . فأخذي ففطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقاري . فأخذي ففطني الثالثة ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؛ فأخبره رسول الله خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى : يا ليتني فيها جذع ؟ ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو مخرجي هم » ؟ قال نعم ؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا ... »

٢ - حديث رواه الطبري عن عبد الله بن الزبير :

« قال رسول الله فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . فقلت : ما اقرأ ففتني حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال اقرأ . فقلت ماذا اقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إليّ بمثل ما صنع بي . قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ... إلى قوله علم الإنسان ما لم يعلم . قال فقراءته ثم انتهى ثم انصرف عني . وهبت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا . قال : ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما . قال قلت إن الأبعد يعني نفسه لشاعر أو مجنون . لا يتحدث بها عني قريش أبدا . لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلا طرحنّ نفسي منه فلا قتلها فلا ستر يمن . قال فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتَه كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورأيت حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ؛ ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي .. »

٣ - حديث بخاري عن عائشة رضی الله عنها :

« إن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة : ولقد رأيتَه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا ... »

٤ - حديث بخاري عن عائشة رضی الله عنها .

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام : قلت وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى ما لا نرى » .

(٥) حديث في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضی الله عنه : وحديث بخاري عن صفوان بن يحيى رضی الله عنه ، وقد نقلناهما في مبحث أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وواضح أن هذه الأحاديث منسقة إجمالاً مع ما استلهمناه من الآيات من حيث رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ونزول الوحي عليه بين الناس دون أن يراه أو يحس به أحد . وفيها شيء غير وارد في القرآن في صدد وحي الله للنبي ، وهو تمثل الملك للنبي رجلاً دون أن يراه أحد ، ثم وصف الجهد الذي كان يتقل على النبي ويكاد يقبض نفسه ، ومجيء الوحي أحياناً مثل صلصلة الجرس ، وهذا المشهد الأخير قد جاء مجرداً عن ذكر مرافقة الملك .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

ولقد أتر عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تدوين شيء غير القرآن عنه^(١) ، كما تواترت الأخبار بأنه كان يأمر أخذ كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحي فوراً ؛ فهذا وذاك متصلان بشعوره الخاص بالفرق بين ما كان ينزل على قلبه من وحي القرآن وبين كلامه العادي ، وبجرسه على عدم الخلط بين كلامه العادي وبين ما ينزل عليه وحياً قرآنياً ؛ ولعل مما يتصل بهذا ويزيده وضوحاً ما يروى من الأحاديث القدسية المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله ، فليس يمكن لأحد أن يفهم منطقياً الفرق بينهما وبين ما يوحى قرآنًا ومحتوياتها مما يتصل بمحتويات القرآن وعظماً وإنذاراً وتبشيراً أو أخباراً أو قصة الخ ومع ذلك فقد فرّق بينهما فلم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتدوينها . ومما لا ريب فيه أن هذا التفريق يتصل بالصفة القرآنية التي كان يدركها

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لانكتبوا عني غير القرآن ومن كتب شيئاً فليحبه) كتاب السنة للسباعي ص ٧٢ .

النبي صلى الله عليه وسلم فيما يوحى إليه قرآنًا^(١) .

ومهما يكن من أمر فإننا من الذين يرون أن عقل الإنسان الذي يقف مشدوها ذاهلاً أمام ما في نفسه من قوى واستعداد وأمام ما في الكون من عظمة ونظام وقوى وسعة وعوالم ودقائق يعجز عن إدراكها والإحاطة بها ، حقيق بأن يكون أشدّ عجزاً عن إدراك ما وراء ذلك والإحاطة به ؛ ولسنا من الذين يرون ضرورة للمحاولة أو بالأحرى للمتأمل في التوفيق بين المسائل الإيمانية والنواميس الكونية ، أو لزوماً لتأويل ماورد في القرآن حتى لا يكون متعارضاً مع هذه النواميس . فالؤمن بعد أن يؤمن بالله أزلية أبدية شامل القدرة وخالق للأشياء وموجد لها من العدم ، يديرها ويسيرها على حسب ما اقتضت حكمته - وأمره بين الكاف والنون - لا يرى ولا ينبغي له أن يرى في الإيمان بالمسائل الإيمانية كالنبوة وصلة الأنبياء بالله صعوبة أو حاجة إلى تأويل وتوفيق إذا اقترنت بالنصوص القرآنية القطعية أو الأحاديث النبوية الصحيحة .

وإذا كان المسلم لا يصح إسلامه إلا بالإيمان بهذه الصلة على المدى الذي تساعد على بيانه وشموله النصوص ، فإن أى شخص متصف بحسن النية مهما كانت نحلته إذا

(١) هناك أحاديث عديدة توصف بهذا الوصف مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومنها ما ورد في مساند الأحاديث الصحيحة . وعبارتها مماثلة لأحاديث النبي أى عبارة كلام خطاب عادي دون أسلوب القرآن من حيث التقطيع والتركيب والتوازن في أواخر المقاطع والآيات . وهذا نموذج منها من حديث رواه أنس ابن مالك عن النبي عن جبريل جاء فيه (يقول الله عز وجل من أمان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة . ولاني لأغضب لأولياي كما يغضب الليث الحرد . وما تقرب إلى عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إلى بانوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً وبدأً ومؤيداً . إن دعاني أجبت . وإن سألتني أعطيت . وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته . ولا بد له منه . وإن من عبدي لمن يسألني الباب من العباد فأكفه عنه أن لا يدخله عجب فيفسده ذلك . وإن من عبدي المؤمن لمن لا يصلح لإيمانه إلا بالنبي ولو أفقرته لأفسده ذلك . وإن من عبدي المؤمن لمن لا يصلح لإيمانه إلا بالصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك . وإن من عبدي لمن لا يصلح لإيمانه إلا بالسقم ولو أسقمته لأفسده ذلك . إنني أدبر أمر عبدي بعلمي بقلوبهم إنني عليم خبير) وقد روى هذا الحديث الإمام البغوي في تفسيره في سياق تفسير سورة الثوري . وهو من حفاظ الحديث وهو راويه سماعاً من راو عن راو إلى أنس بن مالك رضى الله عنه .

أنعم النظر في الآيات لا يسعه إلا التصديق بصدق الشعور النبويّ بها ، وكون النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يصدر عن أمر راهن طاريء عليه وإن ظل سرا ربانياً لا يمكن الماراة فيه .

على أن في شهود النبي صلى الله عليه وسلم عيانا حقيقة حاسمة فيما نعتقد أيضا ، وتزداد هذه الحقيقة قوة أنها مما سجله القرآن بصراحة وقطعية في آياته المسكية والمدنية على السواء ، وهو الوثيقة المدونة الصادقة التي وصلت إلينا سليمة كل السلامة من العهد النبوي مروية عن لسان النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغه مباشرة ، ولا مثيل له في المدونات الكتابية المقدسة السابقة . فقد شهد حادث النبي آلاف من الناس منهم العرب ومنهم غير العرب ومنهم المشركون ومنهم الكتائبون ومنهم المستقرون في مكة والمدينة ومنهم الوافدون خصيصا للاستعلام والاطلاع على النبا العظيم الذي بلغهم وسمعوا تأكيدات النبي بلسان القرآن بنزول ملك الله عليه بالوحي وشعوره به منفصلا عن ذاتيته ، ولقد آمن بنبوته النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الأمر مئات منهم في مكة ممن طابت نفوسهم وحسنت نياتهم وأنار الحق قلوبهم ، بين المعارضة الشديدة التي تولى كبرها زعماء أقوياء أعداء لأسباب عدة ذكرها القرآن ، وستكون من مواضع الفصل التالي .

وكان بين المؤمنين تلك الطبقة النيرة القوية في عقولها وشخصياتها وأروماتها ، والتي لمع أفرادها لمعانا باهراً فيه الدلالة على ذلك ، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وطلحة والزبير وخالد وعمرو وأبي عبيدة وعبد الرحمن وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، ثم كان بينهم كثير من أهل الكتاب المستقرين والوافدين ممن حسنت نياتهم وطابت طوياتهم ، وتجردو من الهوى والغرض ، وأنفوا من المكابرة والعناد على ما وصفت مشاهد آيات الإسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥٢ - ٥٣ والرعد ٣٦ - ٤٣ والأحقاف ١٠ التي نقلناها سابقا ، ثم آمن بالنبوة الرعيل الأول من أهل المدينة وكان من شأنهم ما كان من نصر وتفان في تأييد دين الله ونبيه ، وآمن فريق من علماء اليهود

بين معارضة شديدة قادها بعض زعماء العرب وزعماء اليهود لأسباب عدة ذكرها القرآن - وسوف تكون موضوع فصول من هذا الكتاب - وآمن عديد من علماء النصارى وقسيسهم ورهباهم ، وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة مستظلمين مستعلمين أيضاً على ما وصفت مشاهدته وأخباره آيات النساء ١٦٢ وآل عمران ١٩٩ والمائدة ٨٢ - ٨٤ التي نقلناها سابقاً أيضاً .

فالرعيل الأول من المؤمنين العرب في مكة والمدينة الذين آمنوا رغبة وطوعاً وفي ظروف ضعف النبي المادي الشديد ، واستهانوا بكل شيء في سبيل إيمانهم ، والكتائبون في مكة الذين آمنوا رغبة وطوعاً مع أنهم أكثر تعرضاً للأذى ، والكتائبون الوافدون الغرباء الذين فعلوا مثل ذلك وهم في مثل تلك الحال ، وعلماء اليهود في المدينة الذين آمنوا رغبة وطوعاً ، واستهانوا بكل شيء من قومهم ، وعلماء النصارى وقسيسهم ورهباهم الذين جاءوا مستظلمين فأمنوا كذلك - ما كانوا يؤمنوا لو لم يشهدوا من أعلام النبوة وصدق الدعوة النبوية والهجعة النبوية ، وصحة دلائل وأمارات صلة النبي بالله ووحيه ملا يسع أحداً طيب النفس واسع الأفق متجرداً عن الغرض والهوى أن يماري فيه . ولعل آية سورة الشورى هذه :

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... »

١٦

وقد عنت فيما عنته وهي تندد بالكافرين في الله ورسالة نبيه هذه الحقيقة الحاسمة والحجة الدامغة .

ومن مظاهر قوة هذه الحقيقة الحاسمة والحجة الدامغة أن المستجيبين إلى دعوة الله في مكة حينما نزلت هذه الآية كانوا يمثلون البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها وأقطارها وأديانها . حيث كان منهم الوثنيون والمشركون والصابثون والنصارى واليهود والمجوس وعبد الكواكب . وكان منهم الاشراف والصعاليك . والأغنياء والفقراء . والزعماء

والضعفاء . والأحرار والعبيد . والنساء والرجال والشيوخ والكهول والشباب الفتيان
وكان منهم الآسيوي والأفريقي والأوروبي . والعربي والشامي والمصري والفارسي
والعراقي والحبشي والرومي . والأبيض والأسود .

الصورة السابعة

كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ليس في القرآن إشارة إلى كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي . غير أن آيات التكوير
١٥ - ٢٦ وآيات النجم ١ - ١٣ التي نقلناها سابقا احتوت توكيداً بأن النبي قد رأى
الملك ذا القوة في الأفق . والحديث الذي نقلناه عن الطبري والمروزي عن عبد الله بن الزبير
قد احتوى وصف رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك في السماء ، أي في الأفق ، وعلى
صورة أذهلت النبي عن كل شيء . والذي نرجحه أن آيات السورتين المذكورة هي
بسبيل وصف أولية بدء اتصال الوحي بالنبي وأولية رؤية النبي لملك الله ؛ يلهم هذا صيغة
الآيات والتوكيد القوي الذي احتوته والذي يدل على أنه بسبيل الرد على من كابر
وكذب أو شك وارتاب فيما أخبر به النبي ووصفه من اتصال وحي الله به ورؤيته لملك
الله ؛ كما يلهمه كون السورتين مبكرتين في النزول ، لاسيما سورة التكوير التي تأتي سادسة
في أربع روايات ماثورة لترتيب النزول ، وسابعة في ثلاث^(١) وأسلوبها ومضامينها
مما يؤكد تبكيها في النزول أيضا .

وهذا الاتساق الإجمالي بين وصف الآيات ووصف الحديث يجعلنا نرى في الحديث
وصفا صادقا لكيفية بدء الاتصال ، وقد احتوى وصفا وافيا لذلك كما يظهر من نصه

(١) هذه الترتيب هي ترتيب المصحف المعروف «بمصحف الملك فؤاد» والمأخوذ عن المصادر المعتبرة القديمة
بواسطة لجنة علماء خاصة ، وترتيب رواه الخازن ، وترتيب مروى في تفسير مجمع البيان ، وترتيب واردة في الإتيان
للسيوطي واحد منها منسوب للحسين وعكرمة وثان لجابر بن زيد وثالث لابن عباس ورابع مغفل النسبة
وقد وضعنا نبئا للسور المكية في مطلع قسم السيرة النبوية في العهد المكي وللور المدنية في مطلع قسم السيرة
في العهد المدني .

السابق ، وفي الحديث البخاري الأول عن عائشة رضی الله عنها ما يتم هذا الوصف من حيث ظروف الحادث ، ومحلّه الأول ، وما سبقه من اعتكافات ورياضات روحية وتعبدية ؛ وليس فيه ما يتناقض مع الآيات أو حديث ابن الزبير .

الصورة الثامنة

وقت بدء الوحي

في القرآن بضع آيات يمكن أن تساعد على تعيين وقت نزول أول وحي بالقرآن وهي :

١ — شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ...
البقرة ١٨٥

٢ — حمّ . وَالكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ...
الدخان ١ - ٦

٣ — إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ...
القدر

وآية البقرة صريحة بأن القرآن قد أنزل في شهر رمضان . ولما كان إنزاله لم ينحصر في هذا الشهر ، فالتعبير ينصرف على ما هو المتبادر إلى أولية نزوله . وقد قال هذا كثير من العلماء والمفسرين كما أنه مؤيد ببعض الروايات الموثوق بها . ولقد قيل في صدد الآية إن القرآن إنما نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان ثم أخذ جبريل ينزل به منجماً على النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا القول لا يبعث الطمأنينة إلى النفس وغير مؤيد بمأثور وثيق ، ولا تفهم له حكمة ، وغير متسق مع طبائع الأشياء ؛ ويتبادر لنا أنه متصل بما كان من جدل حول خلق القرآن وأزليته .

وفي آيات الدخان والقدر صراحة على أن الله قد أنزل القرآن في ليلة القدر وفي ليلة مباركة . وفي سورة القدر لم يذكر القرآن صراحة ولكن المفسرين والرواة مجمعون على أن الضمير عائد إليه ، وأما آيات سورة الدخان فالآية الثانية ذكرت « الكتاب المبين » والضمير في « أنزلناه » يعود إليه . وطبيعي أن القرآن كان ينزل في وقت بعد وقت ، فالتنويه ينصرف على ما هو المتبادر إلى أولية النزول أيضا . ولقد قيل في صدده هذه الآيات ما قيل في صد آية البقرة من أن المقصود جميع القرآن وأن الإنزال هو الإنزال إلى سماء الدنيا مما علقنا عليه آنفاً . كذلك قيل في صدد الليلة المباركة في آيات الدخان إنها ليلة النصف من شعبان وإنها ليلة تقدير الأعمار والأرزاق السنوية . وهذا القول غير موثق بمأثور صحيح وغير مفهوم الحكمة ولا متسق مع طبائع الأمور . وسبق ورود لفظ « الكتاب » قرينة حاسمة على أن المقصود هو نزول القرآن كما أن روح الآيات جملة تلهم ذلك . ومن العجيب أن يقول قائلون ذلك القول إزاء هذه القرينة الحاسمة .

أما ليلة القدر فهناك أحاديث مروية بشأنها ورد في بعضها أنها في العشر الأخير من رمضان ، وفي بعضها أنها ليلة السابع والعشرين منه . والمتعارف المتواتر هو أنها ليلة السابع والعشرين

وهكذا يصح أن يقال استلها ما من القرآن إن وقت بدء نزول الوحي بالقرآن هو إحدى ليالي شهر رمضان ، واستثناساً بالأحاديث إن هذه الليلة هي ليلة السابع والعشرين منه . أما السنة فليس هناك ما يمكن الاستدلال عليها من القرآن . غير أن المروي المتواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سن الأربعين من عمره ؛ ويوافق هذا سنة ٥٧٠ بعد الميلاد المسيحي ، والسنة الثالثة عشرة قبل الهجرة النبوية على ما حسبه الحاسبون .

على أن في سورة الأحقاف آية يمكن أن يستأنس بها إلى حد ما على أن سن النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه كانت أربعين وإن لم يكن ذلك حاسماً وهي :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
 وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
 أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي
 فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ... »

١٥

إذ جعلت هذه السن حدا لبلوغ الرجل أشده ونضج عقله وكامل إدراكه .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

أوليات القرآن نزولا :

ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على أوليات القرآن نزولا ؛ وكل ما هناك
 روايات لأسباب وظروف نزول آيات قرآنية تعد في تاريخ القرآن من الأوليات . ومع أن
 أوثق الروايات وأكثرها اعتباراً وأخذاً تذكر أن أول ما نزل من القرآن هو الآيات
 الخمس الأولى من سورة العلق ، فإن هناك روايات يذكر بعضها أن هذا الأول هو
 « الفاتحة » وبعضها يذكر أنه « الضحى » وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة
 المدثر ، وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المزمل .

ولعل من مرجحات أولية آيات العلق فوق وثاقة واعتبار رواياتها ، أنها لا تحتوي
 أمراً بدعوة ، وأنها من قبيل الإعداد للنبي صلى الله عليه وسلم وتنبهه وتلقينه . وترتيب
 السور القرآنية المأثورة جميعها تضع سورة العلق أول السور دون أي شذوذ فيما اطلعنا
 عليه ؛ وهذا بسبب أولية آياتها الخمس الأولى على الأرجح ؛ لأن مضمون الآيات التالية
 يدل على أنها تأخرت عنها وقتاً ، إذ احتوت صورة لموقف أحد الطغاة من
 النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعقل هذا إلا بعد أن تلقى النبي الأمر بالدعوة وسار في
 تنفيذ الأمر شوطاً ما .

الصُّورَةُ العَاشِرَةُ

وترتيب النزول تضع سورة القلم ثمانية السور والمزمل ثالثها والمدثر رابعها بدون

خلاف ؛ ثم يبدأ الخلاف ، فهناك ترتيب يجعل الفاتحة خامسة ، وترتيب آخر يجعل الخامسة هي المسد ؛ وهناك ما يضع التكوير سادسة على حين يضعها ترتيب آخر سابعة . .

وفي اعتقادنا أن الترتيب المأثور للقلم لا يصح إلا إذا روعيت آياتها الأربع الأولى فقط ، وهي هذه :

« ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ تَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... »

٤ - ١

إذ كانت الآيات التالية لها قد نزلت متأخرة مثل بقية آيات سورة العلق ؛ لأن فيها حكاية موقف صد وتكذيب ، وحملة شديدة على بعض الزعماء ، ونهياً للنبي عن مطاوعتهم ومداهنتهم ؛ وهذا لا بد أن يكون بعد أن سار النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة شوطاً ما أيضاً ؛ كما أن فيها هذه الآية : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين - ١٥ » إذ تدل على أنه قد نزل جملة مامن القرآن ، كان النبي يتلوها على الناس حتى قال المكذبون هذا القول .

وإذا صح نزول الآيات الأربع من سورة القلم لحدثها كان ما يهدف إليه بث الطمأنينة في نفس النبي ونفي الخاطر الذي خطر لباله من مسه بالجنون على ما ذكره حديث الطبري ، وثناء على أخلاقه العظيمة بسبيل ذلك . وليس على هذا التوجيه مأخذ إلا من حيث أن نظم آيات السورة متسق آخذ بعضه برقاب بعض ، إذ تبدأ الآية الخامسة بقاء تلهم أنها تعقيب على ما سبق ؛ وأن نبي الجنون عن النبي كان رداً على مانسبه إليه الذين عنتم الآيات :

« فَسْتَبْصِرُ وَبُصِرُونَ . بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ... »

٧ - ٥

ومثل هذا لا يرد على آيات العلق الأولى وما بعدها على ما يظهر حين إنعام النظر

فيها ، على أنه ليس ثمة ما يمنع مع ذلك أن تكون الآيات التالية للآيات الأربع الأولى من سورة القلم قد نزلت متأخرة عنها وجاء أسلوب نظمها متنسقاً معها .

الصُّورَةُ الْجَادِيَّةُ عِشْرَةٌ

والآيات التالية للآيات التسع الأولى من سورة المزمل تحتوي هي أيضا تثبيتا للنبي أمام تكذيب المكذبين وإنداراً لهم ؛ وهذا لا بد أن يكون بعد أن سار النبي شوطاً ما في الدعوة ، ويحمل على القول بأن الآيات التسع الأولى قد نزلت لحديثها وأن ما بعدها نزل متأخراً عنها أيضا . غير أن هناك مأخذين على احتمال كون الآيات التسع الأولى هي ثلاثة مجموعة قرآنية ؛ الأول مضمونها ؛ وهو :

« يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ . قُمْ الْيَلَّ إِلَّا قَلِيلاً . نَضْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً . إِنْ نَاشِئَةَ الْيَلِّ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً . وَأَذْكَرٌ أُنْمٌ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ... »

ففي الآيات أمر للنبي بترتيل القرآن . ولا ندري كيف يكون هذا ولم يكن قد نزل من القرآن إلا خمس آيات من سورة العلق وأربع من سورة القلم إن صحت الروايات ! ولقد يرد بأن الأمر بالنسبة للمستقبل ، وأن في الآية الخامسة قرينة على ذلك ؛ ومهما يكن من أمر فإن الآيات في ذاتها لا تحتوي أمراً بالدعوة وإنما تحتوي إعدادا للنبي وبثا للطمانينة في نفسه ، وتنبئها على مافي العبادة الليلية من فوائد روحية عظيمة تصفي نفسه وتقويها على حمل المهمة العظيمة التي ستلقى إليه ؛ وقد احتوى مطلعها خطابا محبياً حكى أسبابه حديث البخاري حيث ذكر أن النبي لما عاد من حراء إلى بيته يرجف قلبه قال لأهله : زملوني زملوني ؛ وهذا كله يمكن أن يكون جواباً على المأخذ الأول ، ويجعل في رواية نزول الآيات لحديثها وكونها من الأوليات الأولى وجهة ما ، أما المأخذ الثاني فهو

اتساق نظم الآيات التسع وما يليها اتساقاً قويا ، والفاء التي تبدأ بها الآية العاشرة ، على أنه يصح أن يقال هنا ما قلناه في آية سورة القلم أيضا .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةُ

والآيات التالية للآيات السبع الأولى في سورة المدثر هي كذلك مثل الآيات التالية في السور الثلاث السابقة تحتوي حملة على زعم جاحد ، ووصفاً لموقف له من القرآن إذ قال : « إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ٢٤ - ٢٥ » وهو قول لا يمكن أن يكون إلا بعد نزول طائفة من القرآن وقطع النبي شوطاً مافي الدعوة ؛ وعلى هذا فترتيبها إنما يصح إذا فرض أن الآيات الأولى منها قد نزلت لحدتها أيضا وهي هذه :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ .
وَلَا تَمُنَّ بِتَنْتَكِرْ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ... »

١ - ٧

وليس ما يمنع هذا الفرض ، بل إن صحته لأقوى من صحة فرض ذلك في سورتي القلم والمزمل بسبب فرق النظم بين هذه الآيات وما بعدها كما هو شأن آيات العلق الأولى وما بعدها ؛ ولعل مما يحمل على ترجيح صحة أولية هذه الآيات أنها احتوت فوق مطلعها التحببي الذي يبث الطمأنينة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، أمراً بالنشاط إلى إنذار الناس ودعوتهم إلى الله . وإذا صح نزول الآيات الأولى للسور الثلاث السابقة - العلق والقلم والمزمل - لحدتها ، يكون الاتساق قد تم ؛ إذ احتوت مطلع السور تثبيتا وتطمينا وتنبها وإعدادا حتى إذا ماسكن روع النبي صلى الله عليه وسلم وهذا اضطرابه من حادث الوحي الأول ورؤية ملك الله ، نزل عليه مطلع السورة الرابعة - المدثر - بالقيام بالدعوة والإنذار ؛ وقد احتوى المطلع فوق هذا - على ما يتبادر لنا - خطة للنبي في سيره في الدعوة ؛ فالله أكبر من كل شيء فعليه أن يذكر ذلك بقلبه ولسانه ، والصبر والثبات ومكارم الأخلاق كافلة للنجاح في المهمة العظمى التي ندب لها ، فعليه أن يصبر على ما حمله

ربه من واجب ، وعليه أن يهتم للطهارة والنظافة وأن يهجر فاحش القول والمواقف وأن يكون متواضعا غير منان .

الصورة الثالثة عشرة

وقد اختلفت الروايات في الخامسة من السور بين الفاتحة والمسد ؛ كما قلنا ، والذي نرجحه أنها الفاتحة لأن المسد احتوت حملة على موقف أبي لب و امرأته ، ولا بد أن يكون هذا بعد شوط مامن الدعوة ، في حين أن الفاتحة احتوت تمجيذاً لله وطلب هدايته وتعلما بأن تكون العبادة له وحده ؛ وبالتالي أسساً من أسس الدعوة العامة ؛ ولعل من الأدلة على أوليتها بل من دلائل سبقها في الأولية لغيرها أنها صارت مفتوح كل صلاة ، وكل ركعة من كل صلاة بالسنة النبوية اليقينية ، وأنها سميت أم الكتاب و فاتحة الكتاب (١) .

وإننا نرجح إن لم نقل نجزم أن الفاتحة وسوراً مماثلة لها احتوت شرح مبادئ الدعوة إنذاراً وتبشيراً وخت من العنف ومن الإشارات إلى مواقف لجاج الكفار وجودهم وتكذيبهم ومن الحملة عليهم مثل سور الأعلى والشمس والليل والعصر والإخلاص والعاديات والتين والتكاثر والقارعة الخ هي التي نزلت قبل المسد وقبل التكوير التي ذكرت التراتيب أنها السادسة أو السابعة والتي احتوت هي أيضاً مشهداً حجاجياً ، وقبل الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى - العلق والقلم والمزمل والمدثر - إذا صح القول بأن هذه المطالع نزلت منفصلة ومبكرة عن بواقها ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ يدعو الناس وينذرهم ويبشرهم ويخبرهم بأخبار وحى الله ويتلو عليهم الآيات القرآنية الموحاة إليه ، قوبل بالصد والتكذيب والشك والارتياب والاستنكار

(١) هناك حديث أخرجه البيهقي والواحدي ووصف رجاله بالثقات عن شرحبيل عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيه أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن . وهناك رواية عن مجاهد وابن عباس أن الفاتحة هي أول ما نزل من القرآن . ولما كان حديث كون الآيات الأولى من سورة العلق هي أولى القرآن نزولاً أوثق وأقوى سنداً فيمكن أن يقال إن الفاتحة هي أولى السور الثامنة نزولاً . وبذلك يتم التوفيق بين الأحاديث والله أعلم .

والتهجم والتجهم من الزعماء فأخذت آيات السور الأربع الأولى التالية لمطالعتها ، وسور المسد والتكوير والهمزة وغيرها تتابع في النزول تحتوي الردود والتنديد والحملات القاصمة وتحتوي التوكيد والتثبيت والمواعظ والأمثال والقصص الخ .

وأنت إذ تقرأ آيات سورة الأعلى :

« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَ عِشَاءً أَوْحَى . سُنُقِرُكَ فَلَآ تُنسى . إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وَنُيْسِرُكَ لِلبَّسْرَى . فذَكَرْهُ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَى . سَيَذَكِّرْهُ مَن يَخشى . وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصلى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْخَلْقَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هَذَا لِنِى الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » .

وآيات سورة الشمس :

« وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا . كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَفْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَأَقْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

وآيات سورة العصر :

« وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَانَ لِنَفْسٍ خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

إلى أمثالها مما ذكرناه ترى فيما نقره وجاهة لا تتحمل التوقف والارتياب . على

أن من المفيد أن نذكر أن عدداً من هذه السور وما يدخل في مداها هو مما روت الروايات نزوله مبكراً جداً ووضع في ترتيب النزول في الدرجات الأولى ، مثل الأعلى التي وضعت ثامنة والليل تسعة والفجر عشرة والعصر ثلاثة عشرة والعاديات أربعة عشرة . . . فهذا الترتيب المروي مما يدعم ما نقرره .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ

أثر اتصال الوحي لأول عهده بالنبي صلى الله عليه وسلم .

واضح مما ذكرناه في سياق البحث السابق أن مطالع سور القلم والمزمل والمدثر تلهم صحة الوصف الذي احتواه حديثنا البخاري والطبري لأثر اتصال الوحي بالنبي لأول مرة في نفسه ؛ إذ يخاطب بالمزمل والمدثر ، وإذ ينفى خاطر الجنون الذي خطر لباله ، وتبث فيه الطمأنينة وينثي على خلقه ، ويطلب منه الصبر والاتكال على الله والاستعداد لتلقي أوامره وقرآنه ، والثبات في المهمة التي ندب لها ، والتمسك بالأخلاق الكريمة قولاً وفعلًا ومظهرًا .

وتكرار هذا في ثلاث مجموعات صارت مطالع ثلاث سور ، يلهم أن هذا الاضطراب النفساني قد استمر وقتاً ما كما هو المتبادر .

على أن أثر الوحي في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على ما كان من إحداث ذلك الاضطراب النفساني فيه ، فإن سورة الضحى تحتوي صورة عكسية أخرى وإليك آيات السورة المتصلة بذلك أولاً .

« وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ . وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ . . . »

ولقد وردت روايات في نزول هذه السورة تفيد في جملتها أن الوحي قد فتر عن

رسول الله في مبادئه ، وبعد أن سار شوطاً في مهمة الإنذار والتبشير والدعوة وصار له أعداء ومكذبون ومتربصون . فخرّ هذا الفتور في نفسه وآله ، لا سيما أن السيدة خديجة كما جاء في إحدى الروايات قد أظهرت خوفها من أن يكون وحى الله قد انقطع عنه وأن ربه قد قلاه وتركه ، وقد أخذت أم جميل أخت أبي سفيان وامرأة أبي لهب في رواية تعيره وتبدي شماتها حينما علمت بفتور الوحي عنه .

ومهما يكن من أمر ؛ فنص الآيات وروحها معاً يلهم أنها نزلت في ظرف أزمة نفسية شديدة طرأت على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب فترة الوحي عنه ، هذا مع التنبيه إلى أنسا غير مطمئنين للرواية التي ذكرت السيدة خديجة ، فالرواية غير موثقة والسيدة كانت مؤمنة كل الإيمان به ومشجعة كل التشجيع له ، ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن القائل عدو استغل خبر الفترة ، إذ تبث في نفسه الطمأنينة وتؤكد له كذب ظن الناس ، وأن الله لم يقله ولم يدعه ، وقد كان الجاحدون يستغلون كل حادث يرون فيه ثغرة ضد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وسوف نعرض صورة من ذلك في الفصل التالي .

وسورة الضحى من السور المبكرة في النزول ؛ إذ يجيء ترتيبها العاشرة أو الحادية عشرة ، وهذا يعني أن فترة الوحي كانت في مبادي الوحي ، ويعني كذلك أن النبي كان قد استأنس بالوحي استئناساً شديداً فلم يستطع أن يكتم حزنه حينما شعر بفتوره عنه ، فانتشر ذلك عنه حتى بلغ الأعداء . ونعتقد أن هذا الحادث في ظرفه وأثره على جانب عظيم من الخطورة في صدد صحة صلة النبي بالوحي الرباني وشعوره بأنه كان شيئاً منفصلاً عن ذاته يتوالى ويفتر .

ورواية موقف امرأة أبي لهب من الحادث مع رواية تبكير نزول سورة المسد وتبكير نزول سورة الضحى ، تجعلنا نرى صلة بين هذا الموقف وبين الحملة عليها هي وزوجها في سورة المسد ؛ وسنعود لذلك في الفصل التالي .

والروايات متغايرة ومتعددة في مدة فترة الوحي ؛ إذ تتراوح على اختلاف الروايات

بين الأيام والأشهر والسنين ؛ إذ تصل في بعضها إلى ثلاث سنين .
على أن تعاقب السور المكية بالإندار والتبشير والدعوة وحكاية مواقف الكفار
والحملة عليهم - حتى ليسكاد يكون قد نزل نصف القرآن المكي قبل أن تنزل سورة
النحل التي تتضمن إشارة إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة التي كانت في أواسط العهد المكي -
يحملنا نشك في فتور الوحي مدة طويلة تبلغ السنين ؛ وكل ما تطمئن به النفس أن تكون
أياماً أو أسابيع معدودة .

عَهْدُ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَكِّيِّ

مُجْتَوِيَاتُ هَذَا الْقِسْمِ

- ١ - تمهيد
- ٢ - فصل في موقف العرب غير الكتابيين في هذا العهد
- ٣ - « » الكتابيين « »

تهيد

الدعوة في العهد المكي تناولت المشركين والكتابين - تقسيم الكلام على العهد إلى فصلين بسبب ذلك - القرآن المكي وبميزاته البارزة - طبيعة هذا العهد من أسلوب القرآن المكي ومضامينه - مظاهر التشابه في القرآن المكي ودلالاتها - الطريقة التي سرنا عليها في عرض مشاهد العهد المكي - ثبت تراتب نزول السور المكية .

الصورة الأولى

لم يكن العرب المشركون وحدهم في مكة ، بل كان إلى جانبهم كتابيون أيضاً ، وإن كانت الكثرة والقوة لأولئك دون هؤلاء الذين كانوا أقلية ضعيفة ، وكان جلهم أفراد جاليات نازحة ، وأرقاء ، على ما فصلناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » .

ولقد وجهت الدعوة الإسلامية إلى الفريقين على السواء ، وآيات الأعراف ١٥٧ - ١٥٨ التي نقلناها في أحد مباحث الفصل السابق تمثل هذه الدعوة ؛ والأعراف مما نزل مبكراً في العهد المكي على ما ذكرته الروايات وتراتب نزول السور .

وقد كان لكل منهما موقف متميز بعض التميز من الدعوة ، متصل بطبيعة كيان وعقيدة وقوة كل منهما . ومع أن القسم الأعظم من القرآن المكي هو في صدد دعوة ومواقف الفريق الأول فإنه قد احتوى آيات عدة في صدد دعوة ومواقف الفريق الثاني أيضاً . ولهذا رأينا أن يكون العهد المكي فصلين ، فصلاً خاصاً بالعرب غير الكتابيين وآخر بالكتابين .

الصورة الثانية

ويمثل القرآن المكي العهد المكي بطبيعة الحال ، وهو نحو ثلثي القرآن عدد آيات ، وأقل من ثلثيه كماً وعدد أجزاء ، ونحو ثلاثة أرباعه عدد سور ، على اختلاف في مكة

ومدنية بعض هذه السور ؛ وله مميزات بارزة نشير إليها فيما يلي :

- ١ - إن أغلب سوره ومجموعاته تنحو منحى التسجيع والتوازن والاتساق في الروى أولا ، وقصر الآيات ثانياً ، كما أنها قوية الأداء والإيقاع والنفوذ في تقريرها ووصفها وخطابها وجدلها وتنديدها وتنويعها ووعدتها ووعيدها وتبشيرها وإنذارها.
 - ٢ - إنها تتكثف فيها الدعوة إلى الله وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل ما يتصل به ، بأسلوب قوي نافذ ومتنوع ، كما تتكثف فيها كذلك المبادئ الإسلامية الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية والروحية بأسلوب قوي ونافذ ومتنوع أيضاً .
 - ٣ - إن أسلوب الدعوة الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية أسلوب حث وحض وتشويق وتمثيل ووعد وجدل أكثر منه أسلوب تشريع وتحنين .
 - ٤ - إن حكاية حال الكتائب ومواقفهم هادئة لا عنف فيها ، ويوحى أسلوبها ومضمونها بأن الهدف والحزبية متحدان بينهم وبين الدعوة الإسلامية .
 - ٥ - إن وصف مشاهد الحياة الأخروية وثوابها وعقابها والإنذار والتبشير بها قد كثر وتكرر وتنوع كما كثر وتكرر وتنوع إيراد قصص الأنبياء وأقوامهم وآدم وإبليس ، وذكر الملائكة والجن بإسهاب حيناً واقتضاب حيناً آخر .
 - ٦ - إن حكاية أقوال ومواقف الكفار التكذيبية والجدلية والاتهامية ، والرد عليهم وتقريرهم وتكذيبهم والمجلة عليهم ، قد كثرت وتنوعت أيضاً .
 - ٧ - إن القرآن المكي قد خلا تقريباً من ذكر المنافقين وحكاية مواقفهم ومكايدهم
 - ٨ - إن المشاهد التي احتوتها سور القرآن المكي ومجموعاته ومناسباتها تكاد تكون متشابهة دعوة وتقريراً ووصفاً وحكاية وجدلاً وإنذاراً وتبشيراً وقصصاً .
- وفي كل هذا دليل على ما كانت عليه طبيعة العهد حين كان النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام ضعيفين في القوة والعدد ، وحين كانت الدعوة قائمة على قوتها الروحية والإقناعية والجدل والحجاج ، والمناظرة ، وحين كانت الزعامة العربية هي المؤثرة في

الموقف تأثيراً يجعل الجمهور تابعاً لها ، وحين لم يكن في مكة جاليات كتابية كبيرة وقوية ومتكثلة تصطدم مصالحها بالدعوة الإسلامية كما كان شأن اليهود في المدينة ، وحين كان العهد عهد دعوة تشابه المخاطبون بها في العقائد والتقاليد والمواقف . ولم يكن فيه والحالة هذه تشريع وتقنين يقوم على تنفيذها سلطان نافذ، كما لم يكن فيه مجال لإضمار فريق من الناس الكفر وإظهار الإسلام تزلفاً للنبي والمسلمين كما كان شأن المنافقين في المدينة .

الصورة الثالثة

ومن مظاهر هذا التشابه الذي ذكرناه في مواضع المجموعات والسور المكية أن قارئ القرآن يجد أسلوب الإنذار وضرب الأمثال والتذكير وتكرار حكاية قصص الأمم السابقة وأنبياؤها وقصة آدم وإبليس والتنديد بالعرب لعدم ارعواثهم وتأثرهم واستجابتهم وحكاية جدلم والرد عليهم وموقفهم الجدلي والإعراضي - هادئاً لا عنف فيه في كثير من السور والمجموعات المروي نزولها في هذا العهد ، سواء في أدواره الأولى وفي أواسطه وأواخره ، كما يجد إلى جانب هذا عنفاً وشدة في أسلوب ذلك فيما روي نزوله في أوائل العهد وأواسطه وأواخره أيضاً مع التنبيه إلى أن أسلوب العنف والشدة أكثر بروزاً وأوسع حيزاً من جهة ، وإلى أن طابع الاعتدال والهدوء يضعف في السور المروي نزولها في أواخر العهد من جهة أخرى .

وهذه المظاهر تدل على طبيعة العهد المكّي ، وتنسق مع طبيعة الأشياء ؛ فالعهد دام نحو ثلاث عشرة سنة ، والسيد الرسول عليه السلام كان يتصل بمختلف الفئات والطبقات والأفواج المستقرين والقادمين في ظروف متقاربة مع اختلاف المناسبات ، فيكون الموقف هادئاً مع فئة وشديداً مع أخرى ، كما يمكن أن يكون هادئاً في ظرف وشديداً في آخر ؛ هذا مع احتفاظ الزعماء العنيفين بغلواثهم والمعتدلين بهدوئهم ، ومع سيطرة الأولين على الموقف طيلة العهد ، وبقاء الدعوة في نطاق ضيق محفوف بالحن والأخطار .

وفي هذا صور متنوعة للنشاط والجهد والموقف والأحداث ، تساعد على تبين ما كان

بيده النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وجهد ، وبالتالي على أدوار وأحداث السيرة النبوية في هذا المهد .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

ولقد كنا نود أن نعرض هذه الصور المتنوعة دورا دورا ؛ غير أن مظاهر التشابه التي أشرنا إليها تجعل هذا غير يسير كما هو واضح ؛ هذا إلى أن من العسير معرفة تاريخ نزول السور والمجموعات القرآنية المكية معرفة صحيحة ، وإن كان مما يخفف هذه الصعوبة بعض التخفيف ما هناك من روايات ماثورة لترتيب نزول السور ، وما في مضامين السور والمجموعات من قرائن تلهم حجة كثير من هذه الروايات أو مقاربتها للصحة . ولذلك رأينا أن نسير في دراسة هذا المهد ورسم صورته القرآنية على طريقة نلائم فيها بين ملاحظة الزمن ما وسنا ذلك وبين جعل الدراسة والصور في نطاق مواضيع مستقلة .

وسنضع أمام القاري بمد هذا الكلام ثبنا يحتوي ترتيبات النزول الماثورة للسور المكية مما استند في وضعه وروايته إلى روايات ودراسات ماثورة على الأرجح ؛ وسيرى القاري فيها تقاربا كثيرا يسوغ القول باحتمال مقارنة الترتيبات المذكورة للصحة ، وإننا لنأمل أن نفيد القاري في تتبع سير السيرة وأدوارها في عهدنا المكي .

ومع أن من المحتمل أن تكون مجموعات من سورة ما - وخاصة من السور الطويلة - قد نزلت منفصلة عن مجموعاتها الأخرى ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن مضامين ونظم السور القصيرة والمسجوعة أولا ، وتلاحق الفصول في كثير من السور المتوسطة والكبرى غير المسجوعة ووحددة الموضوع فيها بوجه عام ثانيا ، يمكن أن يلهم أن جل السور المكية قد نزل جملة واحدة ، كما يمكن أن يلهم أن ما نزلت مجموعات، منفصلة منها قد تلاحقت دون أن يفصل بينها نزول مجموعات من سور أخرى ؛ وهذا مما بضمن الفائدة المرجوة آنفا إلى حد غير يسير .

وقد يرد أن وجود آيات مدنية في السور المكية مما يدعو إلى التوقف في قبول وحدة

نزول هذه السور أو تلاحق فصولها أو ترتيب آياتها منذ العهد المكي على الوجه الذي ورد في المصحف ، ولكننا لا نرى ذلك ، لأن الآيات المدنية الصحيحة الطابع والثبوت ليست كثيرة في عددها وفي عدد السور التي احتوتها وقد وضعت في مناسباتها مما يدل على أن ترتيب آيات السور المكية وتلاحق فصولها لم يطرأ عليه تعديل كبير في العهد المدني . ولقد حرصنا على التنبيه إلى هذه الأمور وملاحظتها في تفسيرنا الكامل وفي مقدمته أيضاً .

وإليك الترتيب (*) :

رقم ترتيب الصحف	رقم نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الحازن	رقم ترتيب مجمع البيان	رقم ترتيب السبوطي	رقم ترتيب الحسين وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر	اسم السورة
٩٦	١	١	١	١	١	١	١	العلق
٦٨	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	القلم
٧٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	المزمل
٧٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	المدثر
١٠٦	٥	٥	٥	٥	٥	٥	٥	الفاتحة
١٠١	٦	٦	٦	٦	٦	٥	٦	المسد
٨١	٧	٧	٦	٦	٦	٦	٧	التكوير
٨٧	٨	٨	٧	٧	٧	٧	٨	الأعلى
٩٢	٩	٩	٨	٨	٨	٨	٩	الليل
٨٩	١٠	١٠	٩	٩	٩	٩	١٠	الفجر
٩٣	١١	١١	١٠	١٠	١٠	١٠	١١	الضحى
٩٤	١٢	١٢	١١	١١	١١	١١	١٢	الشرح

* ١ - الصفح في العمود لما يسبب سقوط اسم السورة من الترتيب ، أو بسبب أنها فيه مدنية .

٢ - العلق والناس في ترتيب الحازن مدينتان وترتيبها ١٦ و ١٧ .

الإخلاص والسكران وقريش والعصر والماديات والقدر والمطفون والفاتحة مما ورد أنها مدنيات ؛ والجمهور على أنها مع العلق والناس مكيات ؛ وأسلوبها وروحها يلتهان ذلك أيضا .

٣ - الزلزلة والإنسان والرعد والحج مدنيات في أكثر الروايات وجميع الترتيب . وهناك روايات تذكر أنها مكيات ، وأسلوبها ومضامينها وخلاصة الثلاث الأول تشبه الأسلوب المكي أكثر مما تشبه الأسلوب المدني .

٤ - تسمى الجائية بالشرعية ، وفصلت بالمصايح ، وغافر بالمؤمن ، وص بداود ، والسد بأبي لهب ، والنبأ بالتساؤل ، والمعارج بسأل ، والقلم بنون ، والفاتحة بأب الكتاب ، وفاطر باللائكة ، والإسراء ببني إسرائيل ، والنحل بالنعم : تسميات مشهورة ، حتى أن بعض المصاحف تسميها بهذه الأسماء بدلا من أسمائها الأكثر شهرة ؛ هذا بالإضافة إلى أن لبعض السور أسماء أخرى وبعضها أسماء عدة أقل شهرة .

رقم ترتيب سورة	رقم ترتيب المصحف	رقم نزول مصحف نواد	رقم ترتيب الغازن	رقم ترتيب مجمع البيان	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب المسند وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر	اسم السورة
١٠٣	١٣	١٣	١٣	١٢	١٢	١٢	١٢	١١	العصر
١٠٠	٢١	٢١	٢١	٢١	٢١	٢١	٢١	٢١	العاديات
١٠٨	١٥	١٥	١٥	١٥	١٤	١٤	١٤	١٥	الكوثر
١٠٧	١٧	١٧	١٧	٣١	١٦	١٦	١٦	١٧	الماعون
١٠٩	١٨	١٨	١٨	١٤	٢١	١٧	١٧	١٨	الكافرون
١٠٥	١٩	١٩	١٩	١٦	١٨	١٨	١٨	١٩	الفيل
١١٣	٢٠	٢٠	٠	١٧	١٩	١٩	١٩	٢٠	القلق
١١٤	٢١	٢١	٠	١٨	٢٠	٢٠	٢٠	٢١	الناس
١١٢	٢٢	٢٢	٢٠	١٩	٢١	٢١	٢١	٢٢	الإخلاص
٥٣	٢٣	٢٣	٢١	٢٠	٢٢	٢٢	٢٢	٢٣	النجم
٨٠	٢٤	٢٤	٢٢	٢٠	٢٣	٢٣	٢٣	٢٤	عبس
٩٧	٢٥	٢٥	٢٣	٢١	٢٤	٢٤	٢٤	٢٥	القدر
٩١	٢٦	٢٦	٠	٢٢	٢٥	٢٥	٢٥	٢٦	الشمس
٨٥	٢٧	٢٧	٢٤	٢٣	٢٦	٢٦	٢٦	٢٧	البروج
٩٥	٢٨	٢٨	٢٥	٢٤	١٣	٢٦	٢٦	٢٧	التين
١٠٦	٢٩	٢٩	٢٦	٢٥	٢٨	٢٨	٢٨	٢٩	قريش
١٠١	٣٠	٣٠	٢٧	٢٦	٢٩	٢٩	٢٩	٣٠	القارعة
٧٥	٣١	٣١	٢٨	٢٧	٣٠	٣٠	٣٠	٣١	القيامة
١٠٤	٣٢	٣٢	٢٩	٢٨	٣١	٣١	٣١	٣٢	الهمزة
٧٧	٣٣	٣٣	٣٠	٢٩	٣٢	٣٢	٣٢	٣٣	المرسلات
٥٠	٣٤	٣٤	٣١	٣٠	٣٣	٣٣	٣٣	٣٤	ق
٩٠	٣٥	٣٥	٣٢	٣٢	٣٤	٣٤	٣٤	٣٥	البلد

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم نزول مصحف قواد	رقم ترتيب الملائق	رقم ترتيب مجمع البيان	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب اللذين وعكرا	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب طبر
الطارق	٨٦	٣٦	٣٣	٣١	٣٥	٣٥	٣٥	٣٦
القمر	٥٤	٣٧	٣٤	٣٣	٣٦	٣٦	٣٦	٣٧
ص	٣٨	٣٨	٣٥	٣٤	٣٧	٣٧	٣٧	٣٨
الأعراف	٧	٣٩	٣٦	٣٥	٣٨	٠	٣٨	٣٩
الجن	٧٢	٤٠	٣٧	٣٦	٣٩	٣٨	٣٩	٤٠
يس	٣٦	٤١	٣٨	٣٧	٤٠	٣٩	٤٠	٤١
الفرقان	٢٥	٤٢	٣٩	٣٨	٤٣	٤٠	٤١	٤٢
فاطر	٣٥	٤٣	٤٠	٣٩	٤٢	٤١	٤٢	٤٣
سريم	١٩	٤٤	٤١	٤٠	٤١	٠	٤٣	٤٤
طه	٢٠	٤٥	٤٢	٤١	٤٤	٤٢	٤٣	٤٤
الواقعة	٥٦	٤٦	٤٣	٤٢	٤٥	٤٤	٤٥	٤٦
الشعراء	٢٦	٤٧	٤٤	٤٣	٤٦	٤٤	٤٥	٤٦
النمل	٢٧	٤٨	٤٥	٠	٤٧	٤٥	٤٦	٤٧
القصص	٢٨	٤٩	٤٦	٤٥	٤٨	٤٦	٤٧	٤٨
الإسراء	١٧	٥٠	٤٧	٤٦	٤٩	٤٧	٤٨	٤٩
يونس	١٠	٥١	٤٨	٤٧	٥٠	٤٨	٤٩	٥٠
هود	١١	٥٢	٤٩	٤٨	٥١	٤٩	٥٠	٥١
يوسف	١٢	٥٣	٥٠	٤٩	٥٢	٥٠	٥١	٥٢
الحجر	١٥	٥٤	٥١	٥٠	٥٣	٥١	٥٢	٥٣
الأنعام	٦	٥٥	٥٢	٥١	٥٤	٥٢	٥٣	٥٤
الصفات	٣٧	٥٦	٥٣	٥٢	٥٥	٥٣	٥٤	٥٥
لقمان	٣١	٥٧	٥٤	٥٣	٥٥	٥٤	٥٥	٥٦

رقم ترتيب الصحف	رقم نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الغازن	رقم ترتيب جميع البيان	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب المسكين وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جميع ترتيب	اسم السورة
٣٤	٥٨	٥٥	٥٤	٥٧	٥٥	٥٧	٥٨	سبا
٣٩	٥٩	٥٦	٥٥	٥٨	٥٦	٥٨	٥٩	الزمر
٤٠	٦٠	٥٧	٥٦	٥٩	٥٧	٥٩	٦٠	غافر
٤١	٦١	٥٨	٥٧	٦٠	٥٨	٦٠	٦١	فصلت
٤٢	٦٢	٥٩	٥٨	٦١	٥٩	٦١	٦٢	الشورى
٤٣	٦٣	٦٠	٥٩	٦٢	٦٠	٦٢	٦٣	الزخرف
٤٤	٦٤	٦١	٦٠	٦٣	٥٨	٦٣	٦٣	الدخان
٤٥	٦٥	٦٢	٦١	٦٤	٦١	٦٤	٦٤	الجاثية
٤٦	٦٦	٦٣	٦٢	٦٥	٦٢	٦٥	٦٥	الأحقاف
٥١	٦٧	٦٤	٦٣	٦٦	٦٣	٦٦	٦٦	الذاريات
٨٨	٦٨	٦٥	٦٥	٦٧	٦٤	٦٧	٦٧	الفاشية
١٨	٦٩	٦٦	٦٦	٦٨	٦٥	٦٨	٦٨	الكهف
١٦	٧٠	٦٧	٤٤	٦٩	٤٤	٦٩	٧٢	النحل
٧١	٧١	٦٨	٦٧	٧٠	٦٧	٧٠	٧٣	نوح
١٤	٧٢	٦٩	٦٨	٧١	٦٨	٧١	٧١	إبراهيم
٢١	٧٣	٧٠	٦٩	٧٢	٦٩	٧٢	٧١	الأنبياء
٢٣	٧٤	٧١	٧٠	٧٣	٧٠	٧٣	٧٥	المؤمنون
٣٢	٧٥	٧٢	٧١	٧٤	٧١	٧٤	٧٠	السجدة
٥٢	٧٦	٧٢	٧٢	٧٥	٧٢	٧٥	٧٤	الطور
٦٧	٧٧	٧٣	٧٣	٧٦	٧٣	٧٦	٧٦	الملك
٦٩	٧٨	٧٤	٧٤	٧٧	٧٤	٧٧	٧٧	الحاقة
٧٠	٧٩	٧٥	٧٥	٧٨	٧٥	٧٨	٧٨	المعارج

اسم السورة								
رقم ترتيب المصحف	رقم نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب المآذن	رقم ترتيب مجمع البيان	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب المسنين وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر	النبأ
٧٨	٨٠	٧٧	٧٧	٨٠	٧٧	٨٠	٨٠	النازعات
٧٩	٨١	٧٦	٧٦	٧٩	٧٧	٧٩	٧٩	الانفطار
٨٢	٨٢	٧٨	٧٨	٨١	٧٩	٨١	٨١	الانشقاق
٨٤	٨٣	٧٩	٧٩	٨٢	٧٨	٨٢	٨٢	الروم
٣٠	٨٤	٨٠	٠	٨٣	٨٠	٨٣	٨٣	المنكبوت
٢٩	٨٥	٨١	٨٠	٢٤	٨١	٢٤	٢٤	المطفون
٨٣	٨٦	٨٢	٨١	٨٥	٠	٨٥	٨٥	

فصل

في موقف العرب غير الكتائبين من الدعوة

هذا الفصل يتناول أشد أدوار السيرة النبوية قدراً وخطراً ، وأعظم صورها النضالية التي تمثل قوة نضال الحق مع الباطل على قلة أنصار الأول وكثرة أنصار الثاني . ويتألف من المباحث التالية :

- ١ - دور الخطوات الأولى .
- ٢ - موقف زعماء مكة من النبي ودعوته وبواعثه .
- ٣ - مشاهد وصور متنوعة بين النبي والزعماء ؛ بين الشدة والاعتدال .
- ٤ - مشاهد التحدي .
- ٥ - محنة الأذى والفتنة ومشاهدها وتأثيرها .
- ٦ - الأزمات النفسية النبوية .
- ٧ - صور متنوعة للمسلمين في العهد المكي .

المبحث الأول

دور الخطوات الأولى

صورة عامة لهذا الدور - نهى النبي عن الصلاة والدعوة - احتمالات كون التصدي من رجال سلطات مكة ومدى هذا - عدم إطاعة النبي ودلائله - قوة آيات العلق ودلالاتها - آيات سورة القلم ودلالاتها على كثرة المكذبين - طبقة مخادعة من الزعماء منذ البدء - رغبة هذه الطبقة في تبادل التساهل مع النبي - أول مرة ينعت فيها القرآن بأساطير الأولين - تلازم الأغنياء والزعماء في المعارضة وبواعثه - مشهد مناظرة عتمل - نفي المنفعة والطمع عن النبي ودلالة الآيات الواردة في ذلك - دهشة الجاحدين لآيات القرآن ونفذه - مدى أمر النبي بالصبر والهجر الجميل - احتمال صلة الأمر بدار الأرقم - تعليق على رواية سرية الدعوة - أول القول عن القرآن أنه سحر وقول بشر - مواقف أبي لهب وامرأته - تعليق على رواية مشهورة لنزول سورة المسد - أول مواقف الجاحدين في الشك في اتصال النبي بملك الله وظنهم أنه شيطان - ذكر المؤمنين في بعض السور الأولى ودلالاتها - تلخيص لهذا الدور وطابعه وصور عن المسلمين فيه وبواعث إقبالهم على الدعوة ودلالاتها.

الصورة الأولى

وصلنا في الفصل السابق إلى أن مطالع سور العلق والقلم والمزمل والمدثر يصحح أن تكون قد نزلت وحدها ؛ وأنه لا بد أن تكون سور عدة قد نزلت قبل نزول بواقيها ، وأنها قد احتوت مبادئ الدعوة ، وإنذاراً وتبشيراً خاليين من العنف ، وخلت من الإشارة إلى مواقف الجاحدين والحملة عليهم .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الخطوات الأولى للدعوة كانت اتصالاً بالأخصاء ومن توسم النبي صلى الله عليه وسلم فيهم القبول والحجى ، وتلاوة لهذه السور عليهم ودعوتهم . والسور المكية التي خلت من ذكر المكذبين والجاحدين والتنفيد بهم والحملة عليهم قليلة ، وهذا مما يسوغ القول إن الدعوة لم تلبث أن أخذت منذ خطواتها الأولى تصطدم بالإنكار والاستنكار والصد والتكذيب ؛ وإن السور والمجموعات القرآنية

لم تلبث أن أخذت تنزل متلاحقة بوصف مواقف الصادقين والمكذابين والتنديد بهم والجملة عليهم .

وما دام الأمر كذلك فليس ما يمنع أن تكون الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى من أول منازل بعد السور التي نزلت بعد هذه المطالع واقتصرت على الدعوة والإنذار والتبشير كما قلنا ؛ وفي هذه الآيات صور لدفع الخطوة النبوية الأولى ؛ وقرائن على أنها من أوليات القرآن نزولا .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

إن الآيات التي أعقبت مطلع سورة العلق هي هذه :

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ . إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَرْجَاؤُنَا . أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ . أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ... »

١٩ - ٦

فهذه الآيات تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ يصل على شكل جديد ، جهرة على ملا من الناس في فناء الكعبة على الأرجح ؛ وأنه أخذ يدعو بدعوته إلى الله وتقواه بمجانبة الشرك والآثام وعبادة الله وحده واتباع مكارم الأخلاق مما حوته سورة الأعلى ومثيلاتها ؛ وأنه أخذ يقابل بالكذب والانصراف من جهة ، ثم تصدى له من جهة أخرى شخص ينهيه عن صلاته ودعوته ، وتلهم الآيات أن هذا الشخص كان من الزعماء ، أبطره ما كان له من غنى وجاه وأطفاه ، ورأى لنفسه قوة على نهى النبي والتصدي لحرите في الصلاة والدعوة .

وعبارة « ناديه » تعني مجلس القوم ؛ ويمكن أن تكون قد عنت ما عرف في أخبار السيرة بدار الندوة التي كانت في فناء الكعبة ، وكانت مجتمع مشيخة مكة ورجال سلطاتها

الدينية والزمنية على ما ذكرناه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ وإذ أصبح توجيهنا هذا ساغ أن يقال إن السلطات الرسمية في مكة رأت في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم صلاة علينية جديدة ، وفي تلاوته قرآناً فيه دعوة إلى ما يخالف التقاليد الجارية ، وفي دعوته الناس جهاراً إلى دين جديد - بدعة يجب الوقوف أمامها بشكل ما ؛ وأنها عهدت إلى أحد أعضائها بتنفيذ ذلك ؛ أو لعل المتصدي كان أشد حماسة من سائر رجال هذه السلطات فكان هو الذي تولى النهي والصد ووقف الموقف الذي ذكرته الآيات ونددت به .

وقد قيدنا الكلام بتعبير « بشكل ما » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمتنع ، ولم يلاحق بمنع رسمي كان من الجائز أن يستمر . ولعل الحربة الدينية التي كانت مطلقة للناس في البيت الحرام عاكفين وبادين ، والتي كانت تكفلها حرمة البيت الحرام أو التي تقوم عليها هذه الحرمة لما يعود من ورائها من منافع عظيمة على أهل الحرم - هي التي جعلت الأمر يقف عند حد الجدل والحجاج والصد والتكذيب والمناوأة والأذى الشخصي ، أو عند المحاولة التي لم تتبع بملاحقة رسمية حازمة ؛ ولعلنا لا نخطيء إذا قلنا إن هذا لم يقتصر على دور الخطوات الأولى ، بل هو الذي استمر طيلة العهد أو أكثره ، وكان من عوامل انفساح المجال لاستمرار النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وقد قلنا طيلة أكثره ، لأن التآمر على اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم أو حبسه أو نفيه في أواخر العهد واشتراك أكثر زعماء قريش البارزين فيه هو خروج عن هذا الموقف من ناحية ما ، على ما سوف نذكره في مبحث آخر .

على أنه إذا لم يصح توجيهنا ولم يكن « ناديه » دار الندوة ، ولم يكن النهي بأمر رجال السلطات ، ولا من أحدهم - فإن الدلالة قائمة في الآيات - على كل حال - على أن المتصدي من زعماء القوم الأقوياء ذوي الأنصار والمكانة ، وعبارة « فليدع ناديه » أي فليتضامن مع أهل مجلسه أو أنصاره ، تتحمل كلا الاحتمالين .

وظروف الموقف تدل على أنه من أبكر مواقف الصد والنهي والتكذيب إن لم يكن أبكرها ، وروح الآيات ومضمونها يلهمان هذا ، إذ تندد بالمتصدي لنبيه عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى ، وإذ تأمر رسول الله بعدم المبالاة وبلااستمرار في عبادته . ولعل لإكمال سورة العلق - التي كانت آياتها الأولى أول منازل من القرآن - بهذه الآيات دليل على هذا التبكير .

وإذا لاحظنا هذا ولاحظنا أن النبي لم يكن بعد قد آمن به إلا أفراد يعدون على الأصابع ، تبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه ، والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه ، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاغني مما يوحي إليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق ، ثم بما كان من تثبيت القرآن له على دعوته وعبادته وثباته فيهما فعلا ، وتبين لنا - كما قلنا في الفصل السابق في النبي صلى الله عليه وسلم - العظمة الخلقية ، والإيمان العميق ، والجرأة الشديدة في الحق على كل باغ مهما كان قويا عاتيا . ولقد كان هذا دأبه في كل المواقف التالية لهذا الموقف العصيب ، سواء كانت في الخطوات الأولى أو مابعداها . وفي هذا سر من أسرار اصطفاؤه للرسالة العظمى من دون ريب .

والروايات تذكر أن هذا الزعيم هو الغيرة بن هشام الخزومي ، الذي عرف في تاريخ الإسلام بأبي جهل بعد أن كان أبا الحكم ؛ ونحن لا نستبعد ذلك ، فنز عظيم من عطاء قريش بهذا اللقب لا بد أن يكون لسبب قوي ، وأولية التصدي للنبي ونهيه عن الصلاة والدعوة هي سبب قوي من دون ريب ، وازداد هذا قوة باستمرار أبي جهل في موقفه الشديد العنيف الباغي من الدعوة إلى أن هلك في غزوة بدر الكبرى .

وهذا المشهد يدل على أن الدعوة بدأت علنية وبقوة . خلافا لما روي من أنها بدأت سرية . وهذا مؤيد بالمشاهد المماثلة التي ظلت تحكى في السور العديدة المبكرة في النزول مثل القلم والمزمل والمدثر والمعون والكافرون . وكل ما يمكن أن يقال إزاء ماورد في

الرويات التي تروى أقوال بعض أصحاب رسول الله^(١) مثل ما روى عن عمر في قصة إسلامه حيث سأل (أنحن على حق أم باطل فقال له رسول الله بل على حق . فقال فقيم التخفي إذن) وماروي عن ابن مسعود أنه قال (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . ولقد رأينا وما نستطيع أن نصلي بالكعبة ظاهرين آمنين حتى أسلم عمر) أن النبي صلى الله عليه وسلم حماية لأصحابه كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم . غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرة . وهذا هو المعقول المنسق مع هدف الدعوة وإيمان النبي بالله ورسالته .

الصورة الثالثة

والآيات التي أعقبت مطلع سورة القلم هي هذه :

« فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمْ الْمَعْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَذُؤْأَوْ تَذْهِنُ فَيَذْهِنُونَ . وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عَقَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ... (٢)

١٦ - ٥

والآيات تحتوي مشاهد من السيرة النبوية نرجح أنها من مشاهدتها الأولى . وترجيحنا قائم أولاً على أن هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة صارت تنمة سورة مطلعها من أوليات القرآن نزولاً على الراجح ، وثانياً على سين الاستقبال التي بدت بها الآية الأولى ، واستشهاد الله على الضال من المهتدي ، وثالثاً على ما جاء في آخر السورة من تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتصويره ودعوته إلى عدم الضيق بتكذيب قومه كما فعل صاحب الحوت ، إذ جاء فيها :

(١) انظر مثلاً السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٠ وبعدها .

(٢) المعتون : الضال أو المتحرف إلى دين آخر . تذهن : تلاين . همّاز : عياب : عتل : جاف غليظ .

زويم : دعى . سنسمه : سنضع عليه سمة بالكسبي على عادة العرب بوسم إبلهم . الخرطوم : هو للقبيل ، واستعبر لعم الذي قال عن القرآن أساطير الأولين .

« فَأُضِرَّ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ .
لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ ... »

٥٠ - ٤٨

أما المشاهد التي احتوتها الآيات فهي :

١ - إلهامها أن المكذبين قد كثروا . وأنهم صاروا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم وينتقدونه لا منحرفه أو ضلاله عن دين آبائه محاولين رده عن ذلك .

٢ - إن المتصددين له هذه المرة لم يكونوا غلاظاً شديدين بالنهي والنقد ، بل تظاهروا بالرغبة في الملاينة ، وودوا منه اللين والوعد منه بالتفاهم على أمر وسط ؛ فيتنازل عن بعض موقفه ويتنازلون هم عن بعض موقفهم .

٣ - إن منهم من كان يقسم الأيمان للنبي على ما كان يقوله أو يعرضه حتى ينسأهل ويلين .

٤ - إن الموقف لم ينته إلى تفاهم وتوافق ، وإن الحلاف الذي تظاهر بالاعتدال كان في الحقيقة يعيب النبي صلى الله عليه وسلم ويكذب عليه ويصد عنه الناس ويسعى بالنميمة بينه وبينهم ، وإنه لم يلبث أن جاهر بطويته فوصف آيات القرآن بأنها أساطير الأولين ، أي أنها قصص الأولين المتداولة أو الخرافية أو أنها مقتبسات عنها على ما تحتمله هذه الجملة . وهذه أول مرة نعت القرآن هذا النعت الذي تكرر من قبل الكفار مراراً بعد ذلك .

٥ - إن هذا الحلاف التمام كان غنيا قويا بأبنائه وأنصاره .

وتعبير « حلاف مهين » يمكن أن يلهم أن هذا الحلاف كان يحلف للناس بكذب النبي ، أو كان يحلف للنبي صلى الله عليه وسلم باستعداده لمجاراته على حين كان يضمرك التكذيب والصد : وقد رجحنا الشق الثاني استلهاماً من جملة « فلا تطع » التي نرجح

أنها تعني « لا تصدق » أو « لا تسمع » أو « لا تقبل » ثم من الحملة الشديدة التي تبعت الآية ، والتي نعتت الخلاف بنعوت تدل على ما كان عليه من سوء النية وخبث الطوية ، وما يضر من الكذب والخداع وتأليب الناس على النبي بالنميمة والوقية .

والآيات وإن دلت في أولها على كثرة المكذبين والمحاجين فإن النعوت المتتابعة فيها تدل على شخص بعينه . ولسنا نرى في هذا تناقضاً ؛ إذ من الممكن أن يكون المحاجون جمعاً وأن يكون أحدهم أشد لؤماً وكيداً ومكراً ، أو أن تكون الآيات قد احتوت حكاية مواقف متنوعة في ظرف واحد .

وهكذا تبدو في هذه المشاهد صورة غير الصورة التي تلهما آيات العلق كما هو واضح ؛ كما يبدو أن من الذين تصدوا للنبي صلى الله عليه وسلم في أول خطواته من كان عنيفاً شديداً ومن كان مدهاناً مخادعاً . ولقد ظلت هاتان الصورتان تتكرران طيلة العهد المسكي بأشكال متنوعة على ما أشرنا إليه من قبل . ويبدو كذلك أن الزعماء والأغنياء قد تلازموا في مواقف الصد والتكذيب ، وتضامنوا في قيادة حملتهما ؛ وهذا أيضاً من المشاهد التي ظلت تتكرر طيلة هذا العهد .

ولقد يخطر بالبال أن من طبيعة المجتمع العربي إذ ذاك أن يجتمع الفني والزعامة في شخص واحد ، غير أن الحملات القرآنية تختص حيناً الأغنياء وحيناً الزعماء ، مما يحتمل أن يكونا صنفين كما يلمح في آيات سورتي العلق والقلم نفسها وفي كثير غيرها ، وأنهما تضامناً معاً ، الأولون خشية على ثروتهم والآخرون خشية على مراكزهم ؛ لأن الدعوة الإسلامية نددت بالأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة الطبقات المعوزة وحشت على الإنفاق كثيراً ، كما أنها حاربت الزعامة الطاغية الباغية المعتزة بالقوة والتكبر عن الحق .

وتنبه على أن طلب الكفار الملاينة من النبي صلى الله عليه وسلم مقابل وعد منهم بمثل ذلك حتى يتم التقارب والتفاهم على أمر وسط الذي تضمنت حكايته الآية (٨) قد

تكرر في ظروف أخرى وبأساليب أخرى مما سوف نعود إليه في مناسبة ثانية .

الصورة الرابعة

وفي آيات سورة القلم الأخرى مشاهد أخرى جديدة بالتنويه أيضا .

(١) ففيها ما يلهم أنه مشهد مناظرة أو تنديد في مقام مناظرة ؛ إذ احتوت

الآيات التالية :

« أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْيِرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ . سَلَّمْتُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ... »

٣٥ - ٤١

وهذا الأسلوب متكرر كثيراً في القرآن المكي . والذي يخطر بالبال في صدره أنه إما أن يكون تقييماً أو تعليقاً على موقف جدل ومحاجة بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار ، وإما أن يكون على سبيل تلقين الحجة المفحمة في مواقف الجدل والحجاج .

تكراره كثيراً يلهم أن النبي كثيراً ما كان يشتبك مع بعض الجاحدين بالجدل والمحاجة التي تنطوي من ناحية على التنديد والتبكيك والتحدي ، وتجري من ناحية أخرى على طريقة منطقية يوجه الكلام فيها إلى العقل دون أن يكون فيها شدة أو مهارة ؛ وهذا مما يؤيد ما قلناه آنفاً من تنوع طبيعة الجاحدين بين الشدة واللين والغلظة والمداهنة ، ومن أن هاتين الصورتين بدأتا منذ الخطوات الأولى واستمرتتا متلازمتين .

(٢) وفيها سؤال إنكاري عما يمكن أن يكون للنبي من نفع يلتمسه من وراء دعوته

أو من مطمح يسمى إليه ، كما ترى في الآية التالية :

« أَمْ تَسْتَلْهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ... »

٤٦

وإذ كان السؤال من قبيل الإنكار أو الاستنكار فإن الآية تنفي طلب الأجر ، وتنكر على الجاحدين موقفهم ، فالنبي لا يطلب أجرا ولا جملا حتى يروا فيما يدعوا إليه كلفة وغرامة . ولقد تكرر هذا كثيرا في القرآن المكي بأساليب متنوعة ؛ ومع أنه لم يرد في أي مرة في صدد نفي تهمة موجهة إلى النبي أو بصورة رد على تهمة ؛ فإن تكراره قد يلهم أن من الزعماء والأغنياء من ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم يسعى وراء مطمع خاص ، أو رأى أن في دعوته ما يهدد مرا كزهم و ثرواتهم ؛ ولعل هذا من أسباب التجهم للدعوة منذ بدئها ، ولعل ذكر القرآن للزكاة ودعوته إلى التصدق ومساعدة المعوزين ومراعاة حق اليتيم والبر به وفك الرقاب ، ونعيه على الناس البخل وحب المال والانهماك في الدنيا وإيثارها على ما عند الله ، في السور المبكرة جدا التي احتوت مبادئ الدعوة والإنذار والتبشير بصورة عامة كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ...

الأعلى ١٦ - ١٧

٢ - كَلَّا بَلْ لَأُنْكُرُمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ .
وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ... الفجر ١٧ - ٢٠

٣ - فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَدِيًّا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ... البلد ١١ - ١٦

٤ - فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ . إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ . فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ .
وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ...

الليل ٥ - ٢١

... قد جعل زعماء الكفار وأغنياؤهم ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الطمع في أموالهم أو التآمر على ثرواتهم منذ الخطوات الأولى ، فنفي القرآن في آياته المبكرة ذلك عنه شخصياً ، ثم ظل ينفيه من آن لآخر أيضاً .

(٣) وفيها صورة لحالة الكفار النفسية ظاهرها وباطنها حينما كان يتلو النبي صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن وينذرهم ويشرهم به كما ترى في الآيات التالية :

« وَإِنْ يَسْكَدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ... »^(١)

القلم ٥١ - ٥٢

ووصف هذا الموقف قد تكرر كثيرا في القرآن المكي . ووروده في آيات سورة القلم يلهم أنه كان منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ وصيغة الآية (٥١) قوية الدلالة على أن الكفار ! يكونوا يقصدون نعت النبي بالجنون المرضي ، بل يقصدون بيان دهشهم مما كان يتلوه عليهم ، حيث أرادت الآية أن تقول إنهم كانوا يحملون في وجهه وتكاد عيونهم تأكله عجباً ودهشة لما سمعوه من آيات القرآن .

وهذا الوصف أثر من آثار الدعوة في جمهور الناس ، ويبدو أن الزعماء قد استفلوه أعظم استفلال في حملة الصد والتكذيب التي تولوا كبرها ؛ كما تدل على ذلك آيات كثيرة هذا مثال منها :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ... »

سبا ٧ - ٨

وواضح أن جملة « الذين كفروا » تعني الزعماء إذ كانوا يقولون للناس الكلام الذي جاء بعد الجملة على سبيل الدعاية والصد . ومن هذا القبيل آية أخرى في السورة نفسها وهي هذه :

(١) « الذكر » الأول كناية عن القرآن وقد تكرر مراراً بهذا المعنى ، والثاني : بمعنى التذكير والتذكير وقد تكرر مراراً أيضاً .

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّا عَشَرْتُمْ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... »

٤٣

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

ومن الآيات التي أعقبت مطلع سورة المزمل الآيتان التاليتان :

« وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ
وَمَهْلِكُهُمْ قَلِيلًا ... »

١٠ - ١١

وفي الآيتين أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على تكذيب المكذبين وأقوالهم ،
وبهجرهم هجرا جميلا أي لا قطيعة فيه ولا شدة ، وبوكالة أمر هؤلاء المفرورين بما تيسر
لهم من الجاه والنعمة إلى الله ، وبتوعدهم بأن نتائج موقفهم تقع عليهم في أجل قريب ؛
والآية الثانية واضحة الدلالة على أن المكذبين من الزعماء ذوي الجاه والثراء ؛ وهذا مما
سبق من المشاهد ومما تكرر فيما بعد .

وقد احتوت الآيتان تثبيتاً وطمأنة للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف الذي
أخذ يلقاه مكرراً في خطواته الأولى ؛ وهذا كذلك استمرار لما سبق من تلقينات
لتثبيته وطمأنينته كانت من دون ريب من عوامل ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في مهمته
وتعبير « الهجر الجميل » ذو مغزى خطير ؛ فهو متنسق مع طبيعة مهمة النبي من عدم قطع
الحبل قطعا باتاً بينه وبين الزعماء الجاحدين الذين في يدهم زمام الناس مهما كانوا
وكذبوا ، وبينه وبين جمهور الناس عامة الذين لم يكونوا قد استجابوا إلى الدعوة ، ومتسق
كذلك مع ماتمليه ظروف الخطوات الأولى ، إذ تملئ أن يلائم صاحب الدعوة بين الظروف
المتباينة ، فلا يعنف ولا يقسو من جهة ، ولا يتعرض هو وأصحابه للمكروه دون ما ضرورة
من جهة أخرى .

ولقد تواترت الروايات^(١) على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ له مركزاً سريراً أو بالأحرى منعزلاً ، وهو « دار الأرقم » يجتمع فيه هو وأصحابه ، يقيمون الصلاة ويتدارسون القرآن ، ويتلقون عن النبي صلى الله عليه وسلم تعاليم الدين والأخلاق ، كما أثر عنه أحاديث يدعو فيها ربه أن يعز الإسلام ببعض الأقوياء ، وأن هذا الحال دام نحو ثلاث سنين من أوائل العهد المكي إلى أن أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما وغيرهما من الأقوياء المعروفين ، فليس بعيداً أن تكون هذه الآية قد لقت النبي صلى الله عليه وسلم هذا التصرف المروي أو ما يقرب منه ، حينما أخذ يلقي التكذيب والمناوأة ، وأخذ الطغاة من الجاحدين يتعرضون لضعفاء المسلمين بالأذى على ما سوف نذكره بعد .

ولقد روي فيما روي أن الدعوة بدأت سرية إلى أن قوي الإسلام ، ونزلت آيات الحجر .

« فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ . . . »

٩٤ - ٩٥

ونحن لا نسلم بهذا ؛ استلهاماً من آيات العلق التي تذكر أن زعيماً نهى النبي عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى ، أي الدعوة ، ومن آيات القلم التي تذكر أن الكافرين كانوا يكادون يلتمسون النبي بعيونهم حينما سمعوا القرآن ويقولون إنه لجنون ، ويودون لو لاينهم ليلاينوه ، ويقولون إن ما يتلوه هو أساطير الأولين ؛ ومن آيات المزمل هذه التي تذكر المكذبين وتهدهم ، ومن آيات المدثر وغيرها وغيرها مما هو مجمع على نزوله مبكراً ، واحتوى حكاية مواقف الكفار وجدلهم وتكذيبهم . والوجه الحق فيما نرى هو أن الدعوة بدأت علنية وجهاراً ، وكل ما يمكن أن يكون مما تلهم آية المزمل (١٠) هذه أن النبي تجنب - بتلقينها وياملاء الظروف - المعاندين والطفاة مؤقتاً مع عدم قطع

(١) انظر تفسير الآية (٩٤) من سورة الحجر في تفسير ابن كثير والطبري .

الحبل ومجانبة الشدة في خطابهم ، وأنه قصر دعوته مؤقتاً على من كان يتوسم فيهم الخير والاستجابة ، ولا يرى فيهم الغلظة والقسوة والعنف في الصد والتكذيب ، كما أن من الممكن أن يكون قد تجنب إقامة الصلاة جماعة وتلاوة القرآن جهرًا على ملأ من الناس ، وفي فناء الكعبة خاصة رعاية لأصحابه الضعفاء ، وأن يكون قد اتخذ دار الأرقم مكان اجتماع وصلاة خاصا ؛ وقد وصفنا المكان بالمنزل لا بأنه سري ؛ لأننا لا نرى من المقول أن يكون مكان الاجتماع والصلاة هذا سريا في بلد كمكة في ذلك العهد ، وقد كان يؤمه عدد مهما قل فإنه يبلغ العشرات ، وكان مركز اجتماع شخص أثار دهشة الزعماء والجمهور وبعث في نفوسهم الحيرة والاضطراب - مع أصحابه الذين تابعوه . وإذا كان قد تسنى لهم الاستمرار في أمرهم مدة غير قصيرة - ثلاث سنوات مثلا - فالراجح أن هذا عائد إلى أن فكرة مطاردة النبي صلى الله عليه وسلم ومنع حرите بالقوة لم تكن مما اتفق عليه الزعماء ، فلما اعتزلهم وتحفظ في دعوته وصلاته واجتماعاته لم يكن منهم إلا مجارة الحالة والسكوت عليها .

الصَّوْرَةُ السَّادِسَةُ

ومن الآيات التي أعقبت مطلع سورة المدثر الآيات التالية :

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيْدِنَا عَنِيدًا . سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَكَانَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ... »

وقد احتوت الآيات مشهداً آخر من مشاهد المكذبين ومواقفهم ، اختلفت فيه الصورة شكلا عن سابقتها مع اتفاقهما في المدى . وما دامت الآيات من تنمة لسورة مطلعها من أوليات القرآن : فقد صح أن يقال إن المشهد من المشاهد المبكرة أيضاً وأنه أثر من

آثار الخطوات الأولى للدعوة في الذين اتصل بهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم وتلا عليهم القرآن؛ وروح الآيات تلهم هذا، كما يساعد على ترجيحه تقارب الصور والمشاهد المكينة في السور السابقة .

والصورة كما هي واضحة، صورة غني ذي بنين وجاه اتصل به النبي ودعاه وتلا عليه القرآن؛ فكان منه الموقف الذي وصفته الآيات أقوى وصف منددة مقرعة، والذي انتهى به إلى القول بأن ما سمعه هو قول بشر لا وحي رباني، وأن ما يبشر به النبي صلى الله عليه وسلم ليس إلا من نوع السحر للأثور الذي يخيل للمرء مالا حقيقة له .

وفي أواخر السورة جاءت الآيات التالية :

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ .

بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ...

٥٢ - ٤٩

فاحتوت صورة طريفة وقوية لموقف من مواقف الجاحدين من الدعوة النبوية وأثرها فيهم، فهم معرضون عن سماع الإنذار والدعوة إعراضاً كأنما يرون فيهما خطراً، وهم في هذا أشبه بقطع من الحجر الوحشية رأت سبعا فامتلات فزعاً وفرت لا تلوي على شيء... وقد احتوت الآية الأخيرة صورة أخرى فيها تحد تعجيزي للجاحدين، إذ كانوا يقولون: إنا لا نصدق ما لم تنزل على كل منا صحف مكتوبة من السماء مؤيدة له؛ وقد تكررت حكاية هذا التحدي أكثر من مرة مما يدل على أنه كان يتكرر من الجاحدين حيناً بعد حين. وسنعود إلى الموضوع مرة أخرى في مناسبة ثانية. لخطورته في مدى الرسالة المحمدية .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

ومن السور المجمع على تبكيها بالنزول سورة المسد، وقد جاءت الخامسة في أكثر التراتيب: وإذا كنا استبعدنا هذا في الفصل السابق - مبحث أوليات الوحي - فلنا نستبعد أن تكون من السور المبكرة جداً، وكل ما عنيناه أن يكون قد نزل قبلها وقبل

بواقي السور الأربع الأولى سور عدة في الدعوة وأهدافها . وهناك روايات معقولة تجعل احتمال نزولها مبكرة جداً ، مرجحاً .

ونص السورة هو هذا :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ »

ويكاد يكون من المجمع عليه أن أباهب هو عم النبي صلى الله عليه وسلم وأن اسمه هو « عبد العزى » وأن امرأته هي أم جميل أخت أبي سفيان الزعيم الأموي المشهور . ولسنا ندرى هل الكنية قرآنية إسلامية على سبيل التحقير ؟ أم أنها سابقة للسورة أو سابقة للبعثة ولقب نبزي ، وإن كنا نرجح الأمر الأول .

ومما يروى أن أباهب كان يمشي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فكلما حدث النبي أحداً أتى إليه فقال له : لا تصدقه فإن فيه مسأ ، أي جنوناً وأن أم جميل كانت تضع الأقدار في طريق النبي وأمام بيته الذي كان مجاوراً لبيت عمه ، وأنها كانت تشيع عنه الإشاعات المثيرة . وقد ذكرنا في مبحث أثر الوحي في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أنها أبدت شمتها حينما علمت بخبر فتور الوحي وأخذت تقول هازئة : إن ربه قد قلاه .

وآيات السورة شديدة قاصمة ، ولا بد أن يكون أبو لهب وامرأته قد استحقا بعمل أو موقف ما هذه اللعنة القرآنية الخالدة التي لم تسجل فيه لأحد بعينه دونهما .

ومن الغريب أن أكثر الرواة والفسرين ، بل نكاد نقول جميعهم ، رووا وقالوا : إن هذه السورة نزلت بمناسبة قول أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم « تَبًّا لَكَ ! أَلْهَذَا دَعْوَتَنَا ؟ » وذلك حينما نزلت آية الشعراء « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » وجمع النبي بني هاشم ودعاهم وأنذرهم على ماسوف نذ كره بعد ؛ هذا مع أن هذه الآية من سورة غير مبكرة ، وقد قال الرواة : إنها نزلت بعد ثلاث سنين من البعثة ، ومع أنهم قالوا : إن سورة المسد من أبكر ما نزل من القرآن ، ومع أن ذلك القول معزى إلى أبي لهب

والسورة قد جمعت امرأته معه ، وهذا ما يحملنا نتوقف في الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة .

ولقد ذكرت الروايات أن الصلات بين النبي صلى الله عليه وسلم وعمه قبل البعثة كانت حسنة ، وأن بيتيهما كانا متجاورين ، وأن ابنتي النبي كانتا مخطوبتين لابني عمه هذا ، وأن أبا لهب وامرأته قد حملا ولديهما على فسخ الخطبة بعد قيام النبي بدعوته ، فالذي يرد على البال وينسجم مع تبكير نزول السورة ومضمونها ومع هذه الروايات هو أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل بعمه في أول من اتصل بهم بعد نبوته ، ودعاه وأهله في أول من دعا ؛ بل لعله كان أول من اتصل به ودعاه بعد السيدة خديجة ، فهو عمه وجار بيته وصهره ، ولعله كان يكثر من التردد عليه وقد انعقدت بينهما مودة وعدم كلفة ، ومن المعقول أن يفتح قبل كل إنسان من غير أهل بيته وأن يفضي إليه بأمره وأن يطلب منه التصديق والتأييد وهو واثق كل الثقة بمقابلته بالحسنى والإجابة والاستبشار ، وبأنه واجد فيه العضد القوي والسند المتين ، لا سيما أنه كان طائل الثروة كما تصفه السورة ؛ ولكنه لم يلبث أن خاب أمه فقبول أسوأ مقابلة ، وكان من عمه وامرأته أشد موقف من الأذى والعناد والتعطيل وقطيعة الرحم ، وعمومة أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم مما يزيد في أثر موقفه منه سوءاً وشدّة ، فوقف العم أشدّ من موقف الغريب البعيد في نفس النبي ، وتأثيره في سير الدعوة وعرقلتها أقوى من موقف الغريب البعيد كذلك في الناس لأنه يقوي حججهم إذا هم انصرفوا عن إجابة الدعوة ووقفوا منها موقف المناوأة والعناد .

وانعت امرأة أبي لهب بجمالة الحطب تلهم - عندنا - أنها كانت تزيد نار المعارضة لهيباً ، ولعل هذا يعني أنها كانت تنفخ روح العداوة في زوجها كلما رأت منه جنوحاً إلى التروي والفتور ، بسبب ما كان يربطه بالنبي صلى الله عليه وسلم من روابط العصبية وتقاليدها ، وليس بعيداً أن يكون تأثيرها عاملاً في شذوذ هذا العم عن سائر أفراد عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم الأقربين الذين كانوا ينصرونه ويحمونه اندفاعاً بقوة العصبية بالرغم من أن أكثرهم أو بالأحرى جلهم لم يكونوا قد استجابوا إلى دعوته ، بل ظلوا كذلك

أمدأ طويلاً . وإذا صحت رواية أن أم جميل هي أخت أبي سفيان - ولم يرد ما يشكك في ذلك فيما اطلعنا عليه - فلا يبعد أن يكون موقفها متأثراً بموقف أخيها الذي كان من أبرز الزعماء وذوي الشأن في قريش ، والذي كان لعائلته المكانة البارزة ، وظل يناويء الدعوة طيلة العهد المكي وأكثر العهد المدني ، أي إلى فتح مكة ، مناوأة عنيفة ، ويقود أحياناً ويجهز أحياناً الجيوش التي كانت تشتبك مع المسلمين أو تغزو المدينة دار الهجرة النبوية .

وبناء على هذا التوجه الذي نرجو أن يكون وجيهاً يصح أن يقال إن سورة المسد تطوي على الإشارة إلى مشهد من مشاهد الخطوات المبكرة الأولى ، وإلى موقف أليم شديد غير منتظر من مواقفها وكان له أثر عظيم في سيرها .

الصورة الثامنة

وسورة التكوير هي كذلك من السور المجمع على تكبيرها في النزول ؛ إذ كان ترتيبها السابعة في رواية والسادسة في أخرى . ونقول هنا ما قلناه في سورة المسد آنفاً ، فإن ترجيحنا نزول سور أخرى قبلها لا يعني عدم نزولها مبكرة ؛ على أن مضمونها يلهم بقوة أنها نزلت مبكرة جداً .

والسورة احتوت موضوعين مختلفين بعض الاختلاف : الأول الإنذار باليوم الآخر ومشاهده . والثاني وحي الله وملك الوحي وتوكيد رؤية النبي له وإلقائه القرآن إليه . وهذه هي آيات الموضوع الأول منهما ، أما آيات الموضوع الثاني فقد أوردناها في مبحث الوحي وأوليياته من الفصل الأول :

« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا الْمِيسَارُ عُطِّلَتْ . وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ . وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ . وَإِذَا

السَّمَاءَ كَشِطَتْ . وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ . عَلِمْتَ نَفْسُ
مَا أَحْضَرْتَ ...

١٤ - ١

وآيات الموضوع الأول إنذار عام لا عنف فيه ، وهذه الصفة التي رجحناها للأوليات القرآنية ؛ وآيات الموضوع الثاني هي التي تتصل بالبحث الذي نحن في صده ، وتلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أخذ يخطو خطواته الأولى في سبيل الدعوة ، ويروي قصة رؤيته ملك الله ، ويؤكد تلقيه القرآن عنه ، قوبل بالشك والارتباب من اتصل بهم ودعاهم وذكر لهم أمره ، وأن بعضهم ظن الذي رآه واتصل به وألقى إليه هو شيطان من الجن على ما كان العرب يعتقدون باتصال شياطين الجن بالسحرة والكهان والشعراء وبصعودهم إلى السماء واستراق السمع منها على ما ذكرناه في كتابنا الأنف الذكر ، فنزلت الآيات تؤكد صحة ما أخبر به ورواه بهذا الأسلوب القوي النافذ . أما تعبير « وما صاحبكم بمجنون » فالذي تلهمه الآيات أنه تدعيم للتوكيد ، وتنبيه للقائلين إلى حقيقة ما يعرفونه عن النبي عليه السلام ورجاحة عقله .

واجتماع آيات الموضوعين في سورة قصيرة ، وما يلهمه طابع آيات الموضوع الأول من كونها من أوليات القرآن نزولا ، يدل على تكبير حدوث هذا المشهد ، لا سيما أن آيات الموضوع الثاني تلهم أنها في صدد موقف الجاحدين من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى ملك الله في الأفق ، وهي الرؤية التي كانت عقب اتصال الوحي به في غار حراء لأول مرة . والجديد في المشهد هو ما تلهم الآيات من ظن السامعين أن الذي اتصل بالنبي شيطان ، في حين أن الصور السابقة تضمنت قولهم : إن القرآن قول بشر ، وإنه أساطير الأولين ، وإنه من نوع السحر وآثاره الماثورة ، وأشارت إلى تكذيبهم ومخادعتهم وتأليبهم ونهيبهم النبي عن الصلاة والدعوة .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

والسور التي استعرضنا بعض آياتها - وإن كانت على الأغلب في صدد حكاية مواقف الجاحدين والمكذبين - يتضمن بعضها ذكرا للمؤمنين والمتقين والمسلمين وأصحاب اليمين؛ كما ترى في الآيات التالية منها :

١ - إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ . أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ...
القلم ٣٤ - ٣٦

٢ - وَمَا جَعَلْنَا أَضْحَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ...
المدثر ٣١

٣ - إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَأَلَكُمْ فِي سَقَرٍ ...
المدثر ٣٩ - ٤٢

وهذا يعني كما هو المتبادر أن الدعوة في هذا الدور لم تقابل بالصد البات الشامل . بل لأنها استجيبت وآمن بها أناس ، وقام إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبقة من المؤمنين مقابل ما قام في وجهه من طبقة الكافرين ، وإن كان يعني أن الطبقة الثانية هي الأكثر والأقوى ، إذ شغل الحديث عنها جل آيات السور في حين لم يرد عن الأولى إلا إشارات استطرادية كالتي مرقلها . على أنه يصح أن يدخل في نطاق الإشارات أيضاً آيات أخرى في سور مبكرة جدا في النزول مثل :

١ - يَسْأَلُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . أُرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي . وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ...
الفجر ٢٧ - ٣٠

٢ — وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ...
سورة العصر

٣ - آيات سورة الليل ٤ - ٢١ التي نقلناها في مناسبة قريبة سابقة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا مؤيد بما روته الروايات اليقينية من إيمان فريق من
الناس في دور الخطوات الأولى ، فيهم طبقة من بيوتات قريش المعروفة أمثال أبي بكر
وعثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وأبي عبيدة وعبد الرحمن وأبي سلمة بالإضافة إلى
خديجة وعليّ وجعفر ابني عمه وزيد متبناه ، وفاطمة بنت الخطاب وعبد الله بن مسعود ،
وبالإضافة إلى بعض الكتابيين أمثال سلمان وصهيب ، والأرقاء أمثال ياسر وزوجته وابنه
عمار وبلال وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، من السابقين الأولين الذين كان جلهم من
عمد الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده .

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

هذا ونرى فيما عرضناه من مشاهد هذا الدور كفاية ، كما أن الدعوة بعدها خرجت من
دور الخطوات الأولى أيضاً .

وإذا كان لنا أن نلخص مشاهد هذا الدور أو نرسم له صورة عامة فإننا نقول : إنه
من ناحية ما يصح أن يطلق عليه دور الأشخاص ؛ فأول من تصدّى للنبي صلى الله عليه وسلم
وحاول منعه من الصلاة والدعوة شخص معين ، كما أن آيات سورة القلم والمدثر والمسد قد
حكّت على الأكثر مواقف أشخاص ؛ هذا أولاً ، وثانياً إن الأشخاص الذين حكّت آيات
هذه السور مواقفهم المضادة هم من ذوي الثروة والزعامة .

ويبدو من هذا وذاك ما يصح أن يكون طبيعياً من أن النبي قد بدأ اتصالاته
بالأشخاص الذين توسم فيهم الإجابة بصورة عامة ، ومن ذوي الثروة والزعامة من
هذه الطبقة بصورة خاصة ، على أمل أن يضمن النجاح في ميدانهم ، النجاح في الميادين العامة
أو الجمهورية .

ومن الجدير بالذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحب في هذا الميدان وإن كان نجاحه فيه ضيق المدى ، حيث استجاب له بعض أبناء البيوتات الرفيعة ، وكان من بينهم من هو غني كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم ؛ ولقد ظل هذا الضيق طابع العهد المسكي بطوله ، حيث ظل أكثر الزعماء والأغنياء في جانب المعارضة والجحود .

وطبيعى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر في خطواته الأولى على الاتصال بذوي الزعامة والثراء . وروايات السيرة تذكر بدون خلاف أسماء كثيرة من أرقاء وفقراء وغير ذوي عصبية ؛ غير أنه يلاحظ أن النبي قد صرف أكبر همه وجهده إلى تلك الطبقة على ذلك الأمل الذي أشرنا إليه : ولعل في آيات سورة عبس الأولى ، والسورة من السور المبكرة في النزول ، ما يمكن أن يعد دليلا على هذا كما يبدو من نصها التالي :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزِغُكَ . أَوْ يَدَّكُرُ . فَتَنَفَعَهُ الْذُّكْرَى . أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى . فَأَن تَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ بَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَن تَ عَنْهُ تَلَهَّى »

١٠ - ١

والآيات تتضمن في حد ذاتها صوراً ومبادئ متصلة بالسيرة النبوية على جانب عظيم من الدلالة والمدى .

فن ناحية تؤيد ما قلناه من اهتمام النبي «صلم» وجهده لجذب طبقة الزعماء والأغنياء إلى دعوته من حيث إن ذلك ليسر لها الاستجابة العامة حتى إن حرصه على ذلك جعله يمس في وجه الأعمى الذي جاءه مسترشداً مستهدياً .

ومن ناحية تفيد أن الزعيم الغني الذي تصدى له النبي «صلم» وانهمك معه في الحديث والإقناع لم يكن من العنيفين بمنأوتهم وتكذيبهم .

ومن ناحية تفيد أن الرغبة الشديدة في الاستفادة والاستنارة والاسترشاد والتفقه

كانت من دوافع الطبقة التي آمنت بالنبي «صلم» إلى الاستجابة إلى دعوته والانضواء إلى لوائه .

ومن ناحية تضمنت عتاباً للنبي «صلم» على عبوسه في وجه الأعمى ينطوي فيه تلقين سلوكي رائع تجاه الذين انضوا إليه من هذه الطبقة بذلك الدافع ، وإيجاب الاهتمام لهم والعناية بهم ، وترجيحهم على الذين يترفعون عن الحق والدعوة إليه ويظهرون الغرور والاستغناء مهما علت مراكزهم . ولقد أعقب هذه الآيات الآيتان التاليتان :

« كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ... » ١١ - ١٢

اللتان تضمنتا كما هو المتبادر توكيداً لذلك التلقين بأسلوب إبعازي وتقريري بأن دعوة النبي للناس إنما هي لتذكيرهم وبأنه ليس مكلفاً بالإلحاح عليهم إلى الدرجة التي تجعله يقف من المؤمنين الطالبين للاسترشاد والتفقه موقف العبوس والإهمال .

وفي سورتي الأنعام والكهف آيات تكررت فيها هذه التلقينات والصور في مناسبة حكاية مواقف أخرى لبعض الزعماء والأغنياء مما يدل على أن شدة الاهتمام لجذب الأغنياء والزعماء ظلت تعمل في نفس النبي صلوات الله عليه . حيث جاء في السورة الأولى هذه الآيات .

« وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَاٰلِيٓ
وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ مَاعَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمِمَّنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ
فَتَكُونَنَّ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ... » الأنعام ٥١ - ٥٣

وحيث جاء في السورة الثانية هذه الآيات :

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنَّا مِنْ أَعْمَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعِ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . وَقُلِ اَلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ
فَلْيُكْفُرْ ... الخ

الكهف ٢٨ - ٢٩

ولقد روي في صدد الآيات أن بعض الزعماء طلبوا من النبي «صلم» أن يطرد الفقراء
والمساكين من مجلسه إذا دعاهم إليه أو أرادوا أن يجلسوا معه .

وفي آيات الأنعام ما يفيد صحة الرواية ويقيد بالإضافة إلى ذلك شدة استخفاف الزعماء
بالمؤمنين من هذه الطبقة حيث كانوا يتساءلون تساؤل الساخر المستهزئ عما إذا كان الله
اختص هؤلاء من دونهم بالهداية . . . والجملة التي تضمنت هذا التساؤل قد تدل على أن
أكثر الذين استجابوا للنبي «صلم» في هذا الدور أو كثيراً منهم كانوا من هذه الطبقة التي
لم يكن لها ما يجعلها تفكر في الوقوف من الدعوة موقف المتحفظ أو المعارض أو الخائف
على مركزه وثروته، وكان لها في الوقت نفسه من حسن النية والرغبة في الهدى ما جعلها
تقبل على الاستجابة إليها . ولا سيما أن منها من كان مضطهداً من الزعماء والأغنياء، وأن
الدعوة قد جاءت تبشر المنضوين إليها بالأمن والطمأنينة والحرية والخير والبركات في
الدنيا والآخرة . وفي هذا صورة من صور العهد المسكي للمسلمين في دوره الأول كما
هو واضح .

ولقد تضمنت آيات سورتي الأنعام والكهف من التلقين السلوكي الرائع . تجاه
الفريقين ما تضمنته آيات سورة عبس . وبأسلوب أشد يفيد أن حرص النبي «صلم» على
جذب الزعماء كاد يجعله أن يستجيب إلى طلبهم ! حيث احتوت تنويهاً بهذه الطبقة
وتلقيناً للنبي «صلم» بوجوب الاهتمام لها وترضية نفسها وتطيب قلبها وعدم الاستماع
للغائبين من الزعماء والأغنياء فيها .

وهكذا تبدو طبيعة الدعوة الإسلامية منذ بدئها عظيمة رائعة في حديها على هذه
الطبقة التي تتألف منها عادة أكثرية الجماهير وتحريرها ورفع مستواها . ولعل هذا

التشجيع كان من أقوى الدوافع على التحاق من تمكن من التفلت من أفرادها بالدعوة .
على أن هذا ينبغي ألا يفتى ناحية رائعة من صور السيرة في عهدنا المكي وهي
استجابة عدد غير قليل من الأغنياء وأبناء الأسر القرشية إلى الدعوة استطاعوا أن يتفلتوا
من تأثير التقاليد ، ومنهم من وقفوا موقفاً مناوئاً لمواقف آبائهم وأعمامهم وزعماء
عشائهم حين رأوا أعلام الحق الباهرة وأنواره الساطعة ولم يبالوا بما يمكن أن يتعرضوا
له أو يصيروا إليه . ولعل هذه الصورة أقوى إشراقاً من أختها الأولى .

المبحث الثاني

موقف زعماء مكة من النبي عليه السلام وبواعثه

وصف موقف زعماء مكة وأثره في عهد الدعوة المبكي - بواعث موقف الزعماء - أثر ما كان للزعامة من دور في عصر النبي وبيئته أثر عصبية التقاليد في المجتمع العربي - أثر خوف زعماء مكة على امتيازاتهم وامتيازات مكة وإمامتها ومنافعها - أثر البعث والحساب والجملة على الزعماء والأغنياء - أثر طبيعة النبي البشرية .

الصورة الأولى

كان موقف زعماء مكة من النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته سلبيا ، بل وعدوانيا منذ الخطوات الأولى من العهد المبكي كما رأينا في المبحث السابق ، وظل الأمر كذلك باستثناءات قليلة طيلة هذا العهد . وقد كان لهذا الموقف أثر كبير ، بل نكاد نقول كل الأثر في بقاء الإسلام ضعيفا في نطاقه وعدده وقوته وفيما لاقاه النبي والمسلمون من صعوبات ومشاق وأذى طيلة العهد الذي استمر ثلاثة عشر عاما على أرجح الأقوال . وما هو بسبيل تأييد صورة الإسلام والمسلمين هذه تذكر آية الأنفال المدنية للمسلمين بما كانوا عليه إلى نهاية العهد كما ترى فيها :

« وَأَذْكُرُوا إِذْ أَتْتُمْ قَلِيلًا مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَثَاوَنَكُمُ وَأَيْدِيكُمْ يُنصِرُهُ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . . »

٢٦

وجميع صور السيرة النبوية لهذا العهد وأحداثها - وخاصة بالنسبة للعرب غير الكتابيين - نكاد تكون متصلة بهذا الموقف أو متفرعة عنه . ويمثل هذا الموقف بصورة عامة آيات كثيرة من أمrcها وأهمها هذه الآيات :

١ - وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا

فَهَلْ أَنتُمْ مُنْمُونُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِيٍّ ...
ابراهيم ٢١

٢ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأُولِينَ . لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ...
النحل ٢٤ - ٢٥

٣ — يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ... (١)
الأحزاب ٦٦ - ٦٧

٤ — وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِمْ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ...
سبا ٣١ - ٣٥

٥ — وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْمُونُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ...
غافر ٤٧

(١) هاتان الآيتان مدينتان ، ولكنهما حكاية حال جمهور الكفار الذين يدخل كفار مكة في شمولهم إن لم يكونوا هم المقصودين بالذات ، على سبيل التنديد والعتة .

الصورة الثانية

ويبدو من إلهام الآيات القرآنية حيناً ومضامينها حيناً آخر ، أن هذا الموقف قد نشأ عن أسباب أصلية ، ثم امتزجت بأسباب أخرى متصلة بطبيعة الدعوة الإسلامية من جهة ونتيجة للتشاد الذي كان بين الزعماء والنبي صلى الله عليه وسلم وما كان من حملات متقابلة بسبيله من جهة أخرى ، وسعت الهوة ، وجعلت أكثر الزعماء يركبون رءوسهم ويماندون في موقفهم عناداً لا هوادة فيه ، وبكابرون في المنطق والحقيقة ، ويتآمرون استكباراً وكيداً وانسياقاً بدافع الغرض والهوى واللجاج ، كما يبدو من الآيات الآتية :

١ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى

بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... الأنعام ١١٢

٢ - وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ

يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ بَتَلُونَهُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ... الحج ٧٢

٣ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ

شَيْءٍ جَدَلًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ

تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا . وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُذْحِضُوا بِهِ الْخَطَأَ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي

وَمَا أَنْذِرُوا هَزُورًا ... الكهف ٥٤ - ٥٦

٤ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا

وَنَصِيرًا ... الفرقان ٣١

٥ - أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ

أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ...

الفرقان ٤٣ - ٤٤

٦ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ
إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ
وَمَكْرَ السَّيِّئِ ...
فاطر ٤٢ - ٤٣

٧ - وَسَوَاءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... يس ١٠

٨ - وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ .
أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ . وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا
وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ ءِهْتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلِهَةِ الْأَخِيرَةِ إِنَّ
هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ . أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ... ص ٤ - ٨

٩ - وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَءِيتِينَ عَظِيمٍ ...

الزخرف ٣١

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

ولعل من أهم الأسباب الأصلية ما كان للزعامة من دور خطير في المجتمع العربي على ما نبهنا عليه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ حيث كان الزعماء وخاصة الزعماء الأغنياء - وكثيراً ما كان التلازم بين الغنى والزعامة في هذا المجتمع - يتمتعون بنفوذ السيادة : يأمرون فيطاعون ، ويدعون فيستجابون ، ويسنون فيتبعون ، وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والقضايا ، فلما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بدعوته ، ويبلغ عن ربه ، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيراً ، كما لم يكن بارزاً في مجال الزعامة ، بفتوا وعظم عليهم أن يكون هذا داعية يستجاب ، ومرشداً يهتدي به الناس ، ولواء ينضون إليه دوسهم ، وقد أريد أن يكونوا هم أنفسهم من المدعويين المستجيبين المنضوين إلى هذا اللواء أسوة بسائر الناس ؛ فاستنكروا الأمر واستكبروا وقالوا إنه لو كان حقاً لكانوا هم المنتدبين للدعوة ، والمكلفين بالمهمة ؛ لأن الناس إنما يستجيبون إليهم ، وتساءلوا

كيف ينزل عليه الذكر من بينهم كما جاء في آيات ص والزخرف وفاطر؟ وقالوا إننا لن
نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله كما جاء في آية الأنعام ١٢٣ التي نقلناها في بحث
سابق، وهزئوا بالنبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في آيات الأنبياء والفرقان التاليتين:

١ — وَإِذْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذًا الَّذِي بِذِكْرِ
الهِتَمِّ وَاللَّهُمَّ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ...
الأنبياء ٣٦

٢ — وَإِذْ أَرَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ...
الفرقان ٤١

ويمكن أن يدخل في الأسباب من ناحية ويمتزج بطبيعة الدعوة الإسلامية من ناحية
أخرى، ما كان من قوة رسوخ عصبية التقاليد في المجتمع العربي على ما شرحناه في كتابنا
الآنف الذكر، وما استهدفته الدعوة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية أو
تعديلها كالشرك على أنواعه، والاستشفاع بالملائكة وعميدة كونهم بنات الله، وما
شاب الشرك من وثنية مادية، وكالعصبية الاجتماعية الضيقة وما كانت تتشدد فيه من
حزبيات عائلية وقبلية^(١)، وتنجر إليه من إسراف في الدماء والترات، وشؤون اليتامى
والمرأة والرقيق، والتحریم والتحليل في الأطعمة والأنعام إلى آخر ما فصلناه في كتابنا
المذكور، إذ كانت هذه الأهداف مما احتوته السور والفصول القرآنية الأولى ثم استمرت
بدون انقطاع ولا تراخ إلى آخر العهد، كما يتضح ذلك من تلاوة السور على حسب تنزيلها
مما لا نرى حاجة إلى التمثيل له لانبثائه في أكثر السور، فكان ذلك كله نقاط اصطدام
وتشاد، وبواعث مناوأة ومعارضة للدعوة النبوية منذ أول عهدها. وظلت كذلك إلى
نهاية العهد. ويمثل هذه المواقف منهم بوجه عام آيات عدة وردت في سور مبكرة

(١) مما رواه المفسر ابن كثير في سياق تفسير آيات سورة الأنعام ٣٣ - ٣٦ أن أبا جهل قال: (تنازعنا
نحن وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا. وحلوا فحللنا. وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تجانبنا على
الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فتى ندرك هذا. والله لا نؤمن به ولا
نصدقه) حيث ينطوي في هذا صورة من صور التنافس العائلي الذي كان من أسباب المناوأة للدعوة
الإسلامية في العهد المبكر.

ومتوسطة ومتأخرة في النزول ، مما يدل على تبكير المواقف واستمرارها ، نذكر منها الأمثلة الآتية :

١ — سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا

مِنْ شَيْءٍ ...

الأنعام ١٤٨

٢ — وَإِذَا قَالُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ...

الأعراف ٢٨

٣ — وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ

النحل ٣٥

وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ...

٤ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

لقمان ٢١

ءَابَاءَنَا ...

٥ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ

سبأ ٤٣

عَمَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ ...

٦ — آيات سورة ص ٤ - ٨ التي نقلناها منذ قليل .

وهذه العصبية - وإن كانت عامة يستوي فيها الزعماء وغيرهم - كان الزعماء أحرص

على الاستمسك بها والدفاع عنها كما تلهم الآيات التالية :

« بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ آئِمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آئِرِهِمْ مُهْتَدُونَ . وَكَذَلِكَ

مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ آئِمَّةٍ

الزخرف ٢٢ - ٢٣

وَإِنَّا عَلَىٰ آئِرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ...

وفي آيات سورة ص ٤ - ٨ مثل هذا الإلهام ؛ إذ حكت تحريض الشرفاء « الملائكة »

لسائر الناس على الاستمسك بما هم عليه ، وهذا بالإضافة إلى الآيات الأخرى التي حكت

استمسك الكفار بما كان عليه الآباء والدفاع عنه ، وإنما يحكي في الحقيقة أقوال الزعماء ،

لأنهم هم الذين كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم ويشادونه ؛ وحرص الزعماء

على الاستمسك بالتقاليد والدفاع عنها أكثر من غيرهم متسق مع طبائع الأشياء ، لأن كيانهم مستمد من ذلك . وخاصة في مجتمع كالمجتمع العربي في بيئته النبي صلى الله عليه وسلم وعصره .

الصورة الرابعة

ولعل من أهم الأسباب التي نشأت من طبيعة الدعوة الإسلامية والتي تتصل بالتقاليد القائمة ، خوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معاً على ما كان لهم ولمكة من مركز ومنافع أديبية ومادية عظيمة بسبب وجود بيت الله في مكة وسدائهم له ؛ فقد كان هذا البيت مثابة وأمناً لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم ، يؤمنونه من كل فج و صوب ، و يقيمون حوله أسواقهم . كما كانوا يعتبرون قريشاً إماماً لهم في الأمور الدينية والدينيوية ؛ وكانت هذه الإمامة تحفظ لهؤلاء عزة الجانب ووفرة الحرمة على ما فصلنا في كتابنا المذكور آنفاً ؛ وكان ذلك الخوف ناشئاً من أن نجاح الدعوة الجديدة سيكون سبباً لانصراف الناس عن مكة والحج ، أو تجهم العرب لمكة وأهلها ، كما تلهم آية القصص التالية :

« وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَفُّ مِنْ أَرْضِينَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ؕ ءَمِنًا يُحْبِبُونَ إِلَيْهِ تَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّن لَّدُنَّا ... »

٥٧

ولم تبعث الفقرة الثانية في أنفسهم الطمأنينة على ما يبدو ، فظلوا يرون في هذه الدعوة تهديداً لذلك المركز العظيم والمنافع الكبرى ، ويتشددون في معارضتها ومناوأتها . ويمكن أن يدخل في الأسباب الناشئة عن طبيعة الدعوة الإسلامية ما أثاره فيهم الإنذار بالبعث والقيامة والوصف المسهب للحياة الآخروية الوارد في القرآن من عجب واستغراب ؛ لا سيما أن هذا لم يكن مما هو معروف بهذه الصراحة والإسهاب عند الأمم الكتابية التي كان لها أثر كبير في أفكار العرب ومعارفهم . ولعل هذا الموضوع من أهم مواضع القرآن المكي الواسطية والتدعيمية ومن أكثرها خيراً وسمه فيه ؛ وتوكيداً

وجدلا وتكذيباً ورداً وبرهنة وعظة وإنذاراً وتبشيراً ووعداً ووعيداً حوله ، حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره منه ، مما يدل من دون ريب على أنه كان من أهم المواضع التي ثار حولها الجدل واللجاج والتشاد بين النبي صلى الله عليه وسلم والعرب . ولقد حكى القرآن كثيراً مواقف العرب منه وأقوالهم فيه بأساليب متنوعة تدل على أن موقفهم منه كان موقف المستنكر حيناً والمدهوش حيناً والمكذب حيناً والمستهزئ حيناً والمتحدي حيناً ، منذ البدء إلى النهاية . ولا نرى حاجة إلى التمثيل ؛ لأن الآيات في ذلك كثيرة جداً ومبثوثة في جل السور المكية ؛ وقد يكون أثرها عاماً في الزعماء وغيرهم ؛ غير أن الآيات إنما كانت تمثل جدل المجادلين الذين هم الزعماء والناهبون ، وبالتالي فإن هؤلاء هم الذين تصدوا لتكذيب اليوم الآخر ووقفوا من الإنذار به تلك المواقف في الدرجة الأولى .

ولعله مما يتصل بهذا أن يكون ما احتواه القرآن من نعي على الأغنياء والأقوياء والزعماء لكثرة تفاخرهم وتكاثرهم بالأموال والأولاد والأنصار والأحساب ، ومن إنذاره بأن هذا كله لن يجديهم في الآخرة نفعاً وأنهم محشورون إلى ربهم فيها مجردين عنه جميعه وليس معهم إلا عملهم كسائر الناس بدون أي فرق ، مما كان يثير في هذه الطبقة قوة المقاومة والعناد والصدّة استكباراً من جهة ، ولثلاً يؤثر في سائر الطبقات فتلت من يدها قيادتها من جهة أخرى ؛ وإليك بعض الآيات في هذا الصدد :

١ — وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
 آخِرِ جُودًا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
 وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادِي كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ...

الأنعام ٩٣ - ٩٤

٢ — وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْخَيْوَةِ الّذِي نَبَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا . الْمَالُ

وَالْهِنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
أَمَلًا ...
الكهف ٤٥ - ٤٦

٣ - فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ
ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ...
المؤمنون ١٠١ - ١٠٣

٤ - وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ
وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ
لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ . وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِتِنَا
مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ...
سبا ٣٥ - ٣٨

« وَيَلُ لُكُلٌ هَمَزَةٌ لُمَزَةٌ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ .
كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى الْأَفْنِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ...
الهمزة

ولعل مما تكرر في القرآن من فصول الحاجة بين الزعماء والضعفاء في النار - مما
أوردناه في الفقرة الأولى من هذا البحث - ما أثار قوة العناد والصد في طبقة الزعماء
أيضاً ؛ فما يصح أن يقال إن هذه الآيات قد استهدفت فيما استهدفته تنبيه السواد إلى أن
اتباعهم الزعماء والكبراء في الكفر والتكذيب لن يفني عنهم يوم القيامة شيئاً مهما اعتذروا
واحتجوا ، وأن الزعماء سيكونون في حالة عجز تام عن نصر أنفسهم فضلاً عن نصرهم ؛
وفي هذا إثارة للسواد على الزعماء وتحريض على عصيانهم فيما يأمرونهم به من عدم
الاستجابة إلى الدعوة ، كما فيه تهوين لشأنهم كما هو واضح . وفي سورة البقرة آيتان يتمثل
فيهما هذا المعنى قويا نوردناهما ولو أنهما مدينتان لاتصالهما بالموضوع :

« إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ
يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ... ١٦٦ - ١٦٧

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وقد كانت طبيعة النبي البشرية من أسباب هذا الموقف أيضاً ، وهذا متصل بأسباب
طبيعة الدعوة الإسلامية كما هو واضح ، فقد تمنى العرب أو بالأحرى نابهوم بمثة نبيّ
فيهم حقاً ، ولكنهم كانوا يتخيلون أن النبي لا بد أن يكون ذا قوى خارقة يفترق بها عن
طبائع البشر ، ويستطيع أن يفعل بها مالا يفعله سائر الناس من خوارق العادات والمشاهد؛
ولعل ما كان ييلفهم عن الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة وظروف نشأتهم وحياتهم مما كان
يقوى صحة هذا التخيل فيهم ؛ فلما رأوا النبي مثلهم ومنهم ، يأكل الطعام ويمشي
في الأسواق ، ويتعرض لكل ما يتعرض له الناس بطباعهم البشرية ، وسمعوه يعلن
بلسان القرآن أنه لا يعلم الغيب ، وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، وأنه
ليس إلا بشراً مثلهم ، وليس هو جنس آخر أو ملكاً ، وأنه يتبع ما أوحاه الله إليه ويقف
عنده كما جاء في آيات عدة أوردناها في فصل الكتاب الأول - جحدوا دعوى نبوته ،
وكذبوا صلته بالله وملكه ، وقالوا إن من يتصل به شيطان ، و نعمتوه بالجنون حيناً
والشاعر حيناً والساحر حيناً والكاهن حيناً والكاذب والمفتري حيناً والمتعلم المقتبس من
الغير حيناً ، وظلوا يكرّرون هذا في مختلف أدوار العهد المكي ، كما يفهم من الآيات العدة
التي أوردنا كثيراً منها في الفصل الأول أيضاً .

والآيات - وإن كان أكثرها يحكي حكاية مواقف الكفار عامة بحيث يصح أن
يقال إنه استوى فيها الزعماء وغير الزعماء - يتبادر منها إلى الذهن أن الزعماء هم الذين كانوا
يتولون كبر المشادة والجدل ، وبالتالي أن المواقف هي مواقفهم في الدرجة الأولى ،
وأهمهم قد اتخذوا طبيعة النبي البشرية وسيلة لصدّ السواد عن دعوته كما كانت عاملاً من

عوامل جحودهم بالذات ؛ وفي آية في سورة الأنبياء يبدو هذا واضعاً جلياً كما ترى فيها :

« لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ... »

٣

إذ تصف جحود الزعماء أنفسهم وتحكي قولهم للسواد : إن النبي ليس إلا بشراً وإن ما جاء به ليس إلا سحراً .

المُبْحَثُ الثالثُ

مشاهد وصور متنوعة بين النبي والزعماء

ومنها صور المساومات بينهم وبينه بين الشدة والاعتدال

غرض هذا البحث - أفراد - مشاهد التحدي والأذى بمبحثين خاصين - المشاهد والصور هي مشاهد وصور الزعماء في الدرجة الأولى - الصور والمشاهد الضيقة - الإشارة إلى مشاهد وسور العلق والقلم والمدثر والمسد التي أوردناها في مجت الخطوات الأولى - مشاهد من سور الهزرة - القمر - ص - يس - الفرقان - الأنعام - الصافات - لقمان - سبأ - الزمر - الزخرف - الجاثية - النحل - إبراهيم - الأنبياء - المؤمنون - الروم - العنكبوت - الحج - الأفعال - العداة الحاس الذي تشبع به بعض زعماء الكفار للنبي وأثره - الصور والمشاهد التي تم عن اعتدال أصحابها : مشاهد من سور القلم - التكويم - الكافرون - الفرقان - القصص - الإسراء - يونس - الأنعام - الزخرف - الكهف - تناقض هذه المشاهد بعد الثلث الثاني من العهد المكي وسببه - مواقف ومشاهد عامة متنوعة أخرى من سور النجم - والصافات - الأعراف - لقمان - المؤمنون - النمل - فاطر - الأنعام - يونس - فصل طويل في سورة الأنعام عن مشهد حجاجي في صدد تقاليد العرب في المحرمات - لفت نظر إلى التشابه بين القصص القرآنية وآيات وفصول المواقف والمشاهد بين النبي والكفار في مكة ومداء .

الصورة الأولى

قلنا في التمهيد لهذا القسم : إن في القرآن صوراً متنوعة ومتقابلة تتراوح بين الشدة والاعتدال ، وردت في ظروف متقاربة ومختلف أدوار العهد المكي . ونريد الآن أن نستعرض الآيات التي تتضمن هذه الصور، إذ تساعد على فهم سير أدوار وأحداث السيرة النبوية في هذا العهد .

وننبه إلى أن هناك صوراً عدة لمشاهد التحدي ، وأخرى لمشاهد محنة الأذى والفتنة وتتأججها ، رأينا أن نفرد لها مبحثين خاصين نظراً لخطورة شأنها وبعد مداها في السيرة

والدعوة ، ولو كانت في الحقيقة مما يدخل في نطاق مشاهد وصور الجدل والممارسة والمكابرة والعنف والشدّة .

ولقد رأينا في البحث السابق أن الزعماء كانوا هم الطرف الرئيسي المقابل في مواقف العهد المكي - وأنهم كانوا المتولين كبر الصد وقيادة حملة المقاومة والمعارضة والتكذيب والجدل . وسنرى في الصور التي سنستعرض آياتها مصداق ذلك بارزاً ؛ إذ هي في الحقيقة صور ومشاهد ومواقف الزعماء ؛ سواء منها العنيفة والمعتدلة ؛ إذ كان منهم العنيف البذيء القاسي الذي تبرز فيه صفات الكبر والأنانية والشدّة والمكابرة ، وكان منهم الهادي المعتدل الذي يمنح إلى الجدل والحجاج المعتدل والذي يبدو أن تمسكه بكفره ناتج عن غفلة أو عصبية أو حياء أو خشية عدوان وفوات منفعة ... الخ .

الصورة الثانية

وفيما يلي صور للمشاهد والمواقف العنيفة . ونلفت النظر إلى أننا ترتبنا الصور على حسب ترتيب السور في النزول ، حتى يرى القاري أن المواقف كانت تحدث في مختلف أدوار العهد المكي منذ العهد الباكر إلى النهاية ، كذلك ننبه إلى أننا أوردنا الآيات التي تبرز فيها الصور بقوة ووضوح ، وإلى أن في القرآن آيات كثيرة أخرى تمت إلى هذا الباب لم نوردناها اكتفاء بما أوردناه .

(١) أوردنا في مبحث الخطوات الأولى آيات العلق ٦ - ١٩ والقلم ١٠ - ١٦ والمدثر ١١ - ١٩ و ٤٩ - ٥٢ وسورة المسد وشرحنا ملهوماتها ؛ وفيها أبكر صور عنيفة لمواقف بعض الزعماء ، وأبكر حملات عنيفة قرآنية مقابلة لها . لذلك رأينا أن نشير إليها هنا لتكون الحلقات الأولى في سلسلة هذا البحث .

(٢) إن سورة الهمزة التي أوردنا نصها في المبحث السابق تتضمن حملة شديدة على الذين اعتادوا غمز الناس وعيهم من الأغنياء ؛ والراجع أنها نزلت بمناسبة مواقف مماثلة بدت من أشخاص من أغنياء الكفار ؛ ولعلمهم كانوا يلغزون النبي والمسلمين الأولين

الذين كانت أكثرتهم من الفقراء والأرقاء ، معتدين بثرواتهم وقوتهم ، والحلمة الشديدة التي تضمنتها السورة تدل على أن هذه المواقف كانت شديدة الأثر والوقوع فاستحق أصحابها هذه الحلمة بالمقابلة .

(٣) في سورة القمر الآيات الآتية :

« أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ . أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ . إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّدَّةٍ كَرٍ ... »

٥١ - ٤٣

والخطاب موجه إلى كفار قريش تعقيباً على سلسلة قصص الأمم السابقة ، وما كان من تشكيل الله بها . وفي الآيات ترديد لما كان زعماء قريش يمتزون به من الكثرة ، ونعتهم بالجرمين ؛ والحلمة الإنذارية الشديدة عليهم من دلائل أن الآيات موجهة إلى أناس من الزعماء بسبب مواقف عنيفة وقفوها من الدعوة ، أضعافها فيها صوابهم ، واعتدوا فيها بقوتهم وجبروتهم كما تلهم نصوص بعضها .

(٤) في مطلع سورة ص الآيات التالية :

« ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تَحِينْ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سَجِيرٌ كَذَّابٌ . أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ . وَأَنْطَلَقُ الْمَلَأَمِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا بَدَوْقُوا عَذَابٍ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَّحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ

الْوَهَّابِ . أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ . جُنْدُ
مَاهُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ...

١١ - ١

والآيات تحكي موقفاً تكذيبياً شديد العناد لزعماء الكفار ، وتحريضاً منهم للعامة
على التكذيب والتمسك بدين الآباء وآلهتهم ، وترديداً لما كانوا ينبجحون به من
العزة والقوة ولاستخفافهم بالنبي وتساؤلهم عن مدى صدق اختصاصه بالقرآن من دوسهم .
وقد تضمنت الآيات حملة شديدة عليهم وهكماً بدعاوهم وتبجحاتهم بالمقابلة .

(٥) في سورة يس الآيات التالية :

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي آعْنَاقِهِمْ
أَغْلَالًا فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ^(١) . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ
سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ... »

١٠ - ٧

وقد تضمنت وصف شدة العناد والمكابرة التي كان عليها الكفار بحيث لا يفيدهم
إنذار ولا وعيد. والصورة مما يدخل في نطاق مواقف الكفار العنيفة الشديدة في المكابرة
والإعراض كما هو واضح .

(٦) في سورة الفرقان الآيات التالية :

« وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن
هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءَهُ ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا
أَسْطِيرُ الْأُولَئِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهَا تُمْلَأُ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ
السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ

(١) رافعور دوسهم لا يستطيعون تحريكها من شدة الأغلال .

بِأَكْلِ الطَّامِ وَ يَمِثِّي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا .
 أَوْ يُبَلِّغِي إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بِأَكْلِ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ
 إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا . أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَبِيلًا ...

٩ - ٣

والآيات تتضمن حكاية مواقف تكذيب واتهام وتحد من الكفار متصلة بما كانوا يتخيلونه من شخصية النبي وبما كان موقفهم منه حينما رأوه على غير ما تخيلوه ذا طبيعة بشرية . والآية الأولى تمهيد ساخر لادع مهم ، فهم يتهمون ويعترضون في حين يستخفون إلى درجة اتخاذ آلهة عاجزين كل العجز . ولا يستبعد أن تكون هذه الآيات بمثابة تعليق أو تعقيب على موقف جدل وحجاج ومكابرة بين بعض زعماء الكفار والنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ احتوت على شيء من الحوار .

(٧) في سورة الأنعام الآيات التالية :

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ
 إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ
 مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ
 اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ... »

١٢٤ - ١٢٣

والآيات بسبيل وصف الزعماء المجرمين وما كانوا منهمكين فيه من مؤامرات ومكر ضد النبي ودعوته وحمله عليهم . وفيها وصف لشدة مكابرتهم وعنادهم واستكبارهم ، أو لعله وصف لموقف مكابرة وتحد تجلت فيه هذه الصفات الذميمة قالوا فيه إنهم لن يؤمنوا إلا إذا خاطبهم الله مباشرة كما يخاطب رسله ونزل عليهم آيات كما ينزلها على رسله .

(٨) في سورة الصافات الآيات التالية :

« إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ . إِنَّا

زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَا يَسْتَمِعُونَ
إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَن
خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَاسْتَنْفَعَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا
خَلَقْنَهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا
رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . أءَءَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظْمًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَءَا بَاءُونَا الْأَوْلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ
رَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ . وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ
الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . أَحْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ .
مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ . مَا لَكُمْ
لَا تَنصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ . وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا
إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا
عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ .
فَأَعْوَبْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ
نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ .
وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لِنَارِكُوا ۖ إِلَهِنَا لِيَشَاعِرَ ۖ يَمْجَنُونَ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ .
إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . . .

تضمنت هذه الآيات صوراً لمواقف جحود وتكذيب وتحدٍ وسخرية واستكبار
وقفها الكفار ، واتهامات بالشعر والسحر والجنون اتهموا بها النبي صلى الله عليه وسلم ،
وإنكار للحياة الآخرة ، كما تضمنت مقابلة قرآنية وإنذارية عنيفة وساخرة ولاذعة ؛
وفيها حوار عن لسان عالم في الآخرة وتعاتبهم وتحسرهم على ما قدمت

أيديهم في الدنيا . وهو جزء من المقابلة القرآنية .

وقد ذكرت المواقف وجاءت المقابلة بأسلوبين مختلفين : أحدهما وجاهي وثانيهما لسان حال تذكيري ، ولكنهما متصلان اتصالاً وثيقاً كما يبدو منهما . والسلسلة من المجموعات المهمة التي احتوت وصف مواقف وحالات وصور متنوعة فيها عنف وشدّة .

(٩) في سورة لقمان الآيات التالية :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِمِثْرٍ عَمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا عَلَيْهِ مُسْتَكْبِرِينَ كَانُوا يَسْمَعُهَا كَانٍ فِي أذُنِهِ وَقَرَأَ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... »

٧ - ٦

والآيتان بسبيل وصف موقف عناد واستكبار وتهویش وتشویش وصد لبعض زعماء الكفار تجاه النبي والقرآن ؛ وقد تضمنت مقابلة إنذارية عنيفة تنسق مع صور الموقف .

(١٠) في سورة سبأ الآيات التالية :

١ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّتُمْ كُلٌّ مِّمَّزِقٍ إِنَّكُمْ لِنِيِّ خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ...

٨ - ٧

٢ - وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَنْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَعْتَمُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ...

٣١ - ٢٩

٣ - وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ

وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ...

٣٧-٣٥

٤ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءآيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا ءِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ . وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْ شَيْءٍ فَتَكْفُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْخَلْقُ وَمَا بِيَدِي الْبَطْلُ وَمَا يُعِيدُ ...

٤٩ - ٤٣

وفي الآيات الأولى وصف موقف شديد عنيد بتكذيب الحياة الأخرى ، ودعاية تهويلية بين الناس ضد النبي صلى الله عليه وسلم بسبب إنذاره بها ؛ وواضح أنه موقف لطفاء الزعماء . وقد تضمنت رداً إنذارياً بالمقابلة ، واستمر الرد في الآيات التي تلها أيضاً .

وفي الآيات الثانية حكاية تساؤل ساخر واستنكاري من قبل الكفار عن وقت تحقيق وعد البعث والعذاب ، وإعلانهم التصميم على الجحود بالقرآن وغيره من الكتب السماوية . والمواقف موقف عناد شديد كما هو واضح ، وقد أمرت الآيات النبي صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بتوكيد محيي ميعادهم المحتوم ، كما تضمنت بقية الآية ٣١ والآيات ٣٢-٣٣ التي نقلناها في مناسبة سابقة حكاية حالهم حينما يبعثون وكيف يعاتب بعضهم بعضاً وكيف كان الزعماء يؤلبون العامة في الليل والنهار على الجحود ، وما سيلقونه من عقاب رهيب على سبيل الرد والإنذار . والمقطع الذي أئبناه قد يلهم أنه ترديد لموقف

حجاج مواجه كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الكفار .

وحكاية قول الكفار لهم لن يؤمنوا بالذي بين يدي القرآن ، أي الكتب السماوية السابقة أيضاً ، في حين أنهم كانوا يثقون في الكتابيين ويطالبون النبي بمثل ما جاء به موسى والأنبياء الآخرون على ما أوردنا آياته - قد تلهم أن موقف الكتابيين التصديقي في مكة واستشهاد القرآن بهم وحسن شهادتهم - مما سوف نشرحه في فصل الكتابيين التالي - قد أثار غيظ الزعماء وحنقهم ؛ وفي هذا صورة لما كان من أثر إيمان الكتابيين في زعماء كفار قريش ، وبالتالي صورة من صور السيرة النبوية الطريفة ؛ ولقد جاء في آية من سورة القصص ما يلهم أن زعماء الكفار كانوا يلومون الكتابيين على مواقفهم هذه وهي :

« وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ... »

٥٥

وهو يدعم صحة الصورة التي اقتبسناها .

والآيات الثلاثة : تلهم كذلك أنها تريد لموقف حجاج مواجه تنجح فيه بعض أغنياء الزعماء بكثرة أموالهم وأولادهم ، ومحضاتهم من العذاب بسبب ذلك ، وهو موقف عناد واستكبار وغرور كما هو واضح ؛ وقد رد عليهم القرآن مفنداً لدعواهم .

والآيات الرابعة : تصف موقف جحود شديد للزعماء ، فيه تهوئش على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه اتهام بذيء . وقد توعدهم القرآن بالنكال الذي أصاب من هو أقوى منهم ، ثم أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه رد خطابي إليهم ، فيه حجة دامغة وفيه عظة وفيه تقرير قوي للحق الذي جاء به . والآية ٤٦ التي احتوت العظة عظيمة المنزى ، إذ يطلب منهم فيها أن يتفكروا منفردين أو اثنين اثنين أو مرة بعد أخرى بعبيدين عن التهوئش والعناد ، ويلاحظوا ما يعرفونه من بعد النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنون والخرق والغلو والمطعم الخالص ؛ وحينئذ يبين لهم الحق واضحاً ، وإذ يدل هذا الطلب على أن

تهوئش المهوئشئ الشئءءءء العئءء والاسئءءءء من الزعماء هو الءءء كان بسئءر على الموءق وءءر ءءرم ءءه ءون أن ءءءوا ءءالا للمءالفة ؛ والآءة فئ الوءق نفسه رء قوءى على التهوئش ؛ فالأمر ءءب أن ءءكر فئه ءءراءاً عن الهوى والعئءءء بءءءاً عن التهوئش ؛ ولعل فئها ءءاباً للناس أو المءءءءن الءءن ءءأءرون بالمهوئشئ ولا ءءءون ءءالا للئءكفر الحر المءرء . وعلى كل ءال فما لا رءب فئه أن النبئ صلى الله علیه وسلم صءء بالأمر ووجه هذا الءءاب القوءى الءامء النافءء ءءءءاءءن مئءكبرئهم ومءءءءءهم وزعماءهم وسواءهم على السواء .

(١١) فئ سورة الزمر الآءء الئالءة :

« أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ . قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْهُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ ... »

٤٠ - ٣٦

وقء ذكر المفسرون أن الكفار كانوا ءءوفون النبئ من انئقام آءتهم أو شركاءهم ، أو ءئظرون انئقامهم منه ، فنزلت الآءء ، ومضمونها ءئسق مع هذا القول . وفئءارء لاءع على الكفار وسءرءة بشركاءهم الءءن ءءوفونه بهم وإئءار لهم بسوء المصئر ، وإعلان بأن الله كافئه وكافئه ، وهئ ءءملئها رءءءء لموءق ءءاء وءءل ءئن النبئ صلى الله علیه وسلم وبعض الكفار العئءءءن المءكبرئن .

(١٢) فئ سورة الزءرف الآءء الئالءة :

« وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخُلُقُ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ

هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ . أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . . .

٣٠ - ٣٢

والآيات تتضمن وصف حنق الزعماء المتكبرين من نبوة النبي بالذات ، لأنها لم تكن نصيب أحدهم في مكة أو الطائف ، مما ساقهم إلى الجحود والصد ، وهو تكرار للموقف الذي وصفته آيات سورة فاطر ٤٢ - ٤٣ وسورة الأنعام ١٢٣ - ١٢٤ التي تقدم شرحها ؛ ويبدل هذا التكرار على أن هؤلاء الزعماء ظلوا يبدون غيظهم واستخفافهم بالنبي مرة بعد مرة . وقد سفهت الآية الأخيرة أحلامهم بقوة لاذعة ؛ فالنبوة رحمة من الله لا يؤتاها إلا مستحقها ، وليست نوعاً من التفاضل الدنيوي بين الناس والذي هو ناموس عمراي ليس غير ، واختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بها يجعله في قدره وعظمته خيراً وأسمى من زعاماتهم وأموالهم . .

(١٣) في سورة الجاثية الآيات التالية :

١ - وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مَن وَّرَآئِهِم جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادِي بِنَادِي رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ . . .

٧ - ١١

٢ - أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَن يَهْدِيهِ مِّن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا أَتُتُوا

بِنَابَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِتُّكُمْ بِمَنْزِلِ السَّمَاءِ الْمُنْبَطُولُونَ ...

٢٧ - ٢٣

وفي الآيات الأولى وصف لمواقف شديدة العناد والعنف كان يقفها الكفار ، إذ كانوا
يصرون على الكفر والاستكبار ويتخذون ما يسمعون من آيات القرآن موضوع سخريه
واستهزاء ، وقد احتوت الآيات حملة إنذارية شديدة تتناسب مع أصحاب الموقف الموصوف
الذين وصفوا بالأفاكين الآمنين .

والآيات الثانية بسبيل التعميق على موقف من مواقف المكابرة والتكذيب واللجاج
والتحدي ، وقفه بعض الكفار من الدعوة والإنذار بالحياة الأخروية كما يبدو من
مضمونها ، وكان الغرض والهوى هو المؤثر الأقوى فيه حتى لم يعد أمل في هدايتهم ؛
والتحدي بالإتيان بالأبواب إزاء الإنذار بالبعث الذي احتوته الآيات قد تكررت
حكايته عنهم ، مما يدل على أنهم كانوا يكررونه في المواقف مرة بعد أخرى ، كما أن الصيغة
تدل على أن هذا القول كان يوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة كلما تلا ما فيه إنذار
بالحياة الأخروية .

(١٤) في سورة النحل الآيات التالية :

« إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ . لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوا
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءُ
مَائِرُونَ ... »

٢٥ - ٢٢

والآيات تتضمن وصف مواقف الزعماء المستكبرين الذين كانوا يكررون القول

عن القرآن كلما تلا النبي منه شيئاً بأنه أساطير الأولين وقصصهم ، كما تتضمن الإشارة إلى ما كان من أثرهم في إضلال الناس الغافلين والحيولولة دون استجابتهم إلى دعوة الحق .

(١٥) في سورة إبراهيم الآيات التالية :

١ — اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ...

٣ - ٢

٢ — وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا تَبِهُمُ الْعَذَابُ قِيُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ...

٤٧ - ٤٤

والآيات الأولى تتضمن وصفاً لشدة موقف الزعماء اليهودي وانهما كهم بالدنيا وما كانوا يبذلون من سعي في صد الناس عن الدعوة وعرقلتها . والآيات الثانية تصف ما كان بيته الزعماء من مكر ويحكيونه من دسائس ومكايد في سبيل عرقلة الدعوة وتنذرهم إنذاراً قاصماً . ووصف مكرهم وآثاره قوي جداً ، يدل على أنهم جعلوا الدعوة وعرقلتها وصد الناس عنها والتأليب والتهويش عليها أكبرهمهم . وهذا من دون ريب سبب بقائها في نطاقها الضيق ؛ كما أن فيه صورة لما لقيه النبي والمسلمون من شدة ومحنة وأذى .

(١٦) في سورة الأنبياء الآيات التالية :

١ — أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ

رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ أَفْتَاتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ . قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوا أَضْفَتْ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِنَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ . مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِيْلَيْهِمْ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ...

٨ - ١

٢ - وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوعًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذِكرُ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . وَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ...

٤١ - ٣٦

والآيات الأولى تتضمن وصف موقف جحود وتصامم للزعماء ، وحكاية لاجتماعهم السرية بسبيل المكر والكيد للدعوة ؛ إذ كانوا يهوشون على الناس فيها مشيرين إلى بشرية النبي المماثلة لبشريتهم ، وأن ذلك غير منطبق على صفة « النبوة » كما يتخيلونها ، وأن ما يأتي به وينذر به من قبيل السحر الذي لا يليق بقولهم أن ينخدعوا به ، أو من أضغاث الأحلام ، وأن ما يتلوه من القرآن هو من قبيل الشعر ، وإلا فليأت بالخوارق والمعجزات إن كان صادقاً كما فعل الأنبياء من قبله ؛ وقد ردت عليهم الآيات منذرة بالهلاك من جهة ومستشهادة بأهل الكتب السماوية على أن أنبياءهم كانوا رجالاً

مثله يأكلون الطعام وغير حالدين . ومن المحتمل أن تكون الآيات ترديداً أو تعقيماً على موقف حجاج مواجه بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء أيضاً ، بالإضافة إلى ما فيه من إشارة إلى الاجتماعات السرية التهويشية ؛ وعلى كل حال ؛ فالآيات تتضمن صورة أو بالأحرى صوراً لشدة عناد الزعماء ومكابراتهم ومكابدهم ومساعدتهم للحيلولة دون نجاح الدعوة والاستجابة إليها كما هو واضح .

والآيات الثانية تحكي كذلك موقفاً استخفافياً لزعماء الكفار ، فيه تحج للنبى وسخرية به ؛ وخاصة في أسلوب تساؤلهم عن تحقيق موعد ما ينذرهم به ؛ وقد قابلتهم الآيات بإنذار شديد بالنكال الدنيوي والأخروي متناسب مع موقف جحودهم العنيد الساخر . ويبدو من مضمون الآيات أن هذا الموقف مما كان يتكرر ومما كان يقع مواجهة .

(١٧) في سورة المؤمنون الآيات التالية :

١ — فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ .
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ...

٥٤ - ٥٦

٢ — بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي عَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ .
حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ . لَا تَجْرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا
لَا تَنْصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ . أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَّالٌ بَاتِ آبَاءَهُمْ
الْأُولَئِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ
بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ...

٦٣ - ٧٠

وفي الآيات الأولى تسفيه لما يظنه الأغنياء من أن ما هم فيه من نعمة دليل على عناية الله بهم ؛ ويبدو أن هذا مما كانوا يحاجون به ويتبجحون في سبيل الزرابة على المسلمين .

وفي الآيات الثانية حملة إنذارية وتسفيهية معاً على الكفار ، إذ كانوا ينكصون على أعقابهم استكباراً كلما سمعوا النبي يتلو آيات القرآن ، ويهجرونه كأنما هو قصص ؛ في حين أنهم يعرفون أن ما أتى به ليس بدعاً ، وأنه غير نكرة في عقله وأخلاقه ، ولا يصح أن يتهم بمجنون .

(١٨) في سورة الروم الآيات التالية :

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَتَتْهُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ . كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ . . . »

٥٨ - ٦٠

وفي الآيات صورة لمواقف العناد والمكابرة التي كان يقابل بها الكفار آيات القرآن مع ما احتواه من ضروب الأمثال والوعظ ، كما فيها تصبير للنبي وطمأنة له بوعد الله الحق . والآية الأخرى تدل على أن مواقف العناد والمكر قد اشتدت حتى أخذت تصل إلى الإحراج ، فأمر الله نبيه بالصبر والثبات . وسورة الروم من أواخر ما نزل من القرآن ، ومعلوم أن مكر الكفار وكيدهم قد أخذ يشتد في آخر العهد المكي ؛ فمن المحتمل أن يكون النبي أخذ يفكر في الخروج من مكة قبل الأوان المناسب فصبر وثبت . ولعل هذا الظرف هو ظرف خروجه إلى الطائف ، أو ظرف اتصاله بوفود يثرب على ماسوف نذكره بعد .

(١٩) في سورة العنكبوت الآيات التالية :

« قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَبَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ »

بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . يَوْمَ يَفْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ...

٥٥ - ٥٢

وفي الآيات صورة لموقف تكرر من الكفار ، وهو تحديهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب الموعود تحدي الجاحد الساخر ، وإنذار توكيدي لهم . والإلحاح الذي حكته الآيات عنهم في استعجال العذاب يزيد الصورة قوة وعنفاً . والسورة من أواخر ما نزل من القرآن حين اشتدّ ضغط زعماء الكفار وكيدهم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يشتدّ في إنذارهم بعذاب الله ونكاله فقابلوه بهذا الإلحاح الساخر .

(٢٠) في سورة « المطفون » الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ
هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ . عَلَىٰ الْأَرْآئِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ... »

٣٦ - ٢٩

والآيات تضمنت وصفاً لمواقف الكفار من المسلمين ، إذ كانوا يسخرون ويضحكون منهم ويتغامزون عليهم وينعتونهم بالضالين المفتونين ؛ وقد تضمنت تسلياً للمسلمين . فسيتقلب الأمر يوم القيامة ويكون دور السخرية والضحك لهم على الكفار الذين سينالون جزاء عملهم .

الصورة الثالثة

(٢١) في سورة الحج بضعة مقاطع عديدة تحتوي صوراً لمواقف عناد الكفار الشديدة . وهذه السورة لم ترد في ترتيب نزول السور المكية ، لأن أكثر الروايات

على أنها مدنية . وقد أشرنا إلى الترجيح بأن أكثر فصولها مكية . وعلى كل حال فالقاطع المذكورة تحتوي صوراً عن كفار وظروف العهد المكي فيما نعتقد . وإليك المقاطع أولاً :

١ — وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ .
كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآتَهُ فُضْلَهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ... ٣ - ٤

٢ — وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ . ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ... ٨ - ٩

٣ — وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ نَعْرَفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ لِّمَن قَامَسْتُمُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْأَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ... ٧١ - ٧٤

وفي المقطع الأول وصف لفريق من الكفار دأبه الجدل في الله ، وهو جاهل ولكنه يستمع لوساوس الشياطين البغاة الذين يضلون الناس ولا يهدونهم إلا إلى النار . ويبدو من خلال الآيات دور الزعماء وأثره في إضلال الناس حتى كان منه أن انسجم بعض الناس الذين أضلهم في رعايتهم وصاروا مثلهم يجادلون في الله .

وفي المقطع الثاني وصف لفريق آخر يجادل في الله كذلك بدون سند من علم

ولا كتاب ، وقد اعتدّ بنفسه وكان يثني عطفه خيلاء واستكباراً عن سماع كلام الله ، ويسعى في إضلال الناس وصدّهم عن الدعوة .

وفي المقطع الثالث تسفيه الكفار على عبادتهم دون الله غير مستندين في ذلك إلى علم أو وحي رباني ، ووصف لمواقف بعض زعمائهم حينما كانوا يسمعون النبي يتلو من آيات القرآن ، إذ كانت تبدو على وجوههم علامات الفيظ والشر حتى ليهمون بالبطش به . وقد احتوت الآيات أولاً جواباً عنيفاً قذف في وجوههم ؛ إذ هتف أن موعدهم النار وبئس المصير ؛ وثانياً تنديداً لاذعاً حيث أمر النبي بإعلانهم جهرة : أن ما يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو ظاهر بعضهم بعضاً ، وأن الذباب الذي هو أعجز الهوام لو سلبهم شيئاً لعجزوا عن استنقاذه منه والآيات تلهم أنها ترديد أو تعقيب لموقف مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء العنيدون العنيفين .

١٢ - وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ . وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْأَلْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِّطِرْنَا عَالِيَنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . . »

٣٠ - ٣٢

وسورة الأنفال مدنية ؛ وقد قيل إن الآيات مكية ، وقد رجحنا مدنيتهما وكونها بسبيل التذكير . وعلى كل حال فموضوعها من صور العهد المكي وظروفه حتماً . والآية الأولى تدل على أن حنق الكفار قد اشتدّ على النبي إلى درجة أنهم أخذوا يتآمرون على قتله أو حبسه أو نفيه ، مما سوف نتكلم عنه في مبحث محنة الأذى والفتنة ، أما الآيتان الأخريان ففيهما صورة لموقف شديد الجحود والسخرية كان يقفه بعض الكفار أو بالأحرى زعمائهم حينما كان النبي يتلو القرآن ، إذ كانوا يستخفون ويقولون : إننا

لو أردنا أن نقول كما يقول لعلنا وإن ما يقوله ليس إلا من قصص الأولين ومدوناتهم ، ثم يتبعون هذا بتحديثهم هذا التحدي الساخر الذي حكته الآية الثالثة ، ويعلمون به جحودهم القاطع لنبوّة النبي صلى الله عليه وسلم . ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا : إن تذكير النبي والسلمين بهذه المواقف في العهد المدني يلهم أمها من أشدّ المواقف نكايّة وشدة ووقفاً عليهم . ولعل هذا يتضح خاصة بالنسبة للمؤامرة التي أشارت إليها الآية الأولى ؛ لأنها كانت السبب المباشر لخروج النبي من مكة مسقط رأسه ومهبط وحي الله عليه .

الصّورة الرابعة

هذا ؛ ونختم الكلام في هذا الموضوع بأيتين في سورتي الأنعام والفرقان لها مغزى خاص ؛ وهما هاتان :

- ١ — وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ...
الأنعام ١١٢
- ٢ — وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ...
الفرقان ٣١

فهاتان الآيتان وإن كانتا بسبيل بيان طبيعة بشرية عامة تجاه الأنبياء جميعهم من جهة ، وبقصد تسليّة النبي فيما كان يلقاه من الصدّ والمناوأة من جهة أخرى ، فإنهما تلهمان أن فريقاً من الزعماء قد تشبعوا بالعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ورسالته لأسباب عدة : كالأنانية والاستكبار والحنق من اختصاصه بالرسالة دونهم ، ولا يبعد أن يكون منها التنافس العائلي ؛ وأن عداءهم هذا هو الذي كان يجعلهم يصمون آذانهم عن الحق مهما كان دامناً ويفمضون أعينهم عن الحقيقة مهما كانت ساطعة النور ، ويسكتون ضمايرهم عن الارعواء مهما كان الصوت المنبه قويا ؛ وهو الذي كان يجتهدون إلى نشاطهم العظيم في الصدّ والمناوأة والتعطيل وعقد الاجتماعات ووضع خطط الدعاية والإزعاج والتعجيز والتحديّ والتهويش ، فكان لذلك الأثر الأكبر فيما لقي النبي

والمسلمون من شدة وعنت وعنف ، وفي بقاء الدعوة في العهد المكي في نطاق ضيق محفوف بالأخطار .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وهناك آيات تذكر ما ألم بأهل مكة من عذاب رباني، فرأينا أن نوردها هنا ونورد ما روي في سياقها؛ لأن ذلك نتيجة من نتائج مواقف الزعماء العنيفة . وفيه في الوقت نفسه صورة خطيرة من صور السيرة في العهد المكي .

يضم

وهذه هي الآيات حسب ترتيب نزول سورها :

١ — فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ . يَفْغَى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أُنزِلَتْ لَهُمُ الذِّكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ . إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ... الدخان ١٠ - ١٦

وقد روى البخاري ومسلم والترمذي في سياق تفسير هذه الآيات حديثا عن ابن مسعود جاء فيه (إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان أو يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من الجهد . فجاءوا إلى رسول الله فقالوا له : استسقى الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقى لهم فسقوا فلما أصابتهم الرهاية عادوا إلى حالهم فأنذرهم الله بالبطشة الكبرى وكانت يوم بدر^(١) .

٢ — وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ...

النحل ١١٢ - ١١٣

والمفسرون متفقون على أن القرية هي مكة وأن في الآيتين تذكيراً بما أصاب أهلها من جوع وقحط بسبب ظلمهم وتكذيبهم لرسولهم .

٣ — وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ...
المؤمنون ٧٥ - ٧٧

وقد قال المفسرون : إن في الآيات إشارة إلى القحط والجوع الذي أصاب أهل مكة وما كان من عودتهم إلى الطغيان بعد أن رحمهم الله وكشف عنهم الضر وإنذاراً بعذاب أشد .

٤ — وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلْوَنِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...

السجدة ٢١

وقد قال المفسرون : إن في الآية تأكيداً للإنذار السابق بأن الله سيرسل عليهم عذاباً دنيوياً قبل العذاب الأخروي .

والسور الأربع مما نزل في النصف الثاني من العهد المكي : وواضح من الروايات وفيها ما هو صحيح ومن روايات البخاري ومسلم والترمذي أن النبي «صلم» اشتد غيظه من قريش نتيجة لاستمرارهم على عنادهم ومناوأتهم العنيفة فدعا عليهم فاستجاب الله دعاءه وأصابهم القحط والجوع . فنهروا إليه يطلبون منه الرأفة ، وظن أو رجا أن يكونوا قد ارعوا فدعا الله فكشف عنهم ولكنهم لم يلبثوا أن استمروا على موقفهم فأنذرهم الله مرة بعد مرة وكانت البطشة الكبرى في بدر حيث قتل معظم صناديدهم فكان في ذلك معجزة قرآنية .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

وفيا يلي صور للمشاهد والمواقف التي تم عن اعتدال أصحابها ؛ وقد رتبنا آيات السور حسب ترتيب نزولها أيضاً ليرى القاري أن المواقف المعتدلة كانت كذلك : تحدث في مختلف أدوار العهد منذ أوله . وننبه هنا إلى ما نبهنا إليه في القسم السابق من أننا اكتفينا بإيراد الآيات التي تبرز فيها الصور بوضوح دون غيرها مما يمت إلى الباب نفسه .

(١) في سورة القلم التي هي من أبكر السور نزولاً : جاءت هاتان الآيتان :

« فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَذُؤِا لَوْ تَدُهِنُ فَيُدْهِنُونَ ... » ٨ - ٩

وفيها إشارة صريحة إلى أن بعض الجاحدين لما جاء به النبي كانوا يودون أن يسير في مبادئ الدعوة فيقابلوه بالمثل ؛ وقد أمرته الآية الأولى بعدم الاستماع لمطلبهم . وبقطع النظر عن مدى المسيرة التي كانوا يطلبونها من النبي ومدى استعدادهم للمقابلة؛ فإن المتبادر أن يكون هؤلاء من الفريق المعتدل غير العنيف في جحوده ومواقفه من النبي ؛ إذ كان يبحث عن حل وسط يقترب كل طرف من الطرفين إليه شيئاً ؛ وهكذا يصح أن يقال: إن هذا النوع من الزعماء قد أخذ يبرز منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ ولهذا مغزى غير يسير في صور السيرة النبوية .

(٢) ولقد نقلنا في مناسبة سابقة آيات التكوير ١٥ - ٢٩ ؛ والمتعمن في أسلوبها

يجد فيه هدوءاً وخطاباً موجهاً إلى العقل والقلب ، وقصداً إلى الإقناع ؛ مما يلهم أن الذين وجه إليهم هم من الفريق المعتدل الذي لم يبد منه عنف في التكذيب أو الارتباب والآيات مثل تلك من أبكر ما نزل من القرآن ، وهي متصلة بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من اتصال وحي الله به ورؤيته للملك في أفق السماء لأول مرة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

(٣) في سورة الممتحنة آيتان جاءتا بقصد تحديد موقف المسلمين من الكفار ، وهما :

« لَا يَنْهَسِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِينِكُمْ »

أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ...

٩ - ٨

والآيتان تشريعيتان كما هو ظاهر . وقد ذكر رواية أسباب النزول أنهما نزلتا في مناسبة قدوم زائرة من كفار مكة من أقارب إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، فتخرجت الزوجة من قراها حتى يأذن لها النبي ، فنزلتا .

والمناسبة محتملة الوقوع ، غير أن روح الآيتين والآيات السابقة لها منذ مطلع السورة ، تلهم بقوة أنهما أوسع شمولاً من حادث الزائرة ؛ بحيث يصح أن يقال بشيء من الجزم : إنه كان في مكة طبقة من الكفار لم يعنف أفرادها في عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية ، ولم يشتركوا في الأذى والتأمر ولم يظاهروا عليهما ؛ والآيتان قد نزلتا في عهد متأخر بعد الهجرة ، وبتعبير آخر بعد صلح الحديبية وبين يدي فتح مكة ، وهذا قد يعني أن تلك الطبقة قد ظلت ثابتة في موقفها المعتدل الحيادي أو البار بشكل ما أيضاً . وفي هذا كله صورة من صور مواقف الكفار من الدعوة الإسلامية منسقة مع طبائع الأشياء ، ومع الفصول القرآنية المتعددة التي أوردناها في هذا القسم .

(٤) ويتجلى في نص سورة « الكافرون » الهدوء الخطابى أيضاً كما يرى فيه :

« قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

وقد روى المفسرون أنها نزلت بمناسبة مراجعة الزعماء للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم التبادل في عبادة الآلهة وتكريمها ، فيصلي لألهتهم ويكرّمها ، ويصلون هم لله ويعلمون تعظيمه . وليس في الآيات ما لا يتسق مع الرواية إجمالاً . ولعل فيها ما يفسر ما أرادت به آية القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » . وعلى كل حال فالستلهم من صيغة

وأسلوب الخطاب ويستأنس من الرواية أن الذين راجعوا النبي هم من الفريق المعتدل الذي ينجح إلى المفاوضة والمناقشة والتوفيق بدون عنف .

(٥) في سورة الفرقان الآيات التالية :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ... »

٥٧ - ٥٦

والآية الأولى بسبيل تقرير مهمة النبي ، فليس هو إلا مبشراً ونذيراً وداعياً ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ؛ وهذا مما تكرر كثيراً في القرآن بأساليب ومناسبات متنوعة . وفيه من جهة تسلية للنبي على ما كان يلقاه من جحود الأثرية الساحقة ، كما فيه من جهة أخرى إعلان للناس أن النبي ليس مكلفاً بإجبارهم على الاستجابة ؛ وفي هذا صورة من صور الملاينة الخطائية أو التكليف الحر كما هو المتبادر مما يمت إلى الموضوع الذي نحن فيه ببعض الصلة . والآية الثانية مما يدعم هذا المعنى ، إذ يؤمر النبي بها بأن يعلن الناس أنه لا ينتظر منهم أجراً وليس له مطمع ، وقصارى دعوته وجهده أن يرعوا ويرجعوا إلى الله ويسيروا في سبيله ؛ وأسلوبها يلهم أنها موجهة إلى أناس غير عنيفين في تكذيبهم وجحودهم وعدائهم .

ومضمون الآية الثانية أيضاً قد تكرر مرات عديدة . ولقد ذكرت الروايات أن بعض زعماء قريش جاءوا إلى أبي طالب ، أو بعثوا إليه أحدهم وطلبوا منه التوسط إلى ابن أخيه حتى لا يستمر في تسفيهم ، وعرضوا عليه فيما عرضوا أن يصدقوا عليه المال حتى يجعلوه أغنهم إذا أراد ، وأن أبا طالب عرض الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم فأبى قائلاً : إنهم لو وضعوا الشمس يميني والقمر شمالي لما عدت عما أدعو إليه من رسالة ربي ؛ ولا نستبعد أن تكون هذه الآية بسبيل الرد على هذا العرض ، وإعلان أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتوخى جزاء ولا يضمّر مطمعاً فيما حمله من رسالة ربه ، وأن الآيات ظلت تردّد هذا الرد بين حين وآخر ؛ ومن المعقول ألا تكون هذه

المراجعات التي يمكن أن تلهم صحة وقوعها إجمالاً هذه الآية وأمثالها إلا من فريق يودّ حسم الأمر بالتي هي أحسن ، دون أن يتفاهم ، وبعبارة ثانية من فريق معتدل من الزعماء أو بإلحاح هذا الفريق .

(٦) في سورة القصص آيتان ؛ أولاهما هي هذه :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

٥٦

بِالْمُهْتَدِينَ ...

ومع احتمال أن تكون الآية بسبيل تسلية النبي - وفي القرآن آيات كثيرة تهدف إلى ذلك - فإنها صريحة الإلهام أيضاً بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على اهتداء بعض الناس وانحيازهم إلى صف المسلمين بصورة خاصة ، وأنه كان يحز في نفسه ألاّ ينجح في ذلك ؛ وقد تلهم كلمة « أحببت » أن هؤلاء ممن كان بينهم وبين النبي مودة أو صداقة قبل البعثة .

وقد قال المفسرون والرواة: إنها نزلت في عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب حيناً أصر على التمسك بدين آبائه عند وفاته ، والآية نزلت مبكرة نوعاً ما على الأرجح ، في حين أن أبا طالب توفي في أواخر العهد ؛ ولهذا فالنفس لا تطمنن إلى رواية نزولها عند وفاته ؛ وهذا لا يمنع أن تكون نزلت في عمه ، فما لا شك فيه أن النبي كان يعرض عليه الإسلام من آن لآخر فيأبى ، فيحز ذلك في نفسه إذ كان شديد الحرص على هدايته شديد الحب له ؛ كما أن من الممكن أن يكون هناك غير أبي طالب أيضاً من المحبين إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين كان يتوسم فيهم الخير ، ولم يكونوا في موقف عنيف منه ، وكان يحرص على هداهم وراجعهم من آن لآخر فيأبون خشية الرأي العام وبقوة عصبية التقليد . ولعل من الصواب أن يسلك أقارب النبي صلى الله عليه وسلم الأذنون - الذين كان أكثرهم ينتصرون له ويمتنع الناس عن أذاه خشية منهم ، والذين ظل أكثرهم متمسكين بدين الآباء في العهد المكي وفيهم عمه العباس وعمه أبو طالب -

في هذا المسلك ، ومهما يكن من أمر فالآية تدل على أنه كان بين الجاحدين زعماء وغير زعماء : أناس معتدلون محببون إلى النبي وبينه وبينهم صلوات حسنة ، يتمنى بصورة خاصة أن يهتدوا ولكنهم كانوا يأبون .

أما الآية الثانية فهي هذه :

« وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَنَّبِيهِ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... »

٥٧

وقد روى المفسرون أنها نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل أحد ناهبي قريش ؛ إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن الذي تقول : الحق ، ولكننا إن تابعناك أخرجتنا العرب من مكة ، ولسنا أكثر من أكلة رأس . والرواية منسقة إجمالاً مع مضمون الآية ، غير أن حكاية القول جاءت بصيغة الجمع ، الأمر الذي قد يلهم أن هذا لم يكن رأي شخص خاص وإنما هو تعبير عن رأي الكثيرين من زعماء مكة ونبهاؤها ، ومحبي الآية عقب الآية السابقة قد يلهم أن الآيتين متصلتان في المناسبة لا سيما أنهما ليستا مختلفتين في المدى ، فقد يكون القول الذي حكته هذه الآية هو ما كان يعتذر به أولئك الأشخاص المحببون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذين كان يحرص على هداهم بصورة خاصة .

ومهما يكن من أمر فالآية تلهم أن أصحاب القول الحكي ، من الفريق المعتدل الذي ينجح إلى الاعتذار الهادي ولا يعنف في الرد والتكذيب والجحود .

(٧) في سورة الإسراء الآيات التالية :

« وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ... »

وتتضمن الآيات مشهداً خطيراً من مشاهد العهد المكي ، ومضمونها وروحها يلهمان أن الطرف الثاني في المشهد هم زعماء معتدلون ممن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر الاتصال بهم ويتوسم الاستجابة منهم وأنهم عرضوا عليه بعض المروض حتى يتابوه ويتخذوه صديقاً لهم وخليلاً ، وأنه خطر بباله أن يتساهل بعض التساهل معهم حرصاً على هدامهم ، ولكن الله عصمه ؛ لأن فيما طلبوه شيئاً من الشذوذ عما أوحى الله إليه من أسس الدعوة .

وقد روى المفسرون والرواة في صدد الآيات عدّة روايات ، منها أن فريقاً من الكفار اقترح على النبي أن بسكت عن شتم آلهتهم وتحجيرها ، ومنها أن الاقتراح هو التساهل في الإبقاء على تقاليدهم مدة من الزمن ، ومنها أن الاقتراح هو السماح لهم بتكريم آلهتهم بعض التكريم ، ومنها أن الاقتراح هو إلمام النبي بآلهتهم - أصنامهم - ولمسها كما يفعل بالحجر الأسود .

ومن هذه الروايات أنه جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى صلواته في فناء الكعبة مع المسلمين بقوة إلحاح المعتدلين من الزعماء الكفار ووعودهم بالاستجابة وفي أثناء تلاوته سورة النجم - بعض فقرات ليست منها - حيث قال بعد آيات « أفراء يتم اللت والعزى . وَمَنَوَاتُ الثَّالِثَةُ الْآخَرَى » هذه المقاطع : « تلك الفرائيق الملا . وإن شفاعتهن لترتجى » ؛ فلما سجد سجد الكفار معه وقالوا إن محمداً ذكر آلهتنا بالخير ، وأن هذا الخبير انتشر حتى وصل إلى المهاجرين في الحبشة على صورة مكبرة وهي : أن أهل مكة استجابوا للدعوة وصلوا مع النبي فعاد كثير منهم إلى مكة .

وقد فند كثير من المفسرين وكتاب السيرة الرواية الأخيرة ، وبينوا ما فيها من عطل ، وقرروا أنها افتراء على النبي صلى الله عليه وسلم دسه بعض أعداء الإسلام . ومنهم من قال إن هذه المقاطع قالها الكفار رداً على النبي حينما تلا آيات النجم وذكر آلهتهم بالتسفيه والتسخيف ؛ بل منهم من قال إن الشيطان هو الذي تفوه بهذه المقاطع في معرض

الرد والدس ، أو إن الشيطان هو الذي ألقاها على لسان النبي ، وإن آيات سورة الحج ٥٢ - ٥٤ هي متصلة بهذا المعنى .

وروح الآيات وصيغتها وظروف نزولها تثبت من الوجهة الجدلية عدم انطباقها على أية رواية من روايات وأقوال حكاية الفرائيق ، كما أن آيات سورة الحج غير متصلة بالمرّة بها كما يأتي الكلام عليها في مناسبة أخرى ؛ والرواية تشير إلى أن النبي قد قال قولاً ، في حين أن الآيات تقول إنه كاد ، أي لم يقع منه قول أو فعل ؛ وسياق آيات النجم لا يمكن أن يحتمل استطراداً من هذا القبيل ، لأنه مصبوب على تسفيه الكفار ؛ وسورة الإسراء نزلت قبل منتصف العهد ولم يكن المهاجرون إلى الحبشة قد هاجروا إليها بعد ؛ هذا إلى أن النبي والمسلمين كانوا في انزعاج دائم ، وكان الضمفاء منهم في أشد أدوار محنة الأذى ، فلم يكن من الممكن أن يقيموا الصلاة جهرة في فناء الكعبة ...

وكل ما تلمسه الآيات ما قلناه في شرحها ، وهو عرض بعض المعتدلين ببعض اقتراحات تساهلية ، وميل النبي إلى الجنوح إلى شيء من التساهل حرصاً على هدايتهم ، ولكن الأمر لم يتعد الخاطر إلى الفعل ؛ ولا نستبعد أن يكون الاقتراح بعض ما ذكرته الروايات التي أشرنا إليها . وهكذا يتكرر هذا المشهد الذي بدأ في أوائل البعثة فنزلت به آيات القلم : « فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » . وتكراره يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما فتى بيدي حرصه الشديد على كسب فريق من الزعماء لدعوته حتى ليعتلج في نفسه أن لو سايرهم شيئاً ما ؛ لأن بقاء الزعماء بعيدين عنها ومعارضين لها هو الذي أبقاها في نطاقها الضيق الحرج ، كما يدل أيضاً على أن الفريق المعتدل من زعماء الجاحدين كان لا يفتأ يبحث عن وسيلة إلى حل وسط يقرب بين النبي والجاحدين ؛ غير أنه لم يكن ليحصل ؛ لأن في الحل الوسط شائبة من الشرك ومساومة في دين الله الحق ، وإنما أرسل الله رسوله لمحاربة الشرك بكل أنواعه ، وليكون الدين كله لله ، وليحقق الحق حتى لا يبدي الباطل ولا يعيد ؛ فكان أن ثبت رسوله في الموقف الذي لا يحتمل مساومة ولا تعدداً .

وجملة « لقد كدت تركزن إليهم شيئاً قليلاً » بنوع خاص تدل بقوة وصراحة على أن ما خطر بباله من الجنوح للتساهل قد كان شيئاً غير مهم ، مما يصح أن يوصف بأنه إنما كان اجتهاداً فيه خلاف الأولى الذي في علم الله وحسب .

ولقد جاء في آخر سورة القصص الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادِ قَلِّ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ . وَلَا يَصُدُّكَ عَن آيَاتِ اللَّهِ بِمَدِّ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ... (١)

٨٥ - ٨٨

وسورة القصص تأتي في الترتيب قبل سورة الإسراء مباشرة ؛ ويلمح في الآيات شيء مما جاء في آيات سورة الإسراء بصراحة أكثر ؛ إذ احتوت أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يشهد الله على المهتدي من الضال ، وتنبيهاً له بالأب لا بظاهر ولا بواد الكافرين ، وبالأب يدعمهم يصدونه عما أنزل الله إليه ؛ وبالأب يأتي بأي شيء فيه أي معنى من معاني إشراك أحد غير الله مع الله ؛ ويلهم هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخلج في نفسه مسامرة الزعماء شيئاً ما رغبة في كسبهم إلى صفه ؛ ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء من الفئة المعتدلة التي كان لا يرى منها عنفاً في الصد والمعارضة ويتوسم فيها الارعواء .

(١) لقد ذكر بعض الرواة عن ابن عباس رضي الله عنه أن هذه الآيات نزلت في الجحفة في طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأن في الآية الأولى جواباً على ما اعتلج في صدره من حرقة من جراء خروجه من مكة ، في حين روى بعض الرواة عن ابن عباس أيضاً رواية مغايرة لهذه الرواية في صدد الآيات ؛ وهذا التفسير يسوغ التوقف كما هو المتبادر . هذا بالإضافة إلى أن مضمون الآيات يسوغ ترجيح صرفها إلى موقف حجاج ومشهد مساجلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكفار وتثبيت لثني فيه .

وتكرر الإشارات إلى هذا النوع من المشاهد؛ قد يدل على أن مفاوضات الزعماء المعتدلين ومساجلاتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتكرر من حين إلى آخر .
(٨) في سورة يونس الآيات التالية :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ . وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَفْلَحُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... »

١٨ - ١٥

والآيات تتضمن حكاية موقف طالب وحجاج مواجه بين النبي وبعض الكفار ، وقد روى المفسرون أن الطلب المحكي في الآية الأولى : هو قرآن لا يحتوي تسفيه أحلامهم وتسخيف عقائدهم وتقاليدهم .

ومهما يكن من أمر فأسلوب الآية هادي يلمهم بقوة أن الذين طلبوا واعتذروا وأمر النبي بمساجلتهم واعتذارهم ، هم من الفريق المعتدل الذي ينجح إلى النقاش بدون عنف وقوة ...

(٩) في سورة الأنعام الآية التالية :

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ... »

١٠٩

والخطاب في « يشعركم » هو للنبي والمسلمين ويلهم أن من المسلمين من كان يتمنى

أن يستجيب الله طلب الكفار فيظهر لهم معجزة فلا يبقى لهم مجال للاعتذار فيسلوا فتتصر الدعوة .

والذي نرجحه أن هذا لا يعقل أن يكون إلا من طرف أناس معتدلين ، كان الاتصال بينهم وبين المسلمين قائماً ، وكان موقفهم يبعث في نفوس هؤلاء أملاً بارعواهم وانضمامهم إليهم .

وفي هذا الذي تلهم الآية صورة للحالة في بعض أدوار العهد المكي ، إذ كان المسلمون على صلة مع الفريق المعتدل من الكفار ، وكان الفريقان يتحاجان ويتناظران في أمر الدعوة ، وكان المسلمون يبذلون جهدهم في إقناع الكفار ويحرصون كل الحرص على كسبهم ، وكان هؤلاء يعتذرون بالأعذار المتنوعة ، ومن جلتها أنهم كانوا يخلفون لهم بأنهم سيؤمنون إذا ما رأوا معجزة مؤيدة لنبوة النبي .

ولقد جاءت بعد قليل هذه الآية :

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . . . »

١١١

وتلهم روحها أنها بسبيل إقناع المسلمين وبالتالي تدعم ما ذكرناه آنفاً .

وفي سورة الرعد الآية التالية كذلك :

« وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ^(١) بَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِشْنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ

(١) في الكلام جملة مضمرة تقديرها « لما آمن الجاحدون » على اعتبار أن الإيمان إنما يكون عن الشراح صدر ورغبة ، وأن المطالب التعجيزية لا تصدر عن أصحاب النية الحسنة .

٣١

وَعَدُّ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ...

وتلهم روحها وصيغتها أن الجاحدين كرروا للمسلمين توكيدهم وتحديدهم ، وأن هؤلاء كرروا رغبتهم وأمنيتهم .

(١٠) في سورة سبأ الآيات التالية :

١ — « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِبَاءُكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . قُلْ لَا تَسْتَلُونَنَا عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْتَلُكُمْ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ... ٢٤ - ٢٦

٢ — قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِيُوحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرْدِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا

مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ

مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنْ رَبِّي

يَقْدِرُ بِالْحَقِّ عَلَّمَ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَطْلُ وَمَا يُعِيدُ . قُلْ إِنْ

ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ

قَرِيبٌ ... ٤٦ - ٥٠

ومجموعتا الآيات تتضمن أوامر ربانية للنبي بمناقشة الكفار ومساجلتهم في الحديث.

والأسلوب هادي يلمهم أن الطرف الثاني في الموقف هو من الفريق المعتدل الذي لا يمتنع

عند الاستماع والدعوة .

والآية (٤٦) من المجموعة الثانية لافتة للنظر . فهي موجهة إلى هذا الفريق لتدعوه

إلى التفكير الهادي الذي يكون فيما بين الواحد منهم ونفسه أو ضميره أو فيما بين اثنين

فقط بعيد عن الصخب والتشويش للذين يكونان نتيجة للنقاش في الاجتماعات العامة

وحينئذ يتبين له صدق دعوة النبي وكونه ليس مجنوناً وإنما هو مشفق عليهم من عذاب

الله ومنذر به . ولا مطمع له عندهم بأجر . ولعل في هذا صورة من صور المناوأة التي كان

الزعماء العنيفون يعمدون إليها حيث كانوا على ما هو المتبادر من نص الآية وروحها

يعقدون الاجتماعات العامة للدعاية ضد النبي والتشويش على دعوته ويغلبون بذلك الفريق المعتدل على أمره فاقترضت حكمة التنزيل توجيه الخطاب إلى هذا الفريق بهذا الأسلوب القوي النافذ إلى القلب والعقل معاً .

والصورة المذكورة قد أُشير إليها بصراحة في إحدى آيات هذه السورة وهي :

« وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُوا أَنْدَامَةً لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ٣٣

(١١) في سورة الزخرف الآيات التالية :

« أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ . وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْخَلْقَةِ وَهُوَ فِي الْخِطَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ بَلْ أَنْعَمْنَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ . أَمْ لَمْ يَلْمِزْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آئِمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آءِ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ... ١٦ - ٢٢

والآيات تتضمن تنديداً بعقائد المشركين ، وحكاية لأقوالهم واعتذاراتهم ؛ وتلهم أنها ترديد أو تعقيب على موقف حجاج مواجه بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والأسلوب هادئ وفيه حكاية أخذهم وردهم مع النبي اعتذاراً وتقريراً ، مما يلهم أن هذا الموقف إنما كان مع الفريق المعتدل الذي يمنح إلى الأخذ والرد والاعتذار ولا يعنف ويقسو في الجحود والتكذيب .

(١٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا يَا لَيْتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ

٥٧ - ٥٩

وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ...

وقد تضمنت الآيات تعقيماً على مشهد من مشاهد الجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار . فقد سبقها آية تنفي أن يكون الله قد جعل من دونه آلهة تعبد كما ترى في هذه الآية :

« وَسئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً

يُعْبَدُونَ ...

٤٥

فقالوا - على ماتلهم الآيات - كيف هذا والنصارى أهل كتاب وأنبياء ويعبدون المسيح ؟ ثم استوردوا إلى ادعاء أفضلية عقيدتهم بنوة الملائكة لله وعبادتهم إياهم على عقيدة النصارى بنوة المسيح لله وعبادتهم إياه ؛ والراجح أنهم بنوا هذا التفضيل على أساس أن الملائكة أقرب مماثلة لله من المسيح الذي هو إنسان له طبائع البشر ، وقد ردت الآية عليهم بأن عقيدة بنوة المسيح وعبادته باطلتان عند الله ، ثم تبع الآيات آيات أخرى بما كان من رسالة عيسى لقومه وبأن الانحراف إنما كان من عند أنفسهم كما ترى فيها :

« وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ ...

٦٣ - ٦٥

والمهم هنا بالنسبة لبحثنا هو أن الجدل من النوع الهادي الذي يلهم أنه إنما كان مع الفريق المعتدل الذي ينجح إلى البحث والنقاش في حدود ما يظنه المنطق .

(١٣) في سورة الكهف الآيات التالية :

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ

ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا . وَقَلِ أَلْحَقْ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ
وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَنفِثُوا
يُفَاثِقُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنْ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . . .

٢٨ - ٣٠

والآيات تأمر النبي بالصبر على صحبة المسلمين الخالصين منها كان أمرهم ، وعدم
الانصراف عنهم للاهتمام لأصحاب الجاه والمال ، وعدم الاستماع لهؤلاء ، وما قد يقترحون ،
ويعلن أن الحق الإلهي واضح جلي ، فمن شاء الخير لنفسه آمن ومن شاء الشر لنفسه
كفر ؛ وللمؤمنين الأجر العادل من الله .

وقد ذكرت الروايات في نزول الآيات أن بعض زعماء الكفار كانوا يستطيون على
الفقراء والمساكين من المسلمين بعدم الاستجابة إلى دعوة النبي ويعيرونه بهم ، ويطلبون
منه إقصاءهم عنه إذا ما جلسوا إليه أو جلس إليهم ؛ وأن النبي خطر لباله الاستجابة إلى
طلبهم أملاً بإسلامهم ، وأنه أخذ فعلاً يتشاغل عن تلك الطبقة أحياناً وخاصة حينما يتحدث
إلى الزعماء في أمر الدعوة انسياقاً وراء هذا الأمل .

وليس في الرواية مالا يتسق إجمالاً مع مضمون ومدى الآية الأولى كما هو المتبادر .
والمرجح أن الزعماء المحكي عنهم هم من الفريق المعتدل الذي لم تنقطع الصلة بينه وبين
النبي والذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسم فيهم الاستجابة ، والمشهد من المشاهد
الخطيرة في العهد المكي كما هو ظاهر .

وفي سورة الأنعام التي نزلت قبل سورة الكهف آيتان يمكن أن يكون فيهما مشهد
مائل ، وإن كانت آية الكهف أشد إيضاحاً له ، وهما :

« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ
مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ

الظالمين . وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ...

٥٢ - ٥٣

إذ احتوت أمراً للنبي بعدم طرد أصحابه المؤمنين الذين هم على الغالب أولئك الفقراء والمساكين، وحكاية سخرية الزعماء بهم؛ وينطوي في الأمر إلهام أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هم أن يفعل ذلك ليخفي مجلسه لأولئك الزعماء .

وآيات سورة عبس ١ - ١٢ التي نقلناها في مناسبة سابقة احتوت مشهداً مماثلاً أيضاً . وتكرار الإشارة إلى هذا في القرآن يدل على ماهو المتبادر على تكرار المشهد بين حين وآخر ، وعلى ما كان يتلجج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من الحرص الشديد على إسلام الفريق المعتدل من الزعماء على الأقل ، لأن الزعماء جميعهم على اختلافهم في الشدة والاعتدال كانوا القدوة للناس ، وكانوا المؤثر الأقوى في بقاء الدعوة في نطاقها الضيق ومركزها الحرج .

السُّورَةُ السَّابِعَةُ

هذا ؛ ونلاحظ أولاً أن الصور التي اقتبسناها للمواقف الهادئة والمعتدلة هي أقل بكثير من الصور العنيفة ، وثانياً أن سورة الكهف التي كانت آخر السور مقتبساً في مشاهد هذا القسم ليست من أواخر السور نزولاً ، إذ يجيء بعدها سبع عشرة سورة ، منها ثلاث طويلة نوعاً وثلاث متوسطة نوعاً ؛ وأنه لم يبد لنا مشهد بارز طرفه معتدلون في السور التي بعد الكهف في ترتيب النزول . وقد نبهنا على هذا التمهيد إذ قلنا إن طابع الاعتدال والهدوء بضعف فيما تضمنته سور القرآن الأخيرة من مشاهد في حين أن طابع العنف والشدة يستمر ملحوظاً في جميع السور إلى آخرها نزولاً .

ويمكن أن يقال في تعليل هذا إن استمرار الزعماء الطغاة في غلوائهم الذي كان من نتيجته اضطراب عدد كبير من المسلمين إلى الجلاء عن مكة إلى الحبشة ، والذي كان

من نتيجه كذلك ارتداد بعض المسلمين عن دينهم على ماسوف نذكره بعد - قد أثر تأثيراً شديداً في سير الدعوة أولاً ، وفي الفريق المعتدل حتى انجرف في العداة والصد ، أو انكشأ أكثر من ذي قبل عن الاتصال بالنبي والمسلمين ثانياً ؛ فلم تعد السور التي نزلت في الثلث الأخير من العهد المكي تردد مواقف ومشاهد طرفها الثاني معتدلون ، وانحصرت مضامين هذه السور في ترديد مشاهد الشدة والعنف ، والتنديد بالكفار وإنذارهم بسوء المصير ، وتصيير النبي والمسلمين والتنويه بهم ووعدهم بالنصر والتأييد وحسن العاقبة ، مما استفاد من السور المذكورة حين إنعام النظر في فصولها ؛ وقد استعرضنا أمثلة كثيرة منها في القسم الأول .

السورة الثامنة

وهناك فصول وآيات مكية عدة احتوت حملات على عقائد العرب وتقاليدهم ، ومكابراتهم ومواقفهم الجحودية بصورة مطلقة ، واصطنع بعضها بصيغة الجدل حيناً ، والتحدي حيناً ، والتسفيه والتنديد والسخرية حيناً ؛ واستعمل فيها ضمير المخاطب كأنما كانت تلقى مواجهة ، وانطوى فيها صور ومشاهد من العهد المكي ، ومواقف مما كان يحدث بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين - رأينا أن نلحقها بهذا المبحث للصلة الوثيقة بينها وبين موضوعه ؛ مع التنبيه إلى أن منها ما يمكن أن يكون بين النبي والزعماء العنيفين ، ومنها ما يمكن أن يكون بينه وبين الزعماء المعتدلين وإن لم يمكن تمييز ذلك بجزم أو ترجيح .

(١) فمن ذلك آيات في سورة النجم وهي :

١ - أَفَرَأَيْتُمْ آلَ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَتَمٌّ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أُنزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ سُلْطٰنٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأُنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ...

٢ - إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ...

٢٧ - ٢٨

وقد وجه الخطاب في الآيات الأولى إلى المشركين بأسلوب تنديدي لاذع ؛ ومما لا شك فيه أن النبي قد خاطبهم به مواجهة في إحدى المواقف بينهم وبينه .

(٢) ومن هذا الباب آيات في سورة الصافات وهي :

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَدَّكُرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ . فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... »

١٤٩ - ١٥٧

إذ وجه الخطاب فيها إلى المشركين بأسلوب لاذع كذلك ؛ ومما لا يتحمل شكا أن النبي قد خاطبهم بها في أحد المواقف المواجهة .

(٣) ومن ذلك آيات الأعراف التالية :

أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ . وَلَا يَسْتَعِينُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُواكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ . إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْعَثُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آعِينٌ يُنصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظَرُونَ . إِنْ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ . وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَعِينُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِنْ

تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ...

١٩٨ - - ١٩١

إذ احتوت حملة تنديدية لاذعة على شركاء العرب وأصنامهم فيها سخرية وتحذّر ، وفيها ما هو بمثابة موقف جدلي ، إذ وجه الخطاب في بعضها إلى المشركين . وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خاطبهم بهذا مندداً ساخرأ في موقف من المواقف المواجهة .

(٤) ومن ذلك الآيات التالية في سورة لقمان :

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّمِيرِ ..

٢١ - ٢٠

إذ احتوت تسفيهاً شديداً لما يحتج به المشركون من تفضيل اتباع الآباء ، وانطوى فيها تعقيب أو ترديد لموقف جدلي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) ومن ذلك الآيات التالية في سورة المؤمنون :

« بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْمَاءًا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وَعِدْنَا بَحْمَنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُلْ لَننِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ ...

٨٩ - ٨١

إذ احتوت حكاية لموقف مكابرة للجاحدين وتعقيباً عليه وأمرأ للنبي صلى الله عليه

وسلم بتوجيه الخطاب إليهم مفتحاً متحدثاً . ومن الطبيعي أن النبي قد وجه إليهم الخطاب في المشاهد المواجهة بينه وبينهم .

ومن هذا القبيل آيات في سورة النمل وهي :

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا بُشِّرُكُمْ . أَمَّا
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ
بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .
أَمَّا جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَمْ مَعَ اللَّهُ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّا يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَلَمْ مَعَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّا يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَمْ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا
عَمُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُنَا أُرْتَابًا لِمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وَعِدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَّآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

٥٩ - ٦٨

والتشابه في الموقف والحوار والمكابرة كبير جدا بين الفصلين القرآنيين كما هو ظاهر ، وإن كانت حكاية إنكارهم الآخرة جاءت في آخر الفصل هنا على حين جاءت في أول الفصل هناك ، وطبيعي أنه كان في سياق توجيه الآيات مشهد من المشاهد المواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين .

(٦) ومن ذلك الآيات التالية في سورة فاطر :

١ — يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ... ٣

٢ — يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ... ٥-٦

٣ — ... ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِنْ خَيْرٍ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ... ١٣-١٧

٤ — قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَمَنْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ... ٤٠

ففي هذه المقاطع هتافات بالناس ، في صدد الدعوة ، احتوت تذكيراً وتسفيهاً وإنذاراً ، ولا ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجهها إلى العرب في مواقف مواجهة كانت بينه وبينهم .

(٧) ومن ذلك الآيات التالية في سورة الأنعام :

« قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ

رَبِّكُمْ مَرَّجُمُكُمْ فَيَدْبُقْكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ فِيهَا تَخْتَفُونَ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِكُمْ إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفَقُّورٌ رَّحِيمٌ ...

١٦٥ - ١٦١

وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نفذ أمر ربه فوجه هذا المتناف إلى الناس في مشهد أو مشاهد مواجهة كانت تنعقد بينه وبينهم .

ومن هذا الباب آيات سورة يونس التالية :

١ — قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...

١٠٥ - ١٠٤

٢ — قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْخُلُقُ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَنِّ اهُتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ...

١٠٨

إذ كانت هذه المقاطع من دون ريب توجه للناس في مشهد أو مشاهد مواجهة تنعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم تنفيذاً لأمر ربه .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

(٨) ومن ذلك فصل طويل في سورة الأنعام في صدد تقاليد دينية للمشركين في الأنعام والندور نقله في المقطعين التاليين :

١ — وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرِبُّهُمْ يُعَدِلُونَ . قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَنِكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمُ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيِزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمُ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ...

١٤٣ - ١٥٣

وقد احتوت الآيات حملة تقريرية لازعة على سحق تقاليد المشركين في الأنعام والنذور وتحليلهم وتحريمهم الكيفي ، كما احتوت تعليماً للنبي بمجادلتهم في ذلك ، وأجوبة منهم في هذه المجادلة . . . والظاهر أنهم احتجوا بما عند اليهود من محرمات وأنهم ليسوا بدعاً ، فردت عليهم أن ما حرّمه الله هو الرجس والفسق ، وأنه إذا كان حرّم على اليهود شيئاً آخر فإنما ذلك عقوبة خاصة بهم ؛ ولقد احتج المشركون بأن ما هم عليه بمشيئة الله ، فعلت الآيات النبي الرد عليهم وتحديهم ، ثم استطردت إلى أمر النبي بإعلامهم بأن ما حرّم الله من أعمال ودعا إليه من مكارم هو وحده الذي يجب أن يتبع .

وهكذا احتوت الآيات مشهداً جديلاً أو ترديداً وتعقيباً أو تعليماً لموقف جدلي مواجه قد وقع حتماً تنفيذاً لأمر الله وتعليمه ، بين النبي وفريق من زعماء المشركين ، ويبدو أنه من أهم المشاهد والمواقف الجدلية الموضوعية . وأسلوب الآيات قد يلمح أن الطرف الثاني في هذا المشهد كان فريقاً معتدلاً أكثر منه عنيفاً عاتياً .

ولقد جاء بعد هذه الآيات فصل متصل بالموقف كما ترى فيما يلي :

« ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِتَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ... »

١٥٤ - ١٥٧

إذا استمرت فيها الدعوة بقوة دامغة ، فالله آتى موسى الكتاب ثم أنزل القرآن مصداقاً لما سبقه من كتب الله بلسانهم فيه النور والهدى والرحمة والبيّنات ، لئلا يحتجوا بأن الكتب السابقة بغير لسانهم ولم يتيسر لهم الاطلاع عليها ودراستها ويعتذروا ويقولوا لو أنه أنزل علينا كتاب بلساننا لكنا أهدى من أصحاب الكتب السابقة .

ويتصل بالموضوع الذي احتواه القسم الأول من الآيات آيات أخرى في سورتي يونس والنحل فيها ترديد أو تعقيب أو تعليم لموقف حجاجي وتنديدي في صدد المحرمات وفي آيات سورة النحل عطف على بعض ما جاء في القسم الثاني من الآيات في صدد المحرمات اليهودية كما ترى فيما يلي :

١ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ، اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظُنُّوا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ... »

يونس ٥٩ - ٦٠

٢ - إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَنَمْلَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَقَالَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . . .

التحل ١١٥ - ١١٨

وتكرار الكلام على الموضوع يدل على أن الحجاج في صدره ظل يتكرر ، وبالتالي على أنه من المواضيع المهمة التي كانت وسيلة للحجاج والنقاش بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين الذين كانوا على صلة ما بالنبي والمسلمين أو المشركين بوجه الإجمال .

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

ومما هو جدير بالتنبيه ومتصل بهذا الباب ، التشابه الموجود بين ما حكته القصص القرآنية عن رسالات الأنبياء السابقين لأقوامهم ومواقف أقوامهم منهم - سواء منها ما كان عربيا غير توراتي كقصص هود وعاد وصالح وثمود وشعيب ومدين ، أو توراتياً كقصص نوح ولوط وموسى وفرعون وبني إسرائيل وداود وسليمان ويونس الخ - وبين ما احتوته الآيات القرآنية من حكاية مواقف جاخدي العرب وأقوامهم ، وما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيهه إليهم من هتاف وخطاب وتنديد وإنذار ؛ ففي هذا التشابه حكمة من حكم تلك القصص ، وورودها مكررة بأساليبها المتنوعة ، إذ كانت تنزل في مناسبات مواقف الجاحدين المتكررة والتنوعة ، لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما يلقاه من قومه - من جحود أكثرتهم الساحقة وتكذيبهم له ونسبتهم إليه السحر والافتراء والجنون ، وتحديهم إياه بالآيات والخوارق ، واتخاذهم هو والمسلمين معه موضع سخرية وهزاء واستخفاف ، واستكبارهم ومكابرتهم وعنادهم ومؤامراتهم ومكرهم

ومكايدهم - قد لقيه من قبله من الأنبياء والرسل ، وللتنديد بالجاحدين بأن ما يقع منهم قد وقع مثله من قبلهم أيضاً ، ولإنذارهم بأن الله محيط بهم ومنكل كما أحاط ونكل بمن سبقهم من أمثالهم ؛ وهكذا يصح أن يقال إن القصص القرآنية تحتوي بطريقة غير مباشرة صوراً لمشاهد ومواقف للجاحدين في العهد المكي الذي نزلت جميعها تقريباً فيه .

ومن هذه القصص ما جاء مسهباً ومنها ما جاء مقتضباً ، وهي منبثة في سورة الأنعام والأعراف وهود وإبراهيم والحجر ومريم وطه والأنبياء والفرقان والشعراء والنمل والقصص والمنكبات ويس والصفات وص وغافر وفصلت والزخرف والدخان والأحقاف وق والقمر والقلم والحاقة ونوح والفجر ؛ ومن التطويل الذي لا حاجة إليه نقل نصوصها هنا ؛ وإن المتعمن فيها ثم المتعمن في الآيات والفصول التي نقلناها في هذا المبحث ، والتي سنقلها في المباحث التالية ، ليجد التماثل بينها قويا ويسلم بصحة ما نبهنا إليه في صدها .

وتنبه خاصة في هذا الصدد إلى ما ورد في القرآن ولم يرد في التوراة من قصص إبراهيم صلى الله عليه وسلم مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه ، وهي مبثوثة في سور الأنعام وإبراهيم ومريم والأنبياء والشعراء والمنكبات والزخرف ؛ ففي هذه القصص تنديد بالأصنام وعبادتها ، وتبرؤ إبراهيم صلى الله عليه وسلم منها ومن قومه وأبيه بسببها ، وإعلانه إسلام وجهه لله وأنه كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ؛ وفيها تعقيبات بالدعوة إلى الاقتداء به والتنديد بجاحدي العرب بسبب شذوذهم عن الطريق الحق . وعدم ورود هذه القصص والمواقف في التوراة مما يسوغ القول أنها ما كان متداولاً معروفاً في أوساط العرب كرويات ومنقولات عربية

عن الآباء إلى الأبناء استتباعاً لصلة الأبوة التي كانت متداولة معروفة بين العرب على ما ذكرناه في كتابنا عصر النبي وبيئته . وثمة حكمة من حكم التنزيل في إيرادها ، هي تذكير العرب بما كان عليه أبوم ، والتنديد بهم لمخالفتهم إياه إلى الشرك والوثنية وبالتالي يصح أن يكون فيها مقاصد ومواقف وهتافات توجيهية للعرب السامعين كما هو المتبادر .

المبحث الرابع

الصلوات بين المسلمين والكفار

بالإضافة إلى ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار من محاورات ومساوالات ومشادات عنيفة حيناً وهادئة أو معتدلة حيناً فقد كان يحدث مثل ذلك بين بعض المسلمين والكفار أيضاً . وإذا لم يكن هذا متصلاً بالسيرة النبوية مباشرة فإن فيه صوراً من صور العهد الكفى في ظل هذه السيرة وكأثر من آثارها حيث يبرر ذلك استعراض هذه الصور في مبحث خاص .

(١) في سورة يس الآية التالية :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ... »
٤٧

حيث ينطوي فيها صورة لمحاورة جرت بين بعض المسلمين والكفار في صدد مبادئ الدعوة الإسلامية وبخاصة في صدد السير بالفقراء والمعوذين تم عما كان من المسلمين من اهتمام للتبشير بهذه المبادئ والحض على إطعام الفقراء ومن الكفار من العناد والكابرة والاحتجاج الساخر برغم ما فيه من بطلان . والصورة على كل حال من دلائل التلاقي والتساجل بين الفريقين كما هو واضح .

(٢) في سورة الأنعام الآيات التالية :

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَابِتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .
وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ... »

والخطاب في الآية الأولى وإن كان موجهاً إلى النبي «صلم» أو بصيغة المفرد فإن صيغة الجمع في الآية الثانية تبرر القول بأن الصورة لم تكن بين النبي «صلم» والكفار فقط بل كان يشترك فيها غيره من المسلمين . وأنها تفيد أن المسلمين كانوا يختلطون مع الكفار ويجلسون في مجالسهم .

والآيات لا تنهي عن المخالطة . وإنما تنهي عن الجلوس مع الكفار أثناء خوضهم في آيات الله خوفاً مؤذياً لنفوس المسلمين حيث يبدو من هذا أن المصالح والملاقات كانت متشابكة بين الفريقين . ولم يكن بينهما قطيعة ولا مقاطعة . وقد توخت الآية مراعاة ذلك فلم توجب المقاطعة والقطيعة وإنما أمرت بعدم الجلوس مع الكفار بدينهم حينما يخوضون في آيات الله .

(٣) وفي سورة الأنعام أيضاً هذه الآية :

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا يَكُلُّ أُمَّةٌ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... »

١٠٨

وقد روى المفسرون أن بعض زعماء قريش قالوا للنبي «صلم» « لتكفن عن سب آلهتنا ولنشتن إلهك » فنزلت الآية . والآية في صيغة الجمع التي تلهم أنها موجهة للمسلمين حيث يتبادر أن بينها وبين الأمر الذي احتوته الآيتان السابقتان (٦٨ - ٦٩) اللتان أوردناهما آنفاً صلة ما . وحيث يحتمل أن يكون بعض المسلمين ردوا بسب شديد على الذين سمعوا يخوضون في آيات الله خوفاً مؤذياً في مجلس من المجالس ، فقولوا بالمثل ، فاتقتضت الحكمة تنزيل الآية على سبيل التهذئة والتنبيه .

(٤) وفي سورة الأنعام كذلك الآية التالية :

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ يَمًّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ

لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوا كُمْ وَإِنْ أظْمَأْتُمْوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ...

١٢١

وهذه الآية تنمة لفصل فيه إباحة بأكل ما ذكر اسم الله عليه . وقد روى المفسرون أنه كان من عادة الكفار ألا يأكلوا من القرابين التي تذبح لله أو لألهتهم وأن يأكلوا ما يموت حتف أنفه بدون ذبح ومن دون أن يذكر اسم الله عليه . وأنه صار يقع جدال بينهم وبين المسلمين بسبيل ذلك فاقترضت حكمة التنزيل إجماع الفصل . والمتصل بالموضوع هو صورة المجادلة التي كانت تقع بين المسلمين والكفار حول هذه الأمور حيث يفيد هذا ما تفيد الآيات السابقة من التعامل والتواصل والتلاقي بين المسلمين والكفار .

(٥) وفي سورة الأحقاف الآية الآتية :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا آفِكٌ قَدِيمٌ ... »

١١

حيث يفيد مضمون الآية أن بعض المرئيين تحاججوا مع بعض الكفار ودعوم إلى الإيمان كما آمن غيرهم فأجابوهم بهذا الجواب الذي فيه اعتداد ومكابرة واستخفاف بالذين آمنوا . وحيث يفيد هذا ما أفادته الآيات السابقة من التواصل والتلاقي بين المسلمين والكفار .

(٦) وفي سورة مريم الآية التالية :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ... »

٧٣

حيث ينطوي في الآية صورة أخرى من صور اعتداء الكفار بما كانوا عليه من قوة ومال وحسن استمتاع وتبجحهم في ذلك على المؤمنين الذين لم يكن لأكثرهم مثل

ذلك . ومن المحتمل القوي أن يكون هذا وقع في موقف من مواقف الجدل . وأن المسلم دعا الكافر إلى الإسلام حتى ينال رضا الله وثوابه فأجابه بما حكته الآية على سبيل الزهو والاستفناء . وفي الصورة ما في الصور السابقة من دلائل التلاقي والتواصل والتحاور بين الفريقين .

(٧) وفي سورة العنكبوت هذه الآية :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا نُم بِحَمْلَيْنِ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ... »

١٢

وقد روى المفسرون أن أبا سفيان قال لبعض المسلمين ما حكته الآية . ومهما يكن من أمر فالآية احتوت هي الأخرى مشهداً من مشاهد الحوار والمساجلة الهادئة بين بعض المسلمين والكفار . ومن المحتمل أن المسلم ذكر الآخرة وما أعده الله للمؤمنين من نعم وثواب وللكافرين من عذاب وعقاب وطلب من الكافر أن يؤمن لينجو من العذاب والعقاب وينال النعم والثواب فأجابه بما حكته الآية من جواب فيه طرافة مع العناد والمكابرة .

(٨) ويسلك في هذا الباب ما شرحناه في البند (٨) من الفقرة (٥) من البحث السابق من دلالة آية سورة الأنعام (١٠٨) وآية سورة الرعد (٣١) على ما كان يقع من تواصل وتحاور بين المسلمين والكفار حيث كان بعض الكفار حينما يطلب المؤمنون منهم أن يؤمنوا مثلهم يحلفون لهم إنهم مستعدون لذلك إذا ما جاءتهم آية أي معجزة تقنعهم !

المبحث الخامس مُشَاهِدُ التَّحْدِي

مدى هذه المشاهد وبواعثها - كثرة التحدي والموقف السلبي الذي يمثله القرآن المكي لإزاءه - فصول قرآنية صريحة بعيدة المدى في الدلالة على الموقف السلبي من التحدي - ما يلهمه هذا الموقف من آثار في سير الدعوة وموقف الزعماء - تحديات متصلة بالقرآن خاصة - تحديات مقابلة لها - تحمل المشركين بعربية القرآن - القرآن ليس معجزة تحد وإنما هو معجزة بذاته - الموقف السلبي في صدد المعجزات . أما البراهين والخطاب والحجاج فيها لمجارية قوية - ما تلهمه الآيات من حكمة الموقف السلبي - مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود - استدراك في صدد معجزات انشقاق القمر والإسراء والمعجزات المروية والتأييدات الربانية للنبي - المقصد من المعجزة التي كلن الموقف سلباً من تحديها - الإسراء والمعراج حادثان خاصان بالنبي ولا يدخلان في نطاق معجزة التحدي - بحث في معجزة انشقاق القمر - التأييدات الربانية التي تسمى معجزات لا تدخل في نطاق معجزة التحدي - استدراك في صدد وجوب الإيمان بقدرة الله على المعجزات ووجوب الإيمان بما أخبر به القرآن منها - مشهد من مشاهد العهد المدني حول الإسراء النبوي .

الصُّورَةُ الْأُولَى

من أهم مشاهد التشاد والجدل التي كانت تقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء العرب في مكة نتيجة للموقف السلبي والمدائي الذي وقفوه منذ البدء ، مشاهد التحدي المتقابلة ؛ فإن الزعماء لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بطبيعة بشرية مثل طبيعتهم ، ورأوا في دعوته تحدياً لزعامتهم ، وتهديداً لمكانتهم ، وضربة على تقاليدهم المتنوعة ، ومبعث خوف على إمامة مكة ومركزها ومنافعها المادية والمعنوية - وقفوا منذ البدء موقف الإنكار والجحود والصد والتعطيل ، والتهويش والتضليل ، واستمروا في هذا الموقف الشديد العنيد ، واتخذوا نعتهم بالجنون والسحر والشعر والكذب والكهانة والاتصال بالشياطين والتعلم والاقتباس الخديداً يكررونه في كل مناسبة ، تدعيماً لذلك

الموقف ؛ وإن كان بعضهم فعلى هذا مع الاعتدال وبدافع الشك والارتياب فحسب . ولم يسكت القرآن لهم على هذا الموقف بطبيعة الحال ؛ فرد عليهم منذ البدء ، ثم استمر في رده بندد بأقوالهم ويحمل عليهم حملات قارعة لازعة ، ويكذبهم ، ويسفهمهم وينذرهم ويتوعدهم بمختلف الأساليب من جهة ، ويثبت النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده في موقفه ودعوته ، ويؤكد صدق دعواه وأقواله من جهة أخرى ، مما هو منتشر في مختلف السور والفصول القرآنية في مختلف أدوار التنزيل المكي ؛ وقد نقلنا منه أمثلة كثيرة فيها الكفاية .

ولقد كان من جملة ردود القرآن ، تقرير كون الأنبياء السابقين هم من البشر مثل النبي صلى الله عليه وسلم سواء بسواء ، وكون النبي ليس بدعاً في رسالته ودعوته وبشريته كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ...
الفرقان ٢٠

٢ — وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ مِنْ اٰهْلِ الْقُرَىٰ ...
يوسف ١٠٩

٣ — قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ...
الأحقاف ٩

٤ — وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَسْتَلُوا اٰهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوْا خَالِدِيْنَ ...

الأنبياء ٧ - ٨

فوقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآني من تحديهم ، وأخذوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات والآيات برهاناً على صدق دعواه أولاً ، ثم أخذوا يدعون مطالبهم بتحد آخر ، وهو سنة الأنبياء السابقين الذين جاءوا بالآيات والمعجزات كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلْمَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَعِ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيِكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ...

الإسراء ٩٠ - ٩٣

٢ — وَقَالُوا بَأْسًا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ...

الحجر ٦ - ٧

٣ — وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ...

الفرقان ٧ - ٨

٤ — فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخُلُقُ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ...

القصص ٤٨

٥ — بَلْ قَالُوا أَضُفْتُ أَحْلَمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ...

الأنبياء ٥

ولعل ما جاء في آيتي القصص والأنبياء وأمثالهما من أقوالهم المحكية قد كان مع ما يحتمل أن يكونوا عرفوه من أخبار الأنبياء عن طريق الكتابين ، بناء على ما كان يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم من قصص الأنبياء التي أخذت تنزل فصولها منذ عهد مبكر واحتوت أخبار تحدي الأمم السابقة لأنبيائها وأخبار الخوارق والآيات التي حدثت على أيديهم .

ولقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم . كثيراً حتى حكى القرآن المسكي ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة ، عدا ما حكى عنهم من

التحدي الضمني ومن التحدي بالإتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل عن مواعده .

ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدي المتكرر كان سلبيا ؛ إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية ، أو إلى احتوائه ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحي الله به ، ثم آيات انشقاق القمر التي سنعرض لها بعد ؛ كما ترى في الأمثلة التالية :

٥ - وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْ لَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ
الأولى ... طه ١٣٣

٦ - أَوْ لَمْ يَكُن لَهُمْ آيَةٌ أَن يَفْعَلَهُ عُلَمَاؤُا بَنِي إِسْرَائِيلَ . . .
الشعراء ١٩٧

٧ - وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرِيحَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ...
العنكبوت ٥٠ - ٥١

٨ - وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ...
العنكبوت ٥٣ - ٥٤

٩ - وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...
الملك ٢٥ - ٢٦

الصورة الثانية

بل هناك ما هو أبعد مدى في الدلالة على الموقف السلبي المذكور يتجلى في بعض الفصول القرآنية ، منها آيات الأنعام ١٠٩ - ١١١ التي نقلناها في البحث السابق والتي استلهمنا منها أن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحدي الكفار وإظهاره معجزة تبتهمهم فيؤمنون برأى بآيمانهم ؛ إذ اقتضت الحكمة الإيحاء بالآيات استمراراً بالموقف السلبي

ومملأ بما تأويله : « إن الله يعلم من الكفار نية العناد والمكابرة وأنه لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا إلا أن يشاء الله ، لأن الإيمان لا يتوقف على المعجزات وإنما هو منوط بحسن القصد وشرح الله صدر المرء به . »

ولعل آيات الحجر والأنعام التالية .

١ — وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ...
الحجر ١٤ - ١٥

٢ — وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ...
الأنعام ٧

من هذا الباب من ناحية تأكيد نية المكابرة والعناد في الكفار ، والاستمرار في الموقف السلبي من أجل ذلك .

وفي الأنعام آية وجه الخطاب فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، تدل على أنه هو نفسه كان يتمنى أن يحدث الله على يده آية تبهت الكفار وتحملهم على الإذعان تأثراً بموقف الإعراض والصد والتحدي الذي يقفونه وهي :

« وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ
سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَابِتٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ... »
٣٥ - ٣٦

والموقف والتعليل متجليان في الآيتين كما هو واضح .

وفي سورة هود آية عظيمة المفزى من ناحية شعور النبي صلى الله عليه وسلم هذا ، وهي هذه :

« فَلَمَّا تَرَى تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقًا بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا

لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنْ مَأَّ أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ ...

١٢

إذ تكشف عما كان يخالج نفس النبي صلى الله عليه وسلم من حيرة وضيق بسبب
تحدي الكفار إياه بالمعجزات ، حتى لقد كان أحياناً يهيم بتفادي تلاوة بعض ما يوحى به
إليه عليهم أو يكاد صدره يضيق به لتوقعه منهم التحدي .

وقد روى الرواة في صدد الآية ما فيه توضيح أكثر ، إذ قالوا إن الكفار كانوا
يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى إليه الآيات
القرآنية فيسخرون منه ويقولون هلا استنزلت ملكاً أو كنزاً بدلاً من هذه الآيات ؟
فكان ينجل ويتهرب منهم أحياناً !

وَنَمْتَدُّ أَنْ مِنَ السَّائِغِ أَنْ يُقَالَ إِنْ هَذَا الْمَوْقِفُ السَّلْبِيُّ كَانَ مِنْ عَوَامِلِ تَكَرُّرِ
التَّحْدِي مِنْ جَانِبِ الزُّعْمَاءِ الْمَكَابِرِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَانْقِلَابِ أَسْلُوبِهِمْ فِيهِ إِلَى التَّعْجِيزِ حِينًا
كَأَنَّ ظَاهِرَ فِي آيَاتِ الْإِسْرَاءِ ٩٠ - ٩٣ وَإِلَى السَّخْرِيَةِ حِينًا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ فِي آيَاتِ الْحَجْرِ
٦ - ٧ وَفِي آيَةِ الْأَنْفَالِ التَّالِيَةِ الَّتِي وَرَدَتْ لِلتَّذْكَيرِ .

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْأُلْحُوقُ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ
السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... »

٣٢

كما كان دعامة لصدوم وتعطيلهم وخبث دعايتهم ومكروهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم
ودعوته أيضاً ؛ بل لعله كان من أسباب تمسك المعتدلين بمجودهم أولاً ، وانجرافهم مع
لماعدين أخيراً .

الصورة الثالثة

ومن الجدير بالذكر والتنبيه في صدد هذا الموقف ومشاهده أن حجة كفاية القرآن
كآية كانت سبباً لتحديات أخرى متصلة بالقرآن نفسه حكيت عن الكفار بطلب الإتيان
بقرآن غيره أو تبديله أو إنزال القرآن جملة واحدة ، ثم بنعته أنه من أساطير الأولين

وأنه قول بشر وأنه مفتري ، ويقولهم إنهم لو شاءوا لقالوا مثله كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَإِذَا تُمْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ^(١) ...
الأنفال ٣١

٢ — وَإِذَا تُمْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نُبُوءٌ مِنْ أَنْبِيَاءِ قَوْمِكُمْ يُزَكُّونَهُمْ أَتَمْتَلَوْا مِنْهُ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْحَصْبَ لَأَسْمَعْتُمْ أَرْسَالَ الْغُلَامِ إِذْ يَقُولُ لِخُطْبَتَيْهِ هَاتِي إِلَيْنَا آيَاتِكُنَّ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...
يونس ١٥

٣ — وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَهُمْ ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ أُكْتَبَتْهَا فِيهَا تُمْتَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ...
الفرقان ٤ - ٥

٤ — وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ...
الفرقان ٣٢

فكان ذلك التحدي القرآني لهم بالمقابلة بالإتيان بكتاب من عند الله أو بعشر سور مفتريات أو بسورة مثله أو بحديث منه كما ترى في الآيات التالية :

١ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...
يونس ٣٨

٢ — أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورَةٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...
هود ١٣

٣ — قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِثْلِ هَذَا هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...
القصص ٤٩

(١) هذه الآية وإن كانت مدنية قد جاءت في جملة آيات تذكر بما كان من مواقف وأقوال الكفار في مكة .

٤ — أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَاهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ ...
الطور ٣٣ - ٣٤

ثم كان الإفحام القرآني بتقرير مجزم أفراداً وجماعات عن ذلك ؛ كما ترى في
الآيات التالية :

١ — وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . . . (١)

البقرة ٢٣ - ٢٤

٢ — فَإِلْمٌ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَهَلْ أَتَىٰ مُسْلِمُونَ (٢) ...

هود ١٤

٣ — قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ...

الإسراء ٨٨

٤ — فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . . . (٣)

القصاص ٥٠

وهكذا تكرر التحدي من الكفار وتكرر التحدي المقابل من القرآن بحيث يصح
أن يقال إنهم كلما وصفوا القرآن بوصف من تلك الأوصاف الكاذبة تحدام القرآن تحدياً
قويًا مفحماً ولاذعاً يتجلى فيه الاستعلاء وتلقين الثقة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ؛
وأعلن مجزم عن الاستجابة وكذبهم فيما يدعون ويتحدون .

(١) هذه الآيات مدنية وهي تسجل استمرار عجزهم عن الاستجابة للتحدي .

(٢) هذه الآية جاءت بعد التحدي الذي احتوته الآية التي قبلها .

(٣) كذلك هذه الآية فإنها جاءت بعد التحدي الذي احتوته الآية التي قبلها .

ونقلت النظر خاصة إلى آيات البقرة التي هي مدنية ، إذ تسجل وقوف الكفار موقف العاجز طيلة العهد المكي بتمامه أمام التحدي القرآني وتقرر أبدية استمرار المعجز منهم بعد ذلك .

وواضح أن في هذا التحدي المتقابل مشاهد من السيرة في عهدها المكي بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين ؛ وليس من شك في أن الزعماء هم الذين كانوا الطرف الثاني لهذه المشاهد .

ومما يتصل بهذا الباب آيات في سورة فصلت يستلهم منها صورة طريفة لموقف من مواقف المشركين الحجاجية إزاء القرآن وهي :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ... »

٤٤ - ٤١

والظاهر أن المشركين قالوا فيما قالوه في مواقف التكذيب والتحدي إن الكتب السماوية هي بغير اللغة العربية ، ورأوا في عربية القرآن شذوذاً عن ذلك فاعتبروا هذا ثغرة يمكن مهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم منها فنزلت الآيات تندد بهم لكابرهم وتمحلهم . وفي سورة الشعراء التي نزلت قبل سورة فصلت آيات فيها شيء من هذه الصور وهي :

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ... »

١٩٩ - ١٩٨

مما يمكن أن يلهم أن هذا التحمل منهم وقع في أكثر من موقف واحد وظرف واحد .

هذا ؛ ونعتقد أن مما يصح قوله مع هذا كله ومع الإيجابية القوية التي تنطوي في تحدي القرآن للكفار ، أن المعجزة القرآنية إنما هي معجزة لذاتها وماهيتها وليست معجزة تحد ، أي أن القرآن لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على تحدي الكفار ، بل ولم تنزل آيات منه بناء على طلب أو تحد ؛ وإن هذا كان وسيلة من وسائل المكابرة والجحود كما تلهمه آية سورة يونس ١٥ التي نقلناها وكما تلهمه هذه الآية من سورة الأعراف :

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ^(١) قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِيَّايَ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... ٢٠٣

وإنما نزل عليه لاصطفائه من قبل الله بالرسالة والتنزيل ، وكان وظل تنزيله وكنه الوحي به مما هو خاص الإدراك فيه وحده ؛ وأن هذا من هذه الناحية يؤيد القول الذي قلناه استنتاجاً من نصوص القرآن عن الموقف السلبي العام تجاه تحدي القرآن .

الصورة الرابعة

وتنبه مع ذلك إلى أن الموقف السلبي الذي تمثله النصوص القرآنية لم يكن سلبياً بوجه عام إلا من ناحية الإجابة على التحدي بالإيجاب . أما من ناحية الحجاج والبرهنة والتدليل والتنبيه إلى أهداف الدعوة النبوية فإنها كانت إيجابية كل الإيجابية ؛ وهذه نقطة جديدة بالتنبيه في صدد الرسالة المحمدية وخصائصها من دون ريب .

ففي سياق الرد على جحود الكفار لوحدية الله وإشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة ، وفي سياق البرهنة على وحدة الله واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ووجوب وجوده واتصافه بصفات الكمال ، وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عقائدهم الشركية والوثنية الأخرى كعقيدة بنوة الملائكة لله ، وفي سياق إثبات حقيقة الحياة الأخرى وعذابها وثوابها وقدرة الله على إعادة الخلق الذي بدأه وما ينطوي في هذه

(١) يظهر أنهم كانوا يقترحون على النبي موضوعاً بعينه فإذا لم يجيبهم سخروا منه قائلين : هلا اخترعتها !

الحقيقة من حكمة العدل والحق والتزهد عن البعث ، وفي سياق الدعوة إلى الأعمال الصالحة وتقبیح الأعمال السيئة على أنواعها وإثبات أن هذا إنما هو لصالح الإنسانية وخيرها وسعادتها ، وبعبارة واحدة : في سياق الدعوة إلى أهداف الرسالة المحمدية المتنوعة قد ورد في القرآن المكي آيات وفصول كثيرة جدا فيها من قوة الحججة ونصاعة البيان ، واستحكام البرهان ، وأسلوب الخطاب الموجه إلى العقل والقلب معاً ما فيه كل الإيجابية وما لا يسع أي منصف حسن النية والرغبة غير متعمد للعناد والمكابرة إلا التسليم به ، ولم تر حاجة إلى إيراد الأمثلة ؛ لأن هذه الآيات والفصول منتثرة في جميع السور المكية بل تكاد تكون نصوص القرآن المكي مقصورة عليها .

ويقال هذا كذلك فيما احتواه القرآن في سياق رده على الكفار تهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم ونعمتهم إياه بالساحر والشاعر والمجنون والمفتري والكاذب وللتعلم ، ونعمتهم القرآن بالمفتري وأساطير الأولين الخ - من الردود القوية كل القوة ، واللاذعة أنكى اللذاع ، والمفحمة أقوى الإفحام ، والدامغة أشد الدمغ ، وبأساليب تتجلى فيها صميمية النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه واستغراقه في مهمته تجلياً رائعاً مما هو منتثر في سور القرآن وقد نقلنا منه أمثلة عدة في الفصل الأول مما يصح أن يعد إيجابياً في بابه أيضاً ، كما يقال هذا بتمامه كذلك في تحدي القرآن للكفار بالقرآن نفسه أيضاً .

وهذه النواحي الإيجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة لحكمة ذلك الموقف السلمي ، بحيث يصح أن يستلهم منها وأن يقال - وقد ألمع إلى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً - إن حكمة الله اقتضت ألا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته التي جاءت بأسلوب جديد هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة ، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك

والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هذا الأصل النقي البسيط ، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار أن الدعوة التي تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات .

وفي هذا ما فيه من وضوح مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود والتعميم . وآيات الأنبياء السابقين الخارقة لحادثات وقعت وانقضت ، ولكن أسلوب الدعوة القرآنية هذا الذي اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة على بعض أولئك الأنبياء هو أسلوب خالد حي قوي في كل زمان ومكان ببراهينه ودلائله وحيويته ونفوذه وفصاحته ومعقوليته ومنطقه وسموه ؛ ولذلك كان وظل معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحي .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

نقول ما قلناه ونحن نعرف ...

(١) أن كثيراً من المفسرين قالوا إن آيات سورة القمر الأولى احتوت خبر معجزة انشقاق القمر فعلا في مكة ، ورووا أحاديث عدة مؤيدة لقولهم ، وفي بعضها ما يفيد أن هذه المعجزة قد وقعت جواباً على تحدي الكفار .

(٢) أن حادث الإسراء الذي ذكر بصراحة في الآية الأولى من سورة الإسراء يسلك في عداد المعجزات النبوية ، ومثله حادث المعراج الذي ذكر ضمناً على رأي بعض العلماء في بعض آيات سورة النجم .

(٣) أن في القرآن تأييدات ربانية للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين في بعض المواقف والأزمات وخاصة في أثناء الجهاد ، كما أن فيه ما يدل على أن النبي صلى الله عليه

وسلم قد اطلع على بعض الأمور المغيبة مما عد في عداد المعجزات النبوية .
(٤) أن في كتب السيرة والحديث والشئائل روايات كثيرة عن معجزات نبوية
منها ما روي أنه وقع في مكة جواباً على تحدي الكفار .
غير أننا في الحق نرى الموقف السلبي الذي تمثله آيات القرآن عاما قويا من الصعب
أن يتفحصه ذلك .

ونقول قبل كل شيء إننا نقصد بالموقف السلبي عدم إجابة تحدي الكفار النبي صلى
الله عليه وسلم بالإتيان بمعجزة ؛ وهذا المفهوم الذي هو طابع ذلك الموقف قد صار مصطلحاً
عليه في تعريف المعجزة النبوية . فإذا ما استعرضنا الآيات التي تحكي تحدي الكفار وترد
عليه بصورة عامة - وهي كثيرة وواردة في مختلف أدوار التنزيل المكي وقد استعرضنا جملة
منها - وجدناها تمثل ذلك الموقف تمثيلاً تاماً ؛ ثم وجدنا إلى جانبها آيات كثيرة واردة في
مختلف أدوار التنزيل المكي مما استعرضنا منه جملة أيضاً تؤكد أن الله لم ينزل آيات ولم
يستجب إلى تحدي الكفار ؛ لأنه يعلم أن المتحدين إنما يتحدون عناداً ومكابرة وأنهم لن
يؤمنوا ولو جاءتهم أقوى الآيات وأعظمها .

وإذا ما دققنا في مدى آية الإسراء :

« سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِمَعْبُدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ... » ١

وجدنا أن الإسراء النبوي الذي أشارت إليه الآية لم يكن جواباً على تحد . وإنما
كان حادثاً خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ليريه ربه من آياته ، وأنه لم يدركه ويشعر به
غيره ؛ واستطعنا بالتالي أن نقول إنه لا يدخل في مدى اصطلاح المعجزة ، ولا يصح
أن يعد والحالة هذه ناقصاً للموقف السلبي العام . ونصل إلى النتيجة نفسها إذا ما دققنا
في مدى آيات النجم التي قال بعض المفسرين إنها تضمنت خبر المعراج النبوي وهي :

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ النَّارِ .
إِذْ يَفْشَى السُّدْرَةَ مَا يَفْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
الْكُبْرَىٰ ... »

١٣ - ١٨

وهذا بغض النظر عما هناك من أقوال وروايات مختلفة في كيفية وظروف
الحادثتين ، حيث هناك روايات بأن كليهما رؤيا منامية ، أو أنهما كانا في اليقظة والجسد
والروح ، أو بالروح دون الجسد ، أو بأن الإسراء كان باليقظة والروح والجسد دون
المعراج الذي كان مناماً أو كان بالروح ، أو بأن حادث المعراج النبوي لم يقع وإنما الواقع
الثابت هو حادث الإسراء ، أو بأن الإسراء كان في وقت والمعراج في وقت آخر ، أو
بأنهما كانا في ظرف واحد ، وبأنهما وقعا في أوائل البعثة ، وفي أواسطها ، بل هناك قول
بأنهما وقعا قبل البعثة بسنة .

وانشقاق القمر الذي ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآيات تشير إليه :

« أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ
مُّسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَلَّأَ أَمْرَهُمْ شَيْطَانٌ فَخَرٌّ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْفُتُورُ ... »

١ - ٥

موضوع بحث ونظر ؛ فالسورة من المبكرات في النزول أولاً ، ولم يحك في السور
النازلة قبلها عن الكفار تحد وطلب بإتيان معجزة ثانياً . وقد حل بعض المفسرين تعبير
« اقتربت الساعة وانشق القمر » على معنى أنه مقترب وأنه منشق على نحو « أتى أمر
الله » و « اقترب للناس حسابهم » إذ الجمع عليه أن المعنى هو أن أمر الله آت لا ريب
فيه وأن حساب الناس مقترب الأوان من دون شك ، وقالوا إن الآيات بسبيل ما كررت
آيات كثيرة ذكره من تبدل نواميس الكون عند قيام الساعة ، مثلاً :

١ - إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . . .

التكوير ١ - ٣

٢ — فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ
يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْقَمَرُ ...
القيامة ٧ - ١٠

ولم يأخذوا بالروايات الروية عن انشقاق القمر فعلا في مكة والتي فيها بعض
الاختلاف (١) .

ومن الجدير بالتنبيه أن الحادث لم يشر إليه ثانية في السور والفصول القرآنية المكية
التي نزلت بعد سورة القمر وهي أكثر مما نزل قبلها ، مع أنها حكمت تحديات الكفار
بطلب الإتيان بالآيات مرارا وتكراراً ، ومع أنها أشارت ثانية إلى أثر حادث الإسراء
في آية من آيات السورة نفسها على ما ذهب إليه جمهور المفسرين وهي :

« ... وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ... الإسراء ٦٠ »

فهذا السكوت عن الحادث على خطورته ، وخاصة إزاء تكرار تحدي الكفار
قد يلهم وجاهة توجيه الذين لم يأخذوا بالروايات وصرفوا العبارة القرآنية إلى أشراط
الساعة كما هو المتبادر ، وهذا منسجم كما هو ظاهر مع الموقف السلبي العام الذي
نبهنا إليه .

أما التأييدات والإلهامات الربانية للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين التي تضمنت
أخبارها آيات قرآنية عدة مثل آيات سورة الأنفال هذه :

(١) - ١ في البخاري ومسلم أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم
انشقاق القمر مرتين . ونقل الترمذي الحديث بزيادة . فنزلت « اقتربت الساعة . . . إلى قوله :
سحر مستمر » .

٢ - في البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
فلقين فلقه فوق الجبل وفلقه دونه ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا .

٣ - في البخاري ومسلم عن ابن عباس أن القمر انشق في زمن رسول الله .

٤ - في مسلم عن ابن عمر قال : انشق القمر على عهد رسول الله فلقين فستر الجبل فلقه وكانت
فلقه فوق الجبال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهدوا .

٥ - في الترمذي عن جبير بن مطعم : انشق القمر على عهد رسول الله فصار فرقتين ، فقالت قريش :
سحر محمد أعيننا ! فقال بعضهم : لئن سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم ! وزاد غيره :
فكانوا يلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم .

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...

٩ - ١٣

ومثل الذي جاء في سورة الأحزاب :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ...

٩

ومثل الذي جاء في سورة التحريم :

« وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّكَ إِذْ جِئْتَنِي فَكُنْ عَلَيَّ ذَلِيلًا وَمَنْ يُؤْتَ الْوَيْدَانَ فَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...

٣

فإنها كما هو ظاهر من نصوصها وروحها لا تدخل في عداد معجزات التحدي ، وبالتالي فإنها ليس من شأنها نقض الموقف السلبي العام الذي تمثله الآيات القرآنية . بقيت المعجزات المروية وخاصة التي يقال إنها وقعت في مكة بناء على تحدي الكفار ، ونعتقد أننا على صواب إذا قلنا إن سكوت القرآن عنها مع كثرة تحدي الكفار ، واقتصار الأجوبة القرآنية على السلب - لا يمكن أن يشجما على التسليم بصحتها . هذا

إلى أن الروايات غير متواترة ولا وثيقة ، وكثير منها إن لم نقل أكثرها لم ترد في المدونات الصحيحة أو القديمة . إلى ما فيها من تخالف كبير في الوقت نفسه .

وفي سورة الإسراء آية على جانب عظيم من الدلالة والمضى في صدد ما نحن بسبيله وهي :

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ... »

٥٩

حيث تضمنت تقريراً ربانياً صريحاً بأن الله عز وجل امتنع عن إظهار المعجزة على يد النبي صلى الله عليه وسلم إجابة على تحدي الكفار . وتعليلاً صريحاً لذلك وهو أن الأمم السابقة قد كذبت بالآيات التي أظهرها الله على أيدي أنبيائه وأنها لم تحقق المقصود منها . ويلاحظ أن هذه الآية نزلت بعد سورتي النجم والقمر بمدة غير قصيرة . وهي من السورة التي فيها الآية التي تذكر حادث الإسراء النبوي . وهذه الملاحظة مهمة جداً إذ أن الآية تتعارض مع معجزة انشقاق القمر إذا صحت الأحاديث الواردة في ذلك وتكون ناقضة لها . والقرآن يمنع احتمال التعارض والتناقض فيه على ما جاء في آية سورة النساء هذه :

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ... »

٨٢

وواضح أن تقريراتنا ليست بسبيل إنكار المعجزة واستحالة خرق العادة على الله على يد نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإنما هي بسبيل تأكيد الموقف السلبي من التحدي بالمعجزة الذي تمثله الآيات القرآنية . أما ما يخرج عن نطاق اصطلاح معجزة التحدي فإنه لا يصح أن يكون ثمة أي ريب في وقوع تأييدات ربانية للنبي يصح أن تسمى معجزات ولو لم تكن من معجزات التحدي ، ومنها ما أخبر به القرآن على ما ذكرنا من أمثلته ، وفيه تأييد حاسم ؛ هذا إلى أن المعجزة الربانية على أيدي أنبياء الله

مما أخبر بوقوعه القرآن بنصوص صريحة ، والإيمان به جزء لا ينفصل عن الإيمان بالقرآن ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، مع اليقين بقدرته الله عليها وهو الذي بدأ الخلق ويده . ملكوت كل شيء في كونه الأعظم ، مع التنبيه إلى أن كثيراً من الروايات المحتوية أخبار المعجزات النبوية مما يحتمل التوقف ويدعو إلى التحفظ ، وإلى أن أقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

هذا ؛ ولقد أشرنا إشارة خاطفة إلى آية في سورة الإسراء قلنا إنها تتضمن خبراً أثر حادث الإسراء النبوي ، وهي الآية التالية :

« . . . وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الَّامْلُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا ... »

٦٠

وقد رأينا أن نعود إليها لأنها تتضمن مشهداً من مشاهد العهد متصل بالحدث المذكور الذي تناوله الكلام في هذا البحث .

ومع أن هناك من قال إن الرؤيا المذكورة في الآية هي رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم المنامية التي رآها في المدينة بدخوله الحرم والتي ذكرت في سورة الفتح هكذا :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُوْلَهُ الرُّءْيَا بِأَلْحَقٍّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ ءَامِنِينَ مُخَلِّفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ... »

٢٧

كما أن هناك من قال إنها رؤيا منامية رآها النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن التي تقع بعده . مما فيه تكلف ظاهر . فإن الجمهور على أنها عنت حادث الإسراء . وهذا القول متسق مع مدى الحادث من جهة ومع الروايات الواردة عن ظروفه وأثره من جهة أخرى . ولقد قال الزمخشري: إن تعبير «الرؤيا» هنا يعني رؤيا البصر والبصيرة وليس رؤيا النوم ؛ وهذا هو المقول للحادث ومدى الآيات ؛ لأن رؤيا النوم ليس من شأنها أن تكون

فتنة للناس أو أن تثير شكاً وجدلاً ، ولأن آية الإسراء الأولى لا تساعد على القول بأن
حادث الإسراء كان مناماً إذا ما أنعم النظر فيها بالرغم من ذكر بعض الروايات ذلك .

وعبارة الآية (٦٠) تلهم أن حكمة الله شاءت أن يكون هذا الحادث الروحاني
النبوي اختباراً وفتنة للناس ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قص مشاهداته فيه
على الناس فكان فتنة لهم . ولم يزد هم هو والإنذار بشجرة الزقوم الآخروية إلا
طغيانا كبيرا .

ولقد وردت روايات في صدد هذا الموقف تنسق إجمالاً مع ما تلهمه الآية ؛ وملخصها
أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح من ليلة الحادث جاء إلى فناء الكعبة وحدث
الناس بأنه أسرى به الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكان من المستمعين
أبو جهل ، فلم يفاخته بالكذب والإنكار خشية إنكاره وتراجعه ، بل سارع إلى
الناس يدعوهم إلى استماع القصة من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سارع إلى دعوة أبي بكر
رضي الله عنه قائلاً له : إن صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ثم
أصبح في مكة ، وأن أبا بكر سأل : أو قال ذلك ؟ فلما أكد له قال : إنه لصادق ، ولو
أنه أخبر بأنه عرج به إلى السماء لكان صادقاً ؛ وإنه ليخبرنا أن خير السماء ليأتيه في لحظة
فنصده ! ثم جاء إلى الكعبة واستمع إلى النبي ثانية فصدقه وأيده ؛ وأن أبا جهل ورفاقه
اقترحوا على النبي أن يصف لهم بيت المقدس فكشف الله عن بصره ثانية وأخذ يصفه
فأذهل الناس ، ولكن أبا جهل ورفاقه المعاندين المستكبرين كذبوا واستنكروا واستغلوا
قصة الحادث في الصد والتكذيب أيضاً حتى استطاعوا أن يؤثروا في بعض المسلمين
فافتنوا وارتدوا عن الإسلام^(١) .

(١) انظر ابن هشام . ج ٢ ص ١ - ٢٠ وتفسير سورتي الإسراء والنجم في كتب تفسير الطبري وابن
كثير والحازن والبنوي .

المبحث السادس

محنة الأذى والفتنة وتأنيها

مدى وأثر هذه المحنة - أولى الإشارات القرآنية إلى الفتنة ودلالة تكبيرها -
العلبة الفقيرة غرض المحنة الأولى وبواعث ذلك - الإشارة إلى الهجرة الأولى
إلى الحبشة وسببها - التشجيع القرآني على الهجرة - هجرة أبناء بيوتات
قرشية ومداهها - تعليق على هجرة جعفر بن أبي طالب - تعليق على اختيار
الحبشة دار هجرة - تعليق على عدم محاولة الزعماء منع المهاجرين - تعليق
على غمز المستشرقين للمهاجرين - إشارة قرآنية ثانية إلى هجرة ثانية لبعض
الفتونين ومداهها - مشهد لارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر
وملابساته - حادث تبديل آية قرآنية بأخرى واستقلال الزعماء له وأثره -
إشارات قرآنية إلى تبرم المسلمين بالمحنة - محنة بعض المسلمين بأبائهم
الكفار - أسلوب من أساليب الزعماء في الصد والفتنة - تشجيع قرآني
على الهجرة إلى يثرب وأثرها العظيم - إشارة تنويفية إلى من قتل من المهاجرين
ومداها وملابساتها - قرائن قرآنية عدة في صدد محنة الأذى - نصوص
قرآنية مدنية في التعقيب والتذكير بالمحنة ودلالاتها - نصوص خاصة بشخص
النبي - تفكير النبي بالتزوح عن مكة في أواسط العهد المبكي - مؤامرة الزعماء
على شخص النبي وبواعثها - هجرته مع أبي بكر وأثرها الأعظم - ترجيح
عدم وقوع أذى بدني على النبي في مكة - نصوص مدنية في استمرار المحنة
على ضغائن المسلمين في مكة بعد الهجرة - فرار المؤمنين من مكة ومداه - بحث
في موضوع مقابلة المسلمين الأذى بالمثل في مكة واستعراض آيات قرآنية
في صده .

الصورة الأولى

لم يكتف الزعماء بمواقف الصد والمعارضة والتحدي النظرية ، بل إن بغاتهم
تجاوزوا ذلك إلى إيقاع الأذى على المسلمين واضطهادهم وفتنتهم^(١) عن الإسلام إلى
الكفر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

(١) جاءت كلمة الفتنة ومشتقاتها في القرآن بمعنىين : معنى الابتلاء والاختبار كما هو في الأمثلة التالية :

١ - وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا .

٢ - وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، ومعنى رد المسلمين عن دينهم كما هو في الأمثلة التالية :

١ - إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا . . .

٢ - والفتنة أكبر من القتل . . . وواضح أن البحث هنا هو فيما تناوله المعنى الثاني .

وقد كان لهذا التصرف منهم أثر خطير في سير الدعوة في العهد المكي بطوله ، بل يصح أن يقال إنه من أهم أحداث هذا العهد وأبعدها أثراً إن لم نقل إنه أهمها . ولقد احتوى القرآن آيات وفصولاً فيها مشاهد وصور متعددة لهذا الموقف ونتائجها ، كما أن آيات القرآن تدل على أن هذه الحفنة قد بدأت منذ الأدوار الأولى للدعوة ثم استمرت طيلة العهد المكي ، وأن بعض مستضعفي المسلمين ظل يكتوي بنارها إلى السنة الثامنة من العهد المدني . أما أهم نتائجها فهي الهجرات الأولى والثانية إلى الحبشة والثالثة إلى يثرب ، ولجوء النبي صلى الله عليه وسلم قبل هذا إلى الطائف .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

وسورة البروج هي أول سورة احتوت إشارة إلى فتنة المؤمنين والمؤمنات ؛ وقد جاءت آياتها كتمهيد احتوى إشارة إلى حادث فتنه وتحريق وقع على بعض المؤمنين في تاريخ سابق وحمله على المعتدي كما ترى فيها :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ . وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ . وَشَهِدِ وَمَشْهُودِ . قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... »

٩ - ١

وقد روى المفسرون في صدد هذه الآيات التمهيدية روايات^(١) منها أن تلميذاً لساحر أسلم على يد راهب نصراني في اليمن ، فمذبذب الملك الراهب والولد وقتلها ، وقد ظهرت لها بعض الكرامات بعد موتها فأسلم الناس وتركوا دينهم القديم ، فأمر الملك بحفر أخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء من لم يتب ويرجع عن دينه منهم فيه . ومنها أن بعض أبحار اليهود رحلوا من يثرب إلى اليمن وتمكنوا من تهويد ملكها

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير الطبري والبنغوي والطبرسي وابن كثير وتاريخ العرب قبل

المدعو بذى نواس ، وكان في اليمن نصارى فخرض الأبحار الملك على اضطهادهم ليرجعوا عن النصرانية إلى اليهودية ولكنهم امتنعوا فأمر الملك ببحر الأخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء المعاندين منهم في النار .

ومهما يكن من أمر فإن روح الآيات واكتفاءها بالإشارة الخاطفة إلى أصحاب الأخدود يلهم أن سامعي القرآن من العرب كانوا يعرفون حادث الأخدود وفتنة الناس به عن دينهم من دون ذنب إلا الإيمان بالله ، وأنه كان مما يثير في نفوسهم الامتعاض والنقمة ، فأشير إليه في مطلع السورة تمهيداً تنديدياً بالذين ارتكبوا مثله من زعماء مكة في حق الذين آمنوا بالنبي في مكة .

أما الآيات التالية لهذه الآيات فالإجماع منقذ على أنها بصدد حوادث اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم ، وروح الآيات ومضمونها يؤيدان هذا الإجماع ، وهذه هي الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ . إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ . وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ... »

١٠ - ١٤

وقد احتوت الآيات إنذاراً شديداً للفاتنين إن لم يتوبوا ويرتدعوا عن إثمهم ، وتنوياً بالمؤمنين وطمأنة لهم ، وسورة البروج من السور التي نزلت مبكرة جداً ، وهذا يدل على أن الزعماء قد أخذوا يؤذون المسلمين منذ عهد مبكر من الدعوة .

ويفهم من الروايات المروية عن هذه المحنة أنها أكثر ما وجهت إلى الأرقاء والمستضعفين من رجال المسلمين ونسائهم . ويبدو أن الزعماء لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم مستمرأفي دعوته رغم ما بدا منهم لها من معارضة ومناوأة وتكذيب وصد ، ورأوا أنها أخذت تستجاب من مختلف الطبقات ، وخاصة الطبقات الفقيرة والضعيفة التي رأت فيها ملاذاً وفرجاً وطمأنينة

نفس ، ورأوا أن النبي يشجع هذه الطبقة بتلقين القرآن ويدعو إلى البر بها ويهتم لأمرها
وتحريرها ورفع مستواها ، في حين أن الجماهير إنما كانت تتألف منها وكانت تقاسي الاضطهاد
منهم على ما ذكرناه قبل ، خشوا أن يستشري أمر الدعوة ويتسع في هذه الطبقة فتكون الثغرة
التي ينفذ منها إليهم ، وينهدم بها كيانهم ، فنجحوا إلى سدها منذ البدء باضطهاد من في
حوزتهم من أرقاء ، ومن يقدرون عليه من مستضعفين ، وإجبارهم على الرجوع عن الدين
الجديد ، كمنافاة عملية للدعوة ، ووسيلة لتخويف من تحدثه نفسه من عامة الناس وضعفائهم
وقرائهم بالالتحاق بها .

ولقد رويت روايات عدة عن هذه الحنة^(١) يفهم منها أنها كانت من أشد ما أم النبي
صلى الله عليه وسلم والمسلمين هما عظيما ، وأنه كان من صورها أن يمرى المسلم وي طرح فوق
الرمال والصخور المحرقة المتوجهة من شدة حرارة الشمس ، ويوضع على أجسادهم الصخور
الثقيلة ، ويمنع عنهم الماء والطعام ، وتقيد أيديهم وأرجلهم بقيود الحديد ، ويجلدوا بالأسواط
شديد الجلد ، وأنه كان من نتائجها إزهاق أرواح بعضهم ف ضربوا مثلا خالدًا على التمسك
بالعقيدة وتحمل أنواع الأذى والتضحية بالنفس في سبيلها ، وأن بعضهم كان يضطر إلى
إعلان براءته من الإسلام وعودته إلى الشرك ، وأن بعض أغنياء المسلمين وخاصة
أبا بكر رضي الله عنه كانوا يشترون الأرقاء المضطهدين من مالكيهم وينقذونهم
من الاضطهاد . وهناك روايات يستفاد منها أن عدداً من الذين لهم عصبية قرشية
اضطهدوا أيضاً بأساليب مختلفة من قبل ذويهم ، استياء من تبديلهم دينهم وتحولهم عن
تقاليدهم ، ومنعاً لاستشراء أمرهم وعدوهم أيضاً . فكان ذلك سبباً لهجرة كثير منهم إلى
الحبشة على ما سوف يأتي شرحه بعد .

ويلتفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين في الآيات ، وما في ذلك
من دلالة على أن من النساء من سارعن إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم منذ البدء
وبالرغم عن ضعفه وما كان يلقاه المسلمون من أذى واضطهاد ، وعلى أن منهن من تعرضن

(١) انظر كتب التفسير السابقة الذكر أيضا .

فملا للأذى والفتنة . وفي الروايات أسماء نساء مسلمات زهقت أرواحهن في سبيل التمسك بدينهن الجديد كالرجال .

الصورة الثالثة

وسورة النحل - التي يجيء ترتيب نزولها متأخراً بعض التأخر ويبدل على أنها نزلت في أواسط العهد المكي - قد احتوت إشارتين إلى هذه المحنة وإلى الهجرات كنتيجة لها : الأولى في الآيتين . التاليتين :

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ لِلْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ... »

٤١ - ٤٢

وفي الآيتين صراحة بأن الهجرة في الله إنما كانت بعد الظلم الذي وقع على المهاجرين ، كما أنهما احتوتا بشري بعناية الله بهم وبتبوتهم في هجرتهم مبرراً حسناً ، وتنويها بما كان من صبرهم واعتمادهم على الله . وكل هذا يدل على ما كان يلقاه المستضعفون من المسلمين من الأذى وعلى ما كان من صبرهم وقوة إيمانهم وروحهم إجمالاً .

ومن الجدير بالذكر أن سورة الزمر التي يجيء ترتيبها قبل سورة النحل بقليل ، قد احتوت آية فيها حث على تقوى الله والتمسك بدينه وتشجيع على الهجرة كما يستلهم منها وهي :

« قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ... »
١٠
فكأنما جاءت هذه الآية بالإذن للمظلومين بالهجرة ، ثم جاءت آيات النحل تحتويان إشارة إلى إقدامهم عليها فعلاً^(١) .

(١) مما يؤيد صحة استلhamنا بأن آية الزمر في صدد تشجيع الهجرة ، آية في سورة النساء ربطت الهجرة بأرض الله الواسعة وهي هذه : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . . ٩٧ »

وليس ثمة محل للشك في أن آيتي النحل قد تضمنتا الإشارة إلى الهجرة الأولى التي كانت إلى الحبشة في أواسط العهد المكي والتي تواترت الروايات فيها حتى بلغت مبلغ اليقين . وكانت على دفتين . حيث خرج في الدفعة الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نساء وفي الثانية ثلاثة وثمانون رجلاً وثمانية عشرة امرأة .

ولقد ذكرت الروايات أن النبي (صلم) قال للمسلمين لما اشتد الأذى عليهم: «لو خرجتم إلى الحبشة . فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» . فخرجت الدفعة الأولى وكلهم من قريش عدا اثنين كانا من حلفائهم . وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو . والزبير بن العوام من بني أسد . ومصعب بن عمير من بني هاشم . وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة . وأبو سلمة من بني مخزوم وزوجته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة . وعثمان بن مظعون من بني جمح . وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي وزوجته ليلي . وأبوسبرة بن أبي رهم العامري . وحاطب بن عمرو بن عبد شمس . وسهيل بن بيضاء من بني الحارث . وعبدالله بن مسعود حليف بني زهرة رضي الله عنهم .

وبعد شهرين من وصولهم إلى الحبشة بلغهم أن قريشا أسلمت فعادوا إلى الحجاز فوجدوا الخبر غير صحيح . وعاد ذووم إلى أذاهم واشتد الأذى على غيرهم فخرجت الدفعة الثانية التي كانت نحو ثمانية أضعاف الأولى . وفيهم معظم الدفعة الأولى . ومعظمهم كذلك من قريش . من بني هاشم . وبني أمية . وبني أسد . وبني عبد شمس . وبني نوفل . وبني عبد بن قصي . وبني عبد الدار . وبني زهرة . وبني تيم . وبني مخزوم . وبني جمح . وبني سهم . وبني عدي . وبني عامر . وبني الحارث . ومعهم نفر من حلفائهم من هذيل وبهراء ودوس وعنزوزيسد واليمن . ومن الرجال والنساء القرشيين من كان آباؤهم أو زعماء أسرهم أو أعمامهم من أشد المناوئين للنبي (صلم) .

وهذا الشرح يزيل ما قد يكون علق في بعض الأذهان من أن المهاجرين كانوا من الفقراء والمساكين . ومن أن القرشيين كانوا - وظلوا - ممتنعين عن الإسلام في العهد المكي .

ويظهر أن زعماء الكفار استعظموا أن يكون أبناؤهم أو أبناء عشائرتهم من رجال ونساء قد استجابوا إلى الدعوة الإسلامية ورأوا في ذلك إحباطا لجهودهم في مناوأتها . وإغراء لعامة الناس فاشتدوا في أذاهم واضطهادهم فاقترضت حكمة الله ورسوله الإذن لهم بالهجرة .

وباستثناء نفر من حلفاء قريش ونسائهم لا تذكر الروايات أسماء أرقاء ومساكين في جملة المهاجرين . وقد تبادر لنا تعليلا لذلك أن ضغط زعماء قريش كان أكثر شدة على أبناء أسرهم لأنهم تحسبوا من عواقب إسلامهم بالنسبة لعامة الناس وسائر شباب الأسر في حين أنه لم يكن ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والأرقاء ، والفقراء والغرباء . وهذه صورة مخالفة لما قد يكون في الأذهان .

ومن ذكرت الروايات أسماءهم في المهاجرين الأولين ، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولا ندري أكان هو أيضا مضطهداً من ذويه أو غيرهم فاضطر إلى الهجرة ، أم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ندبه ليكون وكيله في المهاجرين ورسوله إلى ملك الحبشة . ونحن نرجح هذا ، لأن بني هاشم كانوا ينصرون النبي صلى الله عليه وسلم مع احتفاظ أكثرهم بدينه ، ومن الصعب التوفيق بين موقفهم هذا واحتمال اضطهاد جعفر ، لا سيما أنه ابن رئيسهم الذي تولى قيادة النصر والتمصب للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما لا يحتمل أن يكون غيرهم قد اضطهده واضطره إلى الهجرة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ظل في مكة ولم يضطر إلى الهجرة ، وبالتالي لم يكن ضعيف المصيبة مضطهداً^(١)

أما اختيار بلاد الحبشة دار هجرة فمن الممكن أن يكون بالإضافة إلى الصفة التي وصف ملكها بها في الحديث المروي عن النبي (صلم) الذي أوردناه آنفاً بسبب تيسر السفر إليها ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحري في ظروفه ؛ على أننا نعتقد على كل حال

(١) مما رواه ابن هشام أن جعفر كان الذي يتكلم بلسان المهاجرين في مجلس ملك الحبشة مما يمكن أن يكون مؤيداً لترجيحنا (انظر ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠) .

أنه يمت إلى ما كان من ذهنية الحزبية الواحدة بين الدعوة الإسلامية ومعتقها وبين أهل الكتاب وخاصة النصارى ، وقد وطدتها في المسلمين آيات مكية عدة احتوتها السور التي نزلت قبل سورة النحل ، سواء ما كان في صدد استشهاد الكتابيين على صحة رسالة النبي ، أو ما تضمن صوراً لمواقفهم الإيجابية والإيمانية ، وقد نقلنا جملة من ذلك في المباحث السابقة مثل آيات الأنعام (٢٠) والقصاص (٥٢ - ٥٣) والإسراء (١٠٧ - ١٠٩) والشورى (١٣) والأعراف (١٥٧) ؛ بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل ، ولعل فيما روي أكثر من مرة عن إسلام النجاشي وغيره من الأقباش ووفادة بعضهم على النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين مستظلمين ما يستأنس به على صحة هذا الخاطر ؛ إذ يرى أثر نجاح هذه الدعوة في هاتيك الديار .

ولعل حادثة انتصار الأقباش لنصارى اليمن التي كانت حاضرة في أذهان العرب ، كانت ذات تأثير أيضاً في توجيه هذه الهجرة إلى هذه البلاد ؛ فالمسلمون بهذا يكسبون حليفاً قوياً تجمع بينهم وبينه الحزبية الدينية ، والمشركون يقع في نفوسهم شيء من الخوف والتوجس والجنوح إلى الارعواء بسبب توثق الصلة بين المسلمين وهذا الحليف القوي . وهذه الخواطر قد تفسر لنا آيات سورة الروم الأولى التي تضمنت الإشارة إلى ما كان من غم المسلمين لانكسار الروم وما احتوته من وعد الله بالنصر وفرح المؤمنين به إذ ذاك ، وماروي في صدها من استبشار المشركين بانكسار الروم :

« السَّمِ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَعْضِ سِنِينَ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ... »

ومن الجدير بالذكر أن روايات السيرة القديمة لم تذكر أن زعماء قريش حاولوا منع المهاجرين من الهجرة حينما أزمعوها ، كما أنها لم تذكر أن المهاجرين أُجبروا عليها إجباراً وطردهوا عن مكة طرداً ؛ وليس مما يرد أن يكون خروجهم خلصة لم يشعر به أحد إلا بعد أن ركبوا البحر ؛ لأنهم لم يكونوا قليلي العدد ، وقد يدل هذا على أن الهجرة إنما كانت تبرها من الإزعاج والمضايقة والقطيعة والاضطهاد ، ورغبة في التخلص منه ومن نتائجها التي قد تكون أذى أشد وقتنة عن الدين ، إلى حيث الأمن والحرية والطمأنينة . ولعل تعبير آية النحل « هاجروا من بعد ما ظلموا » يلهم هذا أيضاً . ولعل زعماء قريش ارتاحوا إلى حركة الهجرة لأنها ستضعف نشاط النبي صلى الله عليه وسلم وتقلل الناس الذين حوله من مختلف الطبقات ، والذين يمكن أن يؤثروا في غيرهم . وإذا كان ماروي من خبر إرسال قريش وفدًا إلى ملك الحبشة يقنعه بخطر المهاجرين ويغريه بطردهم ، ويشيره مع رجال الدين عليهم بما احتواه القرآن من إنكار ألوهية عيسى - إذا كان هذا صحيحاً ومحملاً لآي ما يمنع صحته جازان يكون هذا خاطراً عن علي بالهم مؤخراً توجساً من النتائج التي أُلغنا إليها آنفاً . وقد ذكر الخبر أن الإخفاق كان نصيب الوفد ، لأن ملك الحبشة رأى في المسلمين إخلاصاً ورأى في المبادئ الإسلامية اتساقاً مع المبادئ المسيحية الجوهرية ، وأن المسلمين لقوا عناية وبراً منه ؛ وهذا مصداق ما احتوته الآية « لنبوئهم في الدنيا حسنة » . وقد ذكر الخبر أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي كان لسان المهاجرين الناطق والمدافع في مجلس ملك الحبشة ، ويستأنس بهذا على ما قلناه في صدره قبل قليل ^(١) .

وتقد حاول بعض المستشرقين ^(٢) غز المهاجرين في صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم ، وفي رغبتهم في النجاة بأنفسهم وتخليهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وليس في هذا شيء من الحق من جهة ؛ وهو ملقي جزافاً بعقل اليوم المجرد وآت من

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٦٢ طبعة مصطفى البابي الحلبي .

(٢) كابتان في فصل الهجرة إلى الحبشة .

عدم معرفة ظروف البيئة النبوية والمهاجرين وتقديرها من جهة أخرى . فالذين هاجروا كانوا بين أمرين : إما أن يظلوا يتعرضون للأذى وقد تخون بعضهم أعصابهم فيضطرون إلى الارتداد ، وإما أن يصبروا حتى يودي الصبر بحياتهم ، وليس في هذامصلحة للمسلمين : ولقد وقعت الحالتان في بعض الذين أسلموا فليس في تفادي مثل ذلك بالهجرة محل للغمز ؛ بل هي دليل على تعلق المهاجرين بدينهم ، وخوفهم من الافتتان عنه ، وتضحيتهم بوطنهم وعائلاتهم وأموالهم - ومنهم من كان ذا مال كبير - في سبيله ؛ وفي هذا ما يستوجب الإكبار والثناء . وقد أثنى القرآن فعلا على صبرهم واعتمادهم على الله بعملهم ، وفيما قرره القول الفصل حتى من الناحية التاريخية ، لأنه نزل في ظروف الواقعة وبعد وقوعها . والغريب أن الغامزين يتجاهلون حالة واقعية متكررة وسائغة في كل ظرف ومكان منذ الأجيال البشرية الأولى إلى الآن وإلى ما شاء الله ، بسبيل شفاء النفس بالتعليق والغمز ...

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

أما إشارة سورة النحل الثانية فهي في الآية التالية التي تضمنت إشارة إلى مشهد من مشاهد الفتنة ، ومشهد من مشاهد الهجرة معاً :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ... »

١١٠

إذ يستدل منها على أن بعض المسلمين قد فتنوا عن دينهم وارتدوا ، ثم أنهم أو أن بعضهم سنحت لهم الفرصة للهجرة فهاجروا وعادوا إلى الإسلام والتحقوا بزمرة المجاهدين في سبيله والصابرين الثابتين عليه .

والراجح أن كلمة « وجاهدوا » في هذا المقام لاتعني جهاد الحرب ، وإنما تعني المجاهدة في الصبر وتحمل المشاق في سبيل الله ودينه ؛ لأن الآية مكية ، ولم يكن مجال للجهاد في هذا العهد كما لا يخفى . وقد استعمل التعبير نفسه في آية مكية أخرى في نفس المعنى الذي ذكرناه كما ترى فيما يلي :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ... »

العنكبوت ٦٩

وقبل آية النحل المذكورة آيات احتوت حملة على فئة من المسلمين ارتدت عن الإسلام واندجحت في الكفر ثانية وشرحت صدرأ به ، وهي :

« مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَمْ يَأْبُرْهُمْ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلُونَ . لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخٰسِرُونَ ... »

١٠٦ - ١٠٩

واستلهاماً من الآيات يمكن أن يقال إننا إزاء مشهد جديد من مشاهد الفتنة ذي مظهرين . واحد كان بدون إكراه . واستحباباً للحياة الدنيا على الآخرة الذي يعني على الأغلب أنه إغراء بمنافع دنيوية . وآخر بالإكراه . والراجع أن الآية (١١٠) من سورة النحل التي يجيء ترتيبها بعد الآيتين اللتين ذكر فيهما المشهد الجديد بمظهره قد عنت الفريق المقتون بالإكراه الذي وجد فرصة سانحة فنجأ وعاد إلى دينه القويم فاستحق التنويه والغفران الربانيين .

وقد جاءت الحملة على الفريق الأول شديدة متناسبة من دون ريب مع بشاعة العمل وسوء أثره الشديد . ونعتقد أنه كان له وقع أليم جداً على النبي والمسلمين للحادث بالذات أولاً ، ولما يمكن أن يحدثه أو أحدثه فعلاً من أثر سلبي في سير الدعوة ثانياً ؛ لاسيما أنه قد جاء على أثر هجرة عدد كبير من المسلمين فراراً من الظلم وتفادياً من الفتنة .

ولقد روى في صدد هؤلاء المرتدين أن ارتدادهم قد وقع حينما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخبر إسرائه من مكة إلى بيت المقدس ، وقد أشرنا إلى هذا من قبل ؛ ونحن لا نستبعد أن يكون خبر افتتان بعض المسلمين في سياق خبر ذلك الحادث ، ونتيجة تهويش

الزعماء واستفلاهم على ما ذكرناه قبل - صحيحاً ؛ بل إن صحة هذا راجحة استلهاماً من نص آية الإسراء (٦٠) « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » . غير أننا نرجح أن حادث الارتداد الذي أشارت إليه الآيات قد كان بسبب آخر ، وهو سبب وظروف ما حكته الآيات التي سبقت هذه الآيات من تبديل آية بآية ، وما كان من استفلال زعماء الكفار للمعاندين للحادث وتهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبة ينسبون إليه الافتراء والتعلم من الأعمى . وترجيحنا قائم على أن الآيات جاءت عقب آيات الحادث أولاً ، وقد سبق آيات الحادث آيات فيها تشديد على الوفاء بعهد الله وميثاقه ؛ وتأكيد بالناقضين وتنويه بالموفين بعهد الله والمستمسكين به . وهكذا تكون سلسلة الآيات آخذاً بعضها برقاب بعض .

والحادث على ما يبدو من آياته ومما سبقها ولحقها من آيات تتضمن آثاره ونتائج من الأحداث الخطيرة في العهد المكي ؛ سواء في ذاته أو فيما كان من استفلال زعماء الكفار له في سبيل الصد والفتنة ، أو فيما كان من آثاره ونتائج التي ذكرناها قبل . وهذه هي الآيات التي تتضمن الإشارة إلى الحادث :

« فَإِذَا قرأت القرءانَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَأَلَّمْنَا بِهَا بَدَلًا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ . وَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَآئِتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَآئِتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ... »

النحل ٩٨ - ١٠٥

وروح الآيات ومضمونها في الجملة يلهم أنها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن ،

ويلهم أنه أوحى للنبي صلى الله عليه وسلم ببعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى؛ فلما تلا الجديدة وأهل الأولى استغل زعماء الكفار ذلك، فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً، وينسبون إليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبي المعين؛ ولعلمهم قالوا إن الشيطان هو الذي يوسوس له ويلقي عليه لا الملك، وأن التبديل دليل على ذلك، فالشيطان محل خطأ والملك لا يصح أن يخطيء؛ واستغلوا الحادث في الصد والتأثير في بعض المسلمين، وتوسلوا بالإغراء إلى جانب الاستغلال والتهويش، وكان من نتيجة ذلك أن ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحجاباً لمنافع الدنيا معاً؛ فجمعت الآيات تثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وتهاجم الناصدين والمرتدين وتحمل عليهم الحملة الشديدة التي تمثلها الآيات؛ فليس للشيطان سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله؛ وإنما سلطانه على الذين يشركون به، وهم المشركون، وإن الله هو الأعم بمقتضيات حكمة التنزيل، وكل تبديل وتنزيل إنما هو من وحي الله وتنزيل روح القدس ملك الله الأكبر، وليس للنبي إلا اتباع ما يوحي به إليه؛ وإن الذين لا يؤمنون بآيات الله كما تنزل وفق حكمة تنزيله هم الكاذبون المقترنون، وهذا مما تنزه عنه النبي؛ والرجل الذي ينسبون إليه تعليم النبي هو أعجمي اللسان في حين أن القرآن عربي مبين؛ فحجتهم ساقطة بنفسها.. الخ. أما الآيات التي سبقت هذه الآيات فهي هذه:

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُوءُكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ بُضِلْ مِنْ بَشَاءٍ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتُسَلِّتُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَشْتَرُوا

بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . مَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَعُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنْجَزِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ...

النحل ٩١ - ٩٧

ومع أن الآيات عامة التلقين الأخلاقي والاجتماعي ، فإن روحها ، وبعض عباراتها
عند إتمام النظر فيها ، ثم ورود آيات الحادث ونتائج عقبا - كل ذلك يلهم أنها نزلت
بمناسبه ، وجاءت كحمله تمهيدية على الصادين عن سبيل الله والناقضين لهده ، واحتوت حثا
على الصبر وعدم نقض عهد الله بالثمن النبوي ، لأن ما عند الله خير مما عند
الناس . والتبادر لنا من روح الآيات ومضمونها أن نقض عهد الله فيها يعني نقض
عهد الإسلام .

وواضح أن نزول الآيات بمناسبة الحادث وما تضمنته من حمله وحث وتلقين في صدده
لا يتعارض مع عمومية تلقينها ، بل إن هذا هو الذي جرى عليه القرآن عامة ؛ فالآيات
والفصول القرآنية كانت تنزل بمناسبات أحداث ومشاهد السيرة ، مع تضمنها تلقينات
وتشريعات وتعليقات عامة مستمرة المدى . . .

الصورة الخامسة

في سورة العنكبوت مقاطع عدة متصلة بمحنة الأذى والفتنة ومشاهدها :

(١) فقد جاء في مطلعها الآيات التالية :

« السَّمِ . أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوَأَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ
فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ
فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ

لَعَنِي عَنِ الْعَالَمِينَ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ...

٧ - ١

وبعض الروايات يذكر أن الآيات مدنيات ؛ وطابع الآيات وأسلوبها ومضمونها يتسق مع رواية مكيتها كما هو المتبادر .

ويستلهم منها أن صبر بعض المسلمين على الإزعاج نفذ أو كاد ، وأن الضيق عليهم بلغ مبلغاً شديداً حتى أخذوا يشكون ويتذمرون ؛ فقد احتوت عتاباً متمزجاً بالتشجيع وحسن الوعد .

(٢) وقد تبع الآيات المذكورة الآيتان التاليتان .

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ... »

٩ - ٨

وبعض الروايات يذكر كذلك أن الآيتين مدنيتان نزلتا في مسلم اضطره والدها فعضاها وهاجر ، كما أن بعضها يذكر مكيتها ونزولها في حق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه التي غضبت من إسلام ابنها وأخذت تلح عليه بالارتداد^(١) ، ومكيتها هي الراجعة استلهاماً من مضمونها الذي يتسق مع كونها بحق مسلم في مكة متعرض لإلحاح والديه بالكفر أكثر منهما بحق مسلم عصا والديه وهاجر من مكة ؛ إذ تستهذفان تثبيت الابن المسلم في إسلامه فتقرران أن ليس على المرء لوالديه إلا الرفق والحسنى ، وليس عليه لهما الطاعة إذا أراداه على الكفر والشرك بالله . ويبدو أن في هذا استدراكاً لوصايا الله التي وردت مطلقة بحق الوالدين في سور متقدمة على هذه السورة ، مثل ما ورد في سورة الإسراء :

٢٣

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... »

(١) مما رواه الطبري في سياق تفسير آيات سورة العنكبوت أن سعداً رضي الله عنه قال لأمه (يا أمه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني)

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ . . . »
 العنكبوت ١٠ - ١١

والروايات تذكر أن الآيتين مدينتان ، وبعض عبارتهما مثل « ولئن جاء نصر من ربك » ومثل « والمنافقين » يمكن أن يقويا رواية مدينتهما ، لأنها أشبه بصور المدينة وظروفها ؛ غير أن محتويات القسم الأول من الآية الأولى هي مشاهد وظروف مكية في الغالب ، كما أن محتويات الآيتين التاليتين لها والمعطوفتين عليهما وها :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . . . »
 ١٢ - ١٣

هي مشاهد وظروف مكية أيضاً ، ولذلك فإننا نرجح مكية الآيتين ١٠ - ١١ ولقد احتوتا مشهداً من مشاهد الأذى والفتنة ؛ إذ تلهمان أن بعض المسلمين قد تضعفوا أمام الأذى والاضطهاد وعمدوا إلى النفاق للكفار ومسايرتهم .

(٤) أما الآيتان ١٢ - ١٣ ففيهما مشهد متم لذلك المشهد ، وأسلوب جديد من أساليب صد الزعماء عن الإسلام وإغراء المسلمين وفتنتهم ؛ إذ تلهمان أنهم كانوا يعمدون أحياناً إلى طمأنة المسلمين الذين يستشعرون فيهم عدم العمق في الإيمان أو انهيار الأعصاب فيتعهدون لهم بحمل ذنوبهم وخطاياهم إذا هم رجعوا إلى دين آبائهم وتخلوا عن الدين الجديد . والراجح أن الزعماء كانوا يستعملون هذا الأسلوب مع الذين لا يقدرّون على اضطهادهم من أهل العصبية من المسلمين . على أنه لا يبعد أنهم كانوا يقولون هذا القول للمسلمين في معرض الحجاج والجدل حينما كان هؤلاء يذكرون لهم

هول القيامة ومصير الكفار الآثمين فيها ، وإن كنا نرجح الأول بسبب مجيء الآيتين بعد آيتي الفتنة والأذى وما كان لهما من أثر في بعض الضعفاء في الأعصاب أو الإيمان :

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

في سورة الحج الآيات التالية :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ . يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ... »

١١ - ١٥

وأكثر الروايات على أن سورة الحج مدنية ، وبعضها يذكر أنها مكية . ولقد توصلنا في درسنا لفصول هذه السورة إلى أن أكثرها مكِّي وأقلها مدني ، والآيات التي نقلناها الآن من الآيات التي رجحنا مكيتها استناداً إلى أسلوبها ومضمونها .

ولقد احتوت على ماتبادر لنا مشهداً أو صورة تمت إلى مشاهد وصور محنة الأذى والفتنة التي تعرض لها المسلمون في مكة ، وأن فيها بعض المماثلة للمشهد الذي تضمنته آيتا العنكبوت (١٠ - ١١) ؛ إذ يظهر أن بعض المسلمين قد تضعفوا أمام المحنة ولم يطبقوا تحمل الأذى والاضطهاد أو المقاطعة والصبر عليها ، وأنهم أبدوا شكهم في نصر الله الموعود للمسلمين ؛ فنزلت تحمل على هذا النوع من الناس بأسلوب عام حملة لاذعة ، في سياق بيان مراتب الناس من عبادة الله والاعتراف به والإخلاص له ؛ فالخلص يجب أن يؤمل في رحمة الله ونصره وإن تأخرا ، وإذا لم ينلها في الدنيا فهو نائلها في الآخرة ، والإيمان

المشروط بالأينال صاحبه إلا النفع لا يليق بمؤمن صادق ، لأن الإيمان مسألة مستقلة لا علاقة لها بأعراض الدنيا المتقلبة على الناس ؛ ومثل المغيظ المحنق من بطء نصر الله ، والذي يرتد ويحسد من أجل ذلك ، مثل الذي يفتناظ من أمر ما فيعمد إلى شفق نفسه بالحبيل ، فهو في عمله غير مشتف من غيظه وغير ضار بأحد وغير مهلك إلا نفسه . وفي الآية الأخيرة خاصة معالجة روحية قوية نافذة من دون ريب في مثل الحالات التي جاءت بصدها ، كما أن مجموع الآيات هي في الوقت نفسه بسبيل طمأننة من تعرض للأذى والحрман بسبب إسلامه ، والتنديد بالذين لم يصبروا عليهما فحاصروا وارندوا . . .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

في سورة العنكبوت الآيات التالية :

يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا أَرْضِي بِمَا عَمِلْتُمْ وَأَنَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَكَأَيِّن مِّن دَآئِبَةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . . .

٦٠ - ٥٦

والآية الأولى متقاربة مع آية الزمر (١٠) التي أشرنا إليها في ققرة سابقة من هذا المبحث وقلنا إنها جاءت بين يدي الهجرة إلى الحبشة مثبتة مشجعة آذنة بالهجرة . ولما كانت سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن في مكة فإن من السائغ أن يقال إن هذه الآيات قد نزلت في ظرف اشتدت فيه الأزمة على المسلمين من جهة ، وتم فيه الاتصال الأول بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء يثرب ورحب هؤلاء بمن يريد أن يهاجر من المسلمين المضطهدين إليهم من جهة أخرى ؛ فاحتوت التثبيت والتشجيع والإذن ؛ ويحتمل بل يستلهم منها أن بعض المسلمين قد تهيئوا الهجرة وخافوا ، أن يلقوا حتفهم أو يلقوا العنت والحرمات وضنك العيش في دار الغربية ، فبثت الآيات فيهم الطمأنينة ونفت عنهم المخاوف ؛ فأرض الله واسعة وعلى عباده أن يعبدوه دون مبالاة بشيء ،

والموت على رقاب الناس جميعاً أينما كانوا فليس ثمة محل للتخوف منه ، والله الذي يرزق كل دابة وفي الدواب كثير لا يكسب رزقه - حقيق بأن يتكفل برزقهم فليس ثمة مبرر للخوف من الجوع والحرمان . . .

ولا نشك في أن الآيات قد بثت في نفوس الخائف الطمأنينة ، وأن حركة هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب قد بدأت وتوالت بعدها ؛ وهي الحركة التي كان فيها للمسلمين الفرج الأعظم من شدتهم ، والتي كان فيها بدء عظمة الإسلام وقوته وتعالیه بمد أن ظل في نطاق ضيق محفوف بالمحن والأخطار ؛ بل التي لو لم تكن لكان من المحتمل أن يتغير مجرى حدث من أعظم أحداث التاريخ ؛ إلى غير ذلك مما هو مندمج في هذه الآية التذكيرية من آيات الأنفال :

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَتَاوَنَكُمُ وَيَدَّكُم بَيْنُصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

٢٦

ولقد كان إقدام المهاجرين على الهجرة في سبيل الله وقد تخلوا عن أموالهم ووطنهم واسترسلوا في عداة وقطيعة شديدين مع قومهم عملاً رائعاً عظيماً عبر عنه الثناء القرآني العظيم :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَبْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . . .

الحشر ٨

هذا ؛ ولقد جاء في سورة آل عمران الآية التالية :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِئَ بَفْضِكُمْ مِّنْ بَعْضِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْهَاجِرُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . . .

ويلاحظ أنه ورد فيها كلمات الهجرة والإخراج والأذى معاً ؛ ولا بد أن يكون قد قصد بجمع الكلمتين الأوليين خاصة ، الدلالة على معنيين في صدد الهجرة ، وهما فيما يتبادر لنا ؛ الهجرة الحرة والهجرة الاضطرارية ؛ ونعتقد أنه من السائغ أن يقال إن من المهاجرين من هاجر استجابة لتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وإذنه وتبرما بحالة المسلمين في مكة بوجه عام دون أن يكون مطارداً أو مضطهداً بالذات ، ومنهم من هاجر نتيجة للأذى والخطر اللذين كانا يناله شرهما .

الصورة الثامنة

في سورة الحج الآيات التالية :

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الْرَازِقِينَ . لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ بَرِّضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ... »

٥٩ - ٥٨

وفيها النص الصريح على أن فريقاً من المسلمين هاجروا من مكة فلاقوا حتفهم موتاً وقتلاً ، وإنهم بسبيل التنويه بهم والإخبار عنهم : ولقد سبق الآيتين آيات روي أنها نزلت في طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه من مكة إلى المدينة ، وهي :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَخَّى الْأَتَقِيُّ الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْزَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... »

٥٤ - ٥٣

ولقد روي أن هذه الآيات نزلت في شأن حكاية الفرانيق التي قيل فيها : إن النبي
تلا أثناء تلاوته سورة النجم في فناء الكعبة آيات ليست من القرآن وهي « تلك
الفرانيق الملا . وإن شفاعتهن لترجي » ، وإنها من إملاء الشيطان ، وإن معنى « تمنى »
في الآية الأولى « قرأ » ومعنى « أمنيته : قراءته » غير أن في هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ،
منه أنه يقتضي أن يكون كل رسول ونبي قبل النبي قد وقع له مثل ما وقع للنبي وجرى
على لسانه أثناء قراءته كلام الله : آيات ليست منها ، كما أن في الرواية تهافتاً من وجوه
عدة وغير متسقة مع مضمون ومدى الآيات على ما فصلناه في تفسيرنا وألمنا إليه في مناسبة
سابقة . ولقد رجحنا أن يكون الوجه في تأويلها هو « أن الله لم يرسل نبياً أو رسولا
وتمنى أسراً - وما يتمنونه هو مجاحهم في الدعوة - إلا وقف الشيطان في طريق تحقيق
هذه الأمنية ، ولكن الله يؤيد رسوله ويحكم آياته ويحبط وحاوس الشيطان وموقفه بحيث
لا يغوى بها إلا مرضى القلوب وقساها وخبثاء النية والسريرة ، أما الذين أوتوا العلم
والإذعان فيدركون أن ما جاء من آيات الله هو الحق فيؤمنون به وتخشع له قلوبهم »
وهذا التأويل يتسق مع رواية نزول الآيات على النبي في طريق هجرته ، ويتجلى به قصد
الله في بث السكينة والطمأنينة في نفس نبيه مما ألم به من إخفاق الدعوة واضطراره أخيراً
إلى هجرة وطنه خفية ، وفي بث السكينة والطمأنينة كذلك في نفوس المسلمين الذين
انضوا إلى الدعوة وثبتوا عليها . وإذا كان هذا التأويل صواباً وهو ما نرجوه فمن المحتمل
كثيراً أن تكون الآيات التي بعدها بما فيها الآيات ٥٧ - ٥٩ قد نزلت معهما في الظرف
نفسه وتكون هذه الآيات مما يتصل مباشرة بسلسلة الفتن والأذى والإزعاج التي ذاق
المسلمون مرارتها في مكة ، وخاتمة لها في آخر العهد المكي وبدء العهد المدني ؛ ولعل بينها
وبين آيات المنكبات ٥٦ - ٦٠ مناسبة موضوعية ؛ إذ احتوت هذه تشجيعاً ونفياً
للمخاوف من الجوع والموت ، واحتوت تلك طمأنة وتثبيتاً بمناسبة لقاء بعض المهاجرين
حتفهم ؛ وقد انطوت المجموعتان على كل حال على ما كان للهجرة إلى يثرب وظروفها
وحركتها من آثار نفسانية متنوعة المدى .

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

وتنبه إلى أن ما أوردناه في الفقرات السابقة هو ما ذكر فيه الأذى والفتنة صراحة ، وانطوى فيه صور ومشاهد عنهما ؛ وأن هناك آيات مكية كثيرة احتوت تسليية وتصبيراً للنبي والمسلمين ، ووعداً بنصر الله وتهديداً وإنذاراً للكفار ، نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكي يصح أن تعد قرائن على ما كان يلقاه المسلمون من الكفار أو بالأحرى من زعمائهم من عنف وشدّة ، وأن تلحق في باب محنة الأذى والفتنة التي امتحن بها المسلمون ، وتمّ بها حلقات السلسلة التي بدأت - كما قلنا - في عهد مبكر واستمرت طيلة العهد المكي ، مما يمثله صراحة الآيات التي نقلناها ، ويمثله ضمناً وبالقرينة الآيات الأخرى التي يمكن أن تمثل لها بما يلي :

١ — وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ...

إبراهيم ٢ - ٣

٢ — وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِيلاً عَمَّا يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ...

إبراهيم ٤٢

٣ — وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ...

إبراهيم ٤٦ - ٤٧

٤ — إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَ مَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَنْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ . وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ . وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْبِكُمْ أَيَّتِهِ فَتَمْرَفُونَهَا وَمَارَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...

النمل ٩١ - ٩٣

٥ — وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . أَفَبِعَدَائِنَا يُسْتَفْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ . وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

الصفات ١٧١ - ١٧٩

٦ — إِنَّا لَنَذِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

غافر ٥١ - ٥٢

٧ — فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَّقِمُونَ . أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ

الزخرف ٤١ - ٤٢

٨ — وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ . إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ . وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ . إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا . فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا

الطارق ١١ - ١٧

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

وإتماماً للبحث نرى من المفيد أن نستعرض بعض الآيات المدنية المتصلة بمواقف الأذى والفتنة المكية ؛ منها ما هو بمثابة التعقيب والتذكير ، ومنها ما فيه مشاهد من المحنة استمرت تصيب المسلمين الذين عجزوا عن الهجرة إلى المدينة .

وإليك مما هو من النوع الأول :

١ - في سورة الحج الآيات الآتية :

« إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ

لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ تَصَرُّفِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا
 مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
 كَثِيرًا وَكَانَ لِنَاصِرِنَا اللَّهُ مَنْ يَنْصُرْهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي
 الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللَّهِ
 عَقِبَةُ الْأُمُورِ . . .

٤١ - ٣٨

وطابع العهد المدني واضح على هذه الآيات . وفيها مما له صلة بمحنة الأذى والفتنة ،
 تقرير كون المسلمين مبغيا عليهم ، وأنهم اضطروا إلى الخروج من ديارهم نتيجة للأذى
 والاضطهاد ، لا للذنب إلا أنهم آمنوا بالله واعترفوا بربوبيته وحده ، وفيها كذلك وعد
 من الله بالدفاع عنهم ونصرهم وتمكينهم في الأرض وبأنه سوف يوقفهم إلى إقامة شعائر
 الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد قال المفسرون والرواة ^(١) : إن هذه الآيات أولى آيات نزلت بالإذن للمسلمين
 بالقتال مقابلة لما يقع عليهم من ظلم وأذى ، بعد أن كانوا يؤمرون بالصبر وعدم المقابلة .
 وعلى هذا تكون قبل نزلت قبل آيات القتال في سورة البقرة ، وأول تعقيب على الهجرة
 إلى يثرب وأول آيات احتوت الطمأنة والتشجيع للمسلمين في عهدهم الجديد .

ومع ذلك فهناك ملاحظتان يحسن إيرادها في صدد هذه الآيات . الأولى أنها
 لا تأذن ولا تأمر بالقتال خلافاً لما ذكرته الروايات التي رواها المفسرون . وإنما تقر
 حالة الظلم الواقع على المسلمين وتعدم بنصر الله . وقد تكون تضمنت تبرير المقابلة
 بالمثل . والثانية أن الآية الأولى منها صريحة بأن المسلمين كانوا يقاتلون في حين أنه ليس
 هناك رواية فيما اطلعنا عليه تذكر أنه كان عدوان حربي جماعي من مشركي قريش على
 للمسلمين حينما كانوا في مكة . أو أنهم بدأوا بحركات هجومية على المسلمين بعد خروجهم

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والحازن والطبرسي .

من مكة . فإما أن تكون الآية عنت ما كان ينال ضعفاء المسلمين في مكة من عدوان وأذى فردى يصل أحياناً إلى إزهاق الروح . وإما أن يكون المشركون قد اعتدوا على فريق من المسلمين عدواناً حربياً بعد الهجرة لم يرد ذكره في الروايات وسنعود إلى هذه النقطة في الجزء الثاني المعقود على السيرة في عهدنا اللذي لأنها ألصق به .

٢ - في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُواكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُواكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ . فَإِن انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِن انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . . . »

١٩٠ - ١٩٥

وفي الآيات ما هو متصل بمحنة الأذى والفتنة في مكة وهو تقرير لكون الفتنة أشد من القتل وتبرير قتال الكفار حيث وجدوا وإخراجهم مقابل ما كان من إيجابهم المسلمين إلى الخروج . والفتنة عن الدين والإجاء للخروج إنما كان في العهد المكي . أما بقية نصوص الآيات فإنها تنظم شروط وظروف قتال الكفار وتحث على الإنفاق في سبيل الله لمنع الوقوع في الخطر والتهلكة . ومضامين الآيات تدل على مقدار ما كان لأذى زعماء الكفار واضطهادهم وفتنتهم المسلمين ومطاردتهم إياهم واضطرارهم إلى الهجرة من وطنهم من مرارة وأثر بعيد المدى في سير الدعوة في مكة وفي نفوس المسلمين أيضاً . وقد تلهم هي ومضامين الآيات بمجموعها أن محنة اضطهاد الكفار وأذاهم وفتنتهم

للمسلمين ما زالت قائمة ، إذ تأمر المسلمين بالجد في قتالهم والاستعداد له ، لأن الخطر عليهم وعلى دينهم لم يزل وإن هاجروا . ومما يتضمنه معنى بقاء الحجحة أن مستضعفي المسلمين في مكة الذين لم يستطيعوا الإفلات لم يزالوا معرضين للأذى . وقد ذكر هذا في آيات أخرى بصراحة .

وقد قال المفسرون والرواة : إن هذه الآيات أول آيات نزلت في الأمر بقتال الكفار ؛ وليس ثمة تناقض بين هذا وآيات الحج السابقة التي إنما احتوت تقرير كون المسلمين مبغياً عليهم ، وإذناً بالقتال والدفاع ، في حين احتوت آيات البقرة أمراً بالمباشرة وتحديدأ للحدود التي يحسن أن يسار في نطاقها ...

٣ - في سورة البقرة الآيات التالية :

« كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُم حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ... »

٢١٧ - ٢١٦

وصلة الآيات بصورة عامة والآية الثانية بصورة خاصة بمنحة الأذى والفتنة في مكة بادية ؛ إذ تبرر قتال الكفار في أي وقت ومكان بقطع النظر عن الحرمات التقليدية ، مقابل ما بدا منهم من كفر وصد واضطهاد وإخراج أهل الحرم من موطنهم ظلماً وأذى ، وفتنة المسلمين عن دينهم وهي أكبر عند الله من القتل ومن تلك الحرمات ، وإذ تنذر المسلمين بشدة الكفار وتصميمهم على الاستمرار في خطتهم الباغية في قتالهم حتى يردوهم عن دينهم . وفي كل هذا ترديد في الوقت نفسه لما كان لتلك الحجحة من آثار بعيدة المدى في سير الدعوة وفي نفوس المسلمين ، وإنذار لما يمكن أن يكون لها من مثل

ذلك إذا تساهل المسلمون ولم يحزموا أمرهم ...

٤ - في سورة الأنفال الآية التالية :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ... » ٣٩

وقد ورد قريب من هذا في آية البقرة (١٩٣) . وتكرار الأمر والمدى بعد وقعة بدر - لأن سورة الأنفال نزلت عقبها - يدل على أن خطر فتنة الكفار ما زال مستمراً فاقترضت الحكمة التكرار حتى يظل المسلمون منتهيين حذرين مستمرين في أسباب إزالة هذا الخطر ، وعدم الاكتفاء بما نزل عليهم من ضربة بدر القاصمة .

الصُّورَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ

ومما يناسب مع البحث الإشارة إلى ما كان من صد مشركي مكة المسلمين عن زيارة الكعبة ، وواجبات الحج التي ثبت القرآن المكي جُل تقاليدھا تثبتنا تشریماً ؛ إيفالاً في الأذى والنكایة والقطیعة والعداء ، ورغم ما في ذلك من نقض لتقليد مقدس راسخ يقوم عليه في الوقت نفسه أود مكة المعاشى ومجدها ونفوذها الأديان .

١ - في سورة البقرة الآية التالية :

« وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ... »

١٩٦

وتلهم أن من المسلمين من كان يمتنع عن الحج والعمرة فاقترضت حكمة التشريع ذلك :

٢ - وفي سورة الأنفال الآية التالية :

« وَمَالَهُمْ أَلَّا يَعْذِبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... » ٣٤

٣ - وفي سورة الحج الآية التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ

لِلنَّاسِ سَوَاءٌ أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
أَلِيمٍ... »

٢٥

وهما تنصان نصا مطلقا على صد المشركين عن المسجد الحرام .

٤ - وفي سورة الفتح الآية التالية :

« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَنكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ

٢٥

مَحَلَّهُ... »

وتشير إلى حادثة معينة وهي صد مشركي مكة النبي والمسلمين عن المسجد الحرام
حينما خرجوا في أواخر السنة الهجرية السادسة للزيارة وانتهت بصلح الحديبية على
ماسوف نبسطه .

٥ - وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّحِقُ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ... »

١٣ - ١٥

وسورة التوبة من آخر ما نزل من القرآن ، والآيات نزلت قبيل فتح مكة ،
والتحريض الذي احتوته على قتال أهل مكة متلازم كما هو ظاهر مع التذكير بما كان
منهم في العهد المسكي من عدوان وبني على المسلمين وتأمير على النبي . وهذا يدل على ما كان
لبغيتهم وعدوانهم وتأميرهم من أثر مستمر ، وما كان قائما من خطر لم يكن ليزول إلا إذا
خضت شوكتهم نهائيا .

٦ - وجاء في مطلع سورة المتحنة الآيتان التاليتان :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ

بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا
 بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ
 بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
 السَّبِيلِ . إِن يَشْفُقُواكُمْ يُكَفِّرُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم
 بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ... »

٢-١

والآيتان متصلتان بذكريات محنة الأذى والفتنة اتصالاً وثيقاً كما هو ظاهر ، إذ
 تذكران مما كان من معاناة زعماء مكة الرسول والمسلمين بالعداء ومبادأتهم بالبغي وإلجائهم
 إليهم إلى الخروج من وطنهم ، وتنبيههم إلى الخطر المستمر عليهم منهم بحيث أنهم لن يترددوا
 في بسط أيديهم وألسنتهم إليهم بالسوء وقتالهم وفتنتهم عن دينهم إذا ما أمكنتهم الفرصة ،
 ولقد نزلتا قبل الفتح المكي كآيات التوبة . وهكذا تكونان قد تضمنتا ما تضمنته تلك
 الآيات من تقرير استمرار أثر بغي أهل مكة وعدوانهم على المسلمين في العهد المكي .

ولقد رددت الروايات في سياق الآيتين أنهما نزلتا في مهاجر اسمه حاطب أرسل إلى
 بعض زعماء مكة رسالة قبيل الفتح يخبره فيها بتأهب النبي لغزو مكة ، وأن النبي صلى الله
 عليه وسلم حينما عاتب الرجل اعترف بالحقيقة ثم أكد له حسن إسلامه ، واعتذر بأن له
 أهلاً ومالاً في مكة وليس له عصبية فأراد أن يتخذ يداً عند الزعيم الذي كتب له بقي بها
 أهله وماله . وليس في الرواية مالا ينسق مع الآيتين إلا ما تلهمه الآية التي تلت الآيتين
 وهي « لن تنفكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » من أن للأرحام
 والقربى أثراً ما في هذا الموقف . وعلى كل حال فإن الآيات لا تخلو من صلة بالحننة وأثرها .

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ

وهناك بضع آيات خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ومتصلة بهذا البحث . منها آية
 في سورة الإسراء وهي :

« وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ... »

٧٦

ولقد جاء في بعض الروايات أنها مدنية وأنها نزلت بمناسبة تحريض اليهود النبي على الخروج للشام وقولهم له : إن الأنبياء جميعهم إنما ظهوروا فيها ، وإن عليه إن كان نبيا حقا أن يتأسى بهم ؛ فتأثر النبي بذلك حتى يكاد يزعم الخروج . ونحن نشك في مدنية الآية وفي هذه الرواية غير الموثقة ، لا سيما أن الآية متسقة مع السياق اتساقاً تاماً نظماً ومضموناً إذا ما أنعم النظر ، ، وليس مما يعقل أن يستمع النبي صلى الله عليه وسلم لوساوس اليهود الذين جحدوا رسالته ونسب بينه وبينهم خلاف وجدل في عهد مبكر من الهجرة ، ونزل فيهم قرآن كثير احتوى حملات شديدة عليهم ، وصار العداء بينه وبينهم قائماً مستحكما . هذا إلى عدم مقولية وضع الآية في سياقها إن كانت مدنية .

والذي نرجحه إن لم نقل نجزم به أن الآية تنطوي على مشهد من مشاهد العهد المكي ، وأنها بسبيل وصف شدة عناد وصد طغاة الزعماء ومواقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم التي أزعجته إزعاجاً شديداً حتى فكر في النزوح عن مكة في أواسط العهد المكي ، ولعل هذا كان إبان اشتداد الأزمة على المسلمين وتفكيرهم في الهجرة إلى الحبشة ، فأية النحل (٤١) التي تضمنت الإشارة إلى هذه الهجرة إنما ذكرت حادثاً كان قد وقع قبل نزولها ، ولا نستبعد استلهاماً من آية الإسراء أن يكون النبي قد فكر في الخروج مع الخارجين ثم ألهمه الله البقاء وثبته مع الذين بقوا وثبتوا في مكة ؛ كما لا يستبعد أن يكون قد فكر في الخروج بعدهم وقد قل أصحابه من حوله قلة كبيرة وكان هذا مما قوى ساعد للمعارضين والصادين وأعلى صوتهم وزاد في إزعاجهم .

ولقد ذكر ابن هشام أن أبا بكر رضي الله عنه خرج من مكة مهاجراً في ظرف من ظروف الإزعاج ، وذلك بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة ، فلقبه ابن الدغنة زعيم الأحابيش ، ولما عرف أنه خرج مهاجراً كبر عليه ذلك وقال له : إن مثلك لا يخرج .

وعلى كل حال فالآية صريحة بأنها انطوت على مشهد أو حادث خطير من مشاهد السيرة في العهد المكي متصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد عنه أى إشارة في كتب السيرة فيما اطلعنا عليه . نقول هذا ونحن نعرف أنه ورد أن النبي خرج إلى الطائف قبل سنتين من الهجرة إلى يثرب ؛ ولكننا نعتقد أن الآية ليست بسبيل الإشارة إلى هذا لأنها لا تذكر خبر خروج فعلي حين أن الخروج المروي إلى الطائف كان فعليا .

٢ - وحادث خروج النبي (صلم) إلى الطائف ذكر في روايات التفسير والسيرة في سياق تفسير آيات سورة الأحقاف هذه :

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ... »

٢٩ - ٣٢

بحيث نرى مسوغاً لإيراد خبره في هذه السلسلة في نطاق منهج الكتاب . وقد كان من آثار محنة الأذى .

ومما ترويه الروايات المذكورة^(١) أنه لما ماتت السيدة خديجة أم المؤمنين في السنة الثامنة ثم لحقها أبو طالب في نفس السنة وكان الاثنان من أقوى أنصار رسول الله ومؤيديه نالت منه قريش من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياتهما وبخاصة أبي طالب حتى لقد روى أن سفيفاً من قريش نثر التراب على رأسه فعاد إلى بيته فقامت إحدى بناته تفسله عنه وهي تبكي فقال لها: لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك ثم قال (ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨ - ٣١ وانظر تفسير آيات الأحقاف في تفسير الطبري والبعري والهازن وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٠ - ٨٢ .

مات أبو طالب). ثم اعتزم الخروج إلى الطائف رجاء هداية زعمائها والحصول على نصرتهم ومنعتهم فذهب وتحدث إليهم فسخروا منه وكذبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فسبوه وحصبوه حتى ألبأوه إلى حائط (بستان) فأخذ يناجي ربه ويقول (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي . وقلة حيلتي وهواني على الناس . يَا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين . وأنت ربي إلى من تكلمي . إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري . إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك . لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) ورق له قلب ابني ربيعة عتبه وشيبة فدعوا غلاماً نصرانياً لها اسمه عداس وأمره بأخذ قطف من عنب وتقديمه إليه ففعل، فلما وضع رسول الله يده قال بسم الله ثم أكل فقال عداس ليس هذا مما يقوله أهل هذه البلاد فسأله وما دينك؟ فقال له أنا نصراني من نينوي فقال له من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له وما يدريك به؟ فقال له هو أخي كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على رأس رسول الله ويديه وقدميه . فلما عاد إلى ابني ربيعة سألاه فقال لها : مافي الأرض خير منه لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . ثم انصرف رسول الله راجعاً إلى مكة وفي طريق عودته أوحى الله إليه بآيات الأحقاف يخبره فيها بأن نفرأ من الجن استمعوا إليه وهو يتلو القرآن فآمنوا فكان في ذلك له تعزية عظيمة . فإذا كان مشركو العرب يكذبونه ويؤذونه فالجن الذين هم أقوى منهم وأعتى يؤمنون به ويبشرون برسالته .

٣ - ومنها آية في سورة الروم وهي :

« فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ... » ٦٠

والآية تلهم أنها نزلت في ظرف اشتداد الأزمة والمناوأة حتى فكر النبي صلى الله عليه وسلم بالقيام بحركة ما فتضمنت تثبيتاً وتوكيداً بنصر الله وتحقيق وعده ، وأمرأ بعدم التأثير من موقف الكفار تأثراً يحمله على مافيه حركة غير مناسبة الأوان . وسورة الروم من آخر ما نزل من القرآن المكّي ؛ ولا نستبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد اتصل

قبل نزول الآية بأهل يثرب ورأى منهم ترحيباً، وأن يكون قد فكر في الاستعجال بالخروج إليهم فثبته الله؛ لأن الوقت المناسب لم يكن قد حل بعد .

٤ - ومنها آية في سورة الأنفال المدنية جاءت للتذكير وهي :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ... »

٣٠

والآية صريحة بأن الحقد والعداء قد بلغا في زعماء مكة نحو النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً جعلهم يأمرون فيما بينهم في الوسائل التي يقضون بها عليه أو يحولون دون استمراره في الدعوة بعد أن رأوا أن كل ما كان منهم من صد ومناوأة وأذى لم يجد نفعاً؛ وبعد ما أملوا في موته وانقضاء أمره كما حكته عنهم بعض آيات سورة الطور :

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمَتَرَبِّصِينَ ... »

الْمَتَرَبِّصِينَ ... »

٣٠ - ٣١

فلم يتحقق أملهم؛ ولقد فكروا على ما ذكرته الآية في ثلاث وسائل وهي حبسه أو اغتياله أو نفيه . وروايات السيرة تذكر أن قرارهم قر على الاغتيال على شريطة اشتراك شبان من مختلف بيوتات قريش فيه حتى يتوزع ثأره ولا يبقى لإمكان لآله أن يطالبوا به والروايات تذكر كذلك أن هذا قد كان في أخريات العهد المكي وأن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم شخصياً قد وقعت على أثر وصول خبر قرار الاغتيال إليه . ولقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل في السنة الحادية عشرة من البعثة ببعض أهل يثرب فأمنوا به وأنه جاء في السنة التالية وفد منهم وبايعوه ، وأن الإسلام بعد ذلك أخذ يفسو في يثرب ، وأن وفداً كبيراً آخر جاء إلى يثرب فجددوا البيعة ورحبوا بهجرة النبي والمسلمين إليهم ، وعاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على نصرته والدفاع عنه ، وأن الهجرة إلى يثرب قد بدأت بعد ذلك . والروايات سائفة وليس فيها ما يحمل على التوقف .

فمن المحتمل كثيراً أن زعماء مكة قد أخذوا يتوقعون العواقب الوخيمة لنجاح هذه الحركة وانتشار الدعوة وفوزها ، وسقوط هيبة مكة وإمامتها ومنافعها ، ونشوب العداء بينهم وبين أهل يثرب وهي على طريق قوافلهم التجارية ، فأرأوا أن الوسيلة الوحيدة لتدارك هذه العواقب هي القضاء على شخص السيد الرسول . وعدم تفكيرهم بمثل ذلك إلا بعد اتصال النبي بأهل يثرب وبدء حركة هجرة المسلمين إليها مما يدل على أنهم لم يكونوا يشعرون بخطر عظيم للدعوة ، وأنهم كانوا يرون أن ما كان منهم من مناوأة لها وصد عنها ، وموالاةهم لأذى من يقدرون عليه من المسلمين - كاف لإبقائها في نطاق ضيق محفوف بالخطر من شأنه أن ينتهي بالمسلمين إلى التبرم بها والسأم منها وضيق الذرع بها وتفرقهم عنها ، كما أنهم كانوا يرون على كل حال أن هذه النتيجة حاصلة إذا ما تلقى النبي صلى الله عليه وسلم حقه عاجلاً أو آجلاً مادامت دعوته تظل في هذا الحال من الضيق والهرج . ففضلوا تربص ريب المنون به كما حكته آية الطور ، بل إنهم رأوا أمارات ذلك حينما مات أبو طالب أقوى حماة العصبيين والسيدة خديجة رضي الله عنها أقوى أعضاده الروحانيين ، واشتد عليه الهرج حتى خرج إلى الطائف ولم يستطع أن يدخل مكة بعد عودته منها مخفياً إلا بجوار أحد الزعماء على ما ذكرته روايات السيرة . فمن الطبيعي والحالة هذه أن يهمهم أمر اتصاله بأهل يثرب وتفاهمه معهم وهجرته إليهم ، وأن يحسبوا لذلك أعظم الحساب بعد أن رأوا أن الغلبة لهم قد تمت أو كادت ، وأن دعوته قد أخفقت أو كادت ، وأن أمره لن يلبث أن يذهب بدياً .

وما ذكرته الآية من التأمر على حبسه أو إخراجه بالإضافة إلى قتله يدل على أن السلطات الرسمية في مكة قد اشتركت آخر الأمر في هذا الموقف الخطر واندجحت فيه لأنها استشمرت الخطر العظيم الذي قد يحدق بمكة ويهدد مصالحها الكبرى من نجاح هجرة النبي إلى يثرب وعواقبها . ويتبادر لنا أن القصد من فكرة الإخراج هو نفي النبي بالقوة من مكة إلى مكان يضطر إلى البقاء فيه مشلول الحركة مأمون الخطر والعاقبة ؛

فليس ثمة معنى غير هذا للتأمر على إخراج النبي في جملة ما خطر لبالم من وسائل يتفادون بها خطره .

٥ - ومنها آية في سوة التوبة وهي :

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمْخُزْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدَاهُ يَجْنُودٌ لَمْ تَرَوهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْأُمْلَىٰ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ... »

٤٠

والآية تذكر بما كان من عناية الله ونصره لنبيه حينما اضطر إلى الخروج من مكة على أثر وصول الخبر إليه بقرار اغتياله على ما ذكرناه سابقاً .

والجمع عليه أن صاحبه هو أبو بكر رضي الله عنه الذي خرج وإياه من مكة مستخفين . ولقد ذكرت الروايات^(١) أنه قد كبر على زعماء قريش إفلات النبي من أيديهم ، وقد كانوا أدركوا الخطر العظيم الذي يحدق بهم في حالة إفلاته ووصوله إلى يثرب ؛ فأرسلوا خلفه من يبحث عنه ويقبض عليه ، ويحول دون استمراره في طريقه ؛ وشعر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فاخفى هو وصاحبه في الغار الذي تذكر الروايات أنه في جبل أبي ثور من الجبال المحيطة بمكة ربمًا يخف الطلب ، وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات .

والآية تتضمن التنويه بالعناية الربانية بالنبي أولاً ، وبما كان من رباطة جأشه في هذا الموقف العصيب ثانياً ، ثم بما كان من أثر إفلاته ونجاحه والتحاقه بالمدينة في قوة الإسلام وانتشاره وكبت أعدائه مما هو مندمج في الفقرة الأخيرة منها .

ومما لا ريب فيه أن هذا الحادث العظيم من أعظم حوادث السيرة النبوية شأنًا

وأبعدها فيها مدى ، وأنه التاج الذي كل حركة هجرة المسلمين إلى يثرب التي بدأت قبله ، والتي قلنا إنها كانت بدء تعالي الإسلام وعظمته ؛ بل من الحق أن يقال : إن نجاح النبي في الإفلات هو الأصل الأقوى فيما كان من آثار هذه الحركة .

ومهما كان من أمر زعماء مكة وتأميرهم ، وظروف هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية ، فإن هناك نقطة جديرة بالذكر والتنويه في صدد عظمة أخلاق السيد الرسول ورباطة جأشه وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ؛ وهي أنه لم يستعجل بالهجرة شخصياً عقب أخذه البيعة على النصر والدفاع من زعماء يثرب ، وظل في مكة يدبر أمر هجرة أصحابه ويشجعهم عليها ويرعى سيرها ، ويخلفهم - على ما يتبادر - في قضاء ما كان حتماً عليهم قضاؤه من أمور إلى أن تمت هجرة من اعتمزم الهجرة أو غالبيتهم .

الصورة الثالثة عشر

هذا وبمناسبة هذه الآيات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم في صدد محنة الأذى والفتنة وتناجها رأينا أن نبحث عما إذا كان نال النبي شخصياً شيء من الأذى عدا ما كان من التآمر عليه ، واضطراره إلى الخروج خفية ومحاولة اللحاق به فنقول :

أولاً : إنه ليس في القرآن شيء صريح من ذلك إلا ما حكته آيتان في سورتي الأنبياء والفرقان من استهزاء الكفار به وهما هاتان :

١ - وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ

الأنبياء ٣٦

ءالهِتَكُمُ ...

٢ - وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ...

الفرقان ٤١

ثم النعوت المتنوعة التي كانوا ينعنونها بها من كاذب ومفتري وساحر وشاعر وكاهن ومجنون مما أوردنا الآيات التي ذكرت فيها في مناسبات سابقة .

وفي سورة الحج هذه الآية :

« وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ ، ابْتِنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ
يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ، ابْتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمُ
النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ... »
٧٢

وقد تضمنت ذكر ما كان من شدة وقع القرآن على الكفار حتى يكادون يسطون
بالنبي . غير أن ذلك ظل في نطاق التصور .

ثانياً : إن ابن هشام يروي روايات عديدة تذكر وقوع بعض الأذى عليه . منها
ما روينا آنفاً وقوعه من نثر التراب على رأسه في مكة وسبه وحصبه في الطائف . ومنها
هذه الوقائع :

١ - مر أبو جهل برسول الله عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره . منها
الميب لدينه والتضعيف من أمره فبلغ ذلك عمه حمزة ولم يكن قد أسلم فثار غضبه فأقبل
على أبي جهل في فناء الكعبة فضربه بقوسه فشجه شجة منكرة ثم قال له : أنتشمة وأنا
على دينه فردّ عليّ إذا استطعت . فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقال لهم
دعوه فإنني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً^(١) .

٢ - جلس عقبة بن أبي معيط إلى النبي فاستمع له فجاء إليه أبي بن خلف فقال له
وجهي من وجهك حرام إن جلست إليه واستممت له ثانية وإن أنت لم تأتته فتتفل في
وجهه ففعل عدو الله ذلك^(٢) .

٣ - اجتمع أشرف قريش يوماً في الحجر فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من-
أمر هذا الرجل وقد صبرنا منه على أمر عظيم . وبينما هم في كلامهم جاء رسول الله فاستلم
الركن ثم طاف فلما مر بهم غمزوه ببعض القول فكظم غيظه ثم طاف فغمزوه ثانية فوقف
عليه فقال أنسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبيح . فأخذت
القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كما على رأسه طائر فصاروا يرفثونه بأحسن القول

ويقولون له انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً . ثم اجتمعوا في الغد فتذاكروا ما كان بالأمس وندموا على تركه فيينا هم كذلك إذ طلع عليهم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلمتنا وديننا فقال لهم نعم أنا فتقدم واحد منهم فأخذه بمجمع ردايه فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله . وقد نالوا من أبي بكر حتى صدعوا فرق رأسه^(١) .

٤ - كان أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط جيراناً لبيت رسول الله فكانوا يطرحون عليه رحم الشاة وهو يصلي . ومنهم من كان يطرحها في قدره إذا نصبت^(٢) ولا تريد أن تنفي احتمال وقوع هذه الوقائع . غير أن عدم ذكر القرآن شيئاً ما يدل على ذلك مع ذكره محاولات الزعماء أو فريق منهم التقرب إليه والتفاهم معه . وما يستفاد من الآيات القرآنية الكثيرة من وقوفه دائماً موقف القوي المستعلي فيما كان يتلوه من آيات فيها عنف وصفعات وبراهين دامغات . وتنديدات لازدات يمحملنا نميل إلى التوقف في هذه الوقائع .

ولقد بقي ذوو العصبيات من المسلمين في نجوة من الأذى ، ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم عصبية قوية ؛ فمن المقبول أن يكون قد بقي هو كذلك في نجوة من الأذى . ولقد روى أن الزعماء كانوا يتحاشونه ويخافونه ويناشدونه الرحم أحياناً حينما يبدو عليه الغضب من موقف ما حتى لا ينزل عليه قرآن فيهم يدمهم ويسجل عليهم اللعنة الخالدة . ومنتقد أن هذا محتمل الصحة جدا حتى مع ذكر أنهم غير مؤمنين بنبوته ؛ فقد كانوا ينعتهون بالشاعر ، وكان العرب وزعمائهم في مقدمتهم يتحاشون الشعراء لثلا يهجومهم بهجو تسير به الركبان . كذلك كان بعضهم يعتقد أنه ساحر وبعضهم يعتقد أنه كاهن ، وكانت هذه الطبقة مما يبعث في نفوس الناس الرهبة والهيبه ؛ هذا إلى ما نعتقه من أن كثيراً من

الزعماء كانوا يعتقدون صدق نبوته ، وكان موقف المعاند المكابر المغيظ استكباراً واندفاعاً بالأناية والأغراض الذاتية كما ذكر القرآن ذلك في آيات كثيرة نقلنا فيما سبق جملة منها .

وفي سورة الحجر آيتان مهمتان في صدد تأييد ما نميل إليه وهما :

« فَأُصْدِعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . . . »

٩٥ - ٩٤

حيث يطمئن الله عز وجل رسوله ويبشره بأنه مانع عنه كيد الكافرين ومكرهم وأذاهم .

وهذا التطمين منطوق كذلك في آية أخرى في سورة الطور التي هي من السور المتأخرة في النزول وهي :

« وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . . . »

٤٨

والله سبحانه وتعالى أعلم .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ

وإليك الآن ما يتصل باستمرار الحنة على المسلمين الذين ظلوا في مكة :

١ - في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلِيَانَا إِنَّكَ لَدُنْكَ وَلِيٌّ وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ... »

٧٥

والآية صريحة بأنه كان في مكة رجال ونساء وولدان مسلمون مجزوا عن الهجرة

وبأنهم كانوا في كرب عظيم من أهل مكة أو من ذويهم ، يدعون الله بالفرج من شدتهم . ولقد جاءت الآية في سياق تحريض المسلمين على قتال أهل مكة ؛ وهذا متصل بالعداء الذي بدأ بعدوان هؤلاء على المسلمين في مكة ؛ والآية صريحة بأن التحريض يستهدف إنقاذ المستضعفين أيضاً ؛ وهذا إنما يكون بسبب استمرار محنة الأذى والفتنة عليهم بطبيعة الحال .

٢ - وفي سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أُنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُفْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا . وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ... »

٩٧ - ١٠٠

والآيات صريحة بأنه كان هناك مسلمون لم يهاجروا ، وبأن منهم من كان مستضعفاً عاجزاً حقاً ، كما أن منهم من ثقل عليه أمر الهجرة لسبب من الأسباب لا يبرره الإخلاص لدين الله ، ففضل البقاء ولو تعرض لمحنة الأذى والفتنة . وقد حملت الآيات على هؤلاء وأندرتهم ، ثم حرصت على الهجرة مطلقاً وأوجبت على كل مسلم متخلف اغتنام الفرصة الممكنة لها ، لأنها تنقذه من المحنة ، وتيسر له الحرية والطمأنينة ووسائل إزجاج العدو معا . وكل هذا متصل بمحنة الأذى في مكة وآثارها كما هو المتبادر .

٣ - في سورة الفتح الآيات التالية :

« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِجْلَهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ ثَوَابِتُونَ وَنِسَاءٌ ثَوَابِتَاتٌ لَمَّ تَفَلَّحُوا هُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ قَتَصَبَكُمْ

مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

٢٦ - ٢٥

والآية الأولى صريحة بأنه كان في مكة رجال ونساء مؤمنون ؛ وقد تلمهم روحها بأنهم كانوا يكتُمون إسلامهم خشية الأذى والفتنة ؛ كاتلمهم أن بقاءهم في مكة لعذر مقبول : هو المعجز أو الضمف على ما هو المتبادر .

أما الآية الثانية فالجمع عليه أنها في صدد ما كان من مفاوضة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش في الحديبية ؛ والروايات تذكر أن النبي خرج مع المسلمين في السنة السادسة للهجرة بقصد زيارة الكعبة ، فتصدى لهم أهل مكة ومنعهم ، وكاد ينشب القتال بينهم ، ثم جنح إلى المفاوضة في عقد صلح ؛ وقد تمسك المفاوضون القرشيون ببعض الشروط بسائق الحمية الجاهلية ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم مسيرتهم اجتهاداً منه بأن في عقد الصلح فوائد عظيمة ، وكانت هذه المسيرة مما آلم المسلمين في بادئ الأمر ؛ وقد كان من جملة هذه الشروط أن يرد النبي من يأتي إليه مسلماً من مكة إلى المدينة برغم أهله ، وعدم تقييد أهل مكة بمثل هذا الشرط فيمن يعود من المدينة إلى مكة من المهاجرين . والروايات متسقة إجمالاً مع روح الآية كما هو المتبادر^(١) .

ومما روى أن ابن سهيل بن عمرو مندوب قريش في المفاوضة وكان مسلماً قد فرس في أغلاله التي قيده بها أبوه وجاء إلى معسكر المسلمين في الحديبية بعد أن تم الاتفاق على الشروط ، فلم يسع النبي صلى الله عليه وسلم إلا الوفاء بالشرط ورد الابن لأبيه .

وفي كل ما ذكر مما أهتمته الآيات وأوضحته الروايات المتسقة معها مشاهد متصلة بالحنفة كما هو ظاهر .

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩ - ١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ - ٣٧١ .

٤ - في سورة المتحنة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ
يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا ءَانَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا ءَانَفَقْتُمْ ۖ وَلَيْسَ سَأَلُوا مَا ءَانَفَقُوا
ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۚ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ
أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا ءَانَفَقُوا
وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي ءَأْتَمَّرْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ... »

١٠ - ١١

والآية الأولى صريحة بأن بعض النساء المسلمات اللاتي مجزن في أول الأمر عن
اللاحق بالمهاجرين أمكنتهن الفرصة فسارعن إلى اغتنامها . ومضمون الآيات متسق مع
الروايات^(١) التي تذكر أن هذا الحادث وقع بعد صلح الحديبية واغتناما لفرصته . وقد
جاء ذوو النساء إلى المدينة يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فهت الآية عن
إعادتهن وأمرت بالتعويض على ذويهن . وفرار النساء يدل بطبيعة الحال على أنهن كن
يلقن الأذى ويتعرضن للفتنة في مكة ، ويدل كذلك على قوة إيمانهن وشجاعتهن في
الوقت نفسه مما يحتوى في حد ذاته مشهداً رائعاً من مشاهد السيرة ومواقف
النساء فيها .

وفي الآيتين ما يدل على أن بعض زوجات المسلمين المهاجرين قد تمسكن بكفرهن
طيلة العهد المكي ، ولما هاجر أزواجهن رفضن اللحق بهم ، وفضلن البقاء ، مع
أهلن الكفار في مكة ، كما فيها ما يدل على أن بعضهن تركن أزواجهن في المدينة وعدن
منها إلى مكة أيضاً . وفي هذا وذاك مشاهد من العهد المكي كما هو واضح .

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٥ - ٣٧٧ وانظر تفسير الآيات في تفسير الطبري والبقوي والهازن
وابن كثير .

الصورة الخامسة عشرة عشر

بقيت نقطة نريد أن نبينها وهي ما إذا كان من المسلمين من كان يقابل الأذى والعدوان بمثله في مكة أو هم بذلك ، فنقول إن في بعض الآيات ما يلهم الإيجاب الذي نعتقد أنه مما يتسق مع طبيعة الأمور ؛ إذ لا يصح أن يفترض خضوع المسلمين كافة للأذى وصبرهم عليه . وكان فيهم الأقوياء بأشخاصهم أمثال عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما ، كما كان فيهم الأقوياء بعصبياتهم أيضاً ، وخاصة في بيته مثل بيته النبي صلى الله عليه وسلم وعصره قويت فيهما العصبية الاجتماعية ، وكانت ناظماً مهما في علاقات الناس بعضهم ببعض وحفظ حقوقهم وكراماتهم وأعراضهم .

١ - في سورة النساء جاءت هذه الآية في معرض التنديد بتقاعس بعض المسلمين عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ... ٧٧

وهي صريحة بأن بعض المسلمين أمروا بالكف عن القتال والاكتفاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في ظرف سابق ، فلما فرض عليهم القتال احتج بعضهم وبدا عليه الخوف ؛ وقد روى المفسرون والرواة ^(١) في سياقها أن فريقاً من ذوي العصبية من المسلمين الأولين في مكة مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم استأذنوا النبي في مقابلة عدوان الكفار وأذاهم في مكة بالمثل فلم يأذن لهم وأمرهم بالصبر ؛ والرواية متسقة إجمالاً مع أول الآية ، إذ المتبادر أن يكون الأمر بالكف وعدم الإذن في ظروف مكة ، لأن القتال قد فرض في وقت مبكر من العهد المدني ، ولم يكد

(١) انظر تفسير الآية في كتب التفسير السابق ذكرها

يمر على هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بضعة أشهر حتى أخذ يرسل سراياه . ولما لم يكن في القرآن المكي صراحة بذلك فتكون الرغبة من جانب الراغبين ، وعدم الإذن من جانب النبي مما لم ينزل به قرآن ، وهذا مما وقع كثيراً في أحداث السيرة . والروايات تذكر أن التنديد موجه للمذكورة اسمائهم آنفاً ورفاقهم من المهاجرين الأولين مع أن هؤلاء كانوا وظلوا من الرعييل الأول المخلصين المستغرقين في دين الله المجاهدين في سبيله . ونستبعد جداً أن يكونوا تدمروا من فرض الجهاد وطلبوا تأجيله بعد الهجرة مع أنهم كانوا يتوقون إليه ويستأذنون به في مكة . وقد محصنا هذه النقطة في تفسيرنا استلهاماً من سياق الآيات السابق واللاحق ووصلنا إلى تقرير كون التذمرين هم من فريق المنافقين ومرضى القلوب . وكل من يتمعن في آيات سورة النساء ٦٠ - ٨٣ يصل فيما نعتقد إلى هذه النتيجة التي وصلنا إليها .

٢ - وفي سورة الأنعام الآية التالية :

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... »

١٠٨

وفي الآية نهي صريح للمسلمين عن شتم الكفار أو شتم آلهتهم حتى لا يقابلوا بشتم الله ، وتقرير طبيعة بشرية بأن كل أمرى يرى ما هو عليه هو الصواب فلا يتحمل تسفيهاً فيه ، وفيها تلقين للمسلمين أن يتركوا أمرهم لله الذي سوف يعاملهم يوم القيامة بما يستحقون وبالتالي تلقينهم الأناة وعدم الغضب .

والآية تلهم بقوة أن بعض المسلمين كانوا أحياناً يوجهون الشتائم إلى الكفار بسبيل التنديد بهم وبمقائدهم مواجهة ؛ وهذا لا يكون إلا من أناس أقوياء الشخصية ، جراء على الباطل مهما قوى أصحابه ؛ وبالتالي تلهم بقوة أن من المسلمين من كانوا كذلك وكانوا لا يرون أن يسكتوا لبغاة الكفار ونجارهم .

٣ - في سورة الجاثية الآية التالية :

« قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ... »

١٤

. وقد نقل الرواة في سياقها أن بعض المشركين شتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
فشتمه وكاد الأمر يتفاقم ، فنزلت الآية تلقن سمة الصدر والصبر وعدم المضي في المقابلة إلى
نهاية لا تحمد عاقبتها ^(١) . والرواية لا تخلو من اتساق مع الآية وروحها فيما هو المتبادر ؛
وإن كان المحتمل أيضاً أن يكون المؤمن الذي أمرت الآية بنصحه قد كان يبدي تدمره
من موقف الكفار ضد المسلمين بصورة عامة ويقترح عدم السكوت لهم مما يخرج عن
نطاق البحث وتأنيده .

٤ - في سورة النحل الآيات التالية :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُكُمْ بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ . وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ
مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ... »

١٢٥ - ١٢٨

ولقد ذكرت الروايات أن الآيات ١٢٦ - ١٢٨ مدينيات ، وأنها نزلت على أثر
وقعة أحد حينما اشتد الحزن بالنبي صلى الله عليه وسلم على استشهاد عمه حمزة رضي الله عنه
وبقربطنه ، فحلف بأن يمثل بسبعين من كفار قريش انتقاماً .

ومضمون الآيات واتصالها بما سبقها يحمل على التوقف في قبول هذه الرواية في صدد

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والبخاري والمازني

الآيات ، ويساعد على تأويلها بأنها تحتوي خطة ربانية قرآنية للنبي والمسلمين في الدعوة :
 فليعلم أن يدعوا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلوا بالتي هي أحسن ، فإذا قوبلوا
 بمقابلة سيئة فلهم الخيار في المقابلة بالمثل فحسب ، مع ترجيح الصبر والتسامح وترك الأمر
 لله . والمتبادر أن هذا التلقين إنما جاء بسبب ما كان من مواقف الكفار التي قد لا تطاق ،
 وما كان يعتلج في نفوس الأقوياء من المسلمين من الرغبة في الوقوف منها موقف المقابلة ،
 بل قد تلهم أن بعضهم قد وقف فعلا منها موقفا شديداً ومتطرفاً (١) .

٥ - في سورة الشورى الآيات التالية :

« فَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَالَّذِينَ يَحْتَمِبُونَ كِبِيرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا
 مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ
 بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ
 سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .
 وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
 يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَلَيْسَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
 وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزِيمِ الْأُمُورِ »

وقد قال بعض المفسرين والرواة إن هذه الآيات أو بعضها نزلت في الثناء على أخلاق
 الأنصار ، كما قال بعضهم إنها أو بعضها نزلت حينما أخذ المسلمون يجاهدون انتصاراً لأنفسهم
 من الأذى الذي لحق بهم في مكة ، وهذا يعني أنها مدنيات في حين أن المفسرين لم
 يذكرها ذلك . والآيات متصلة بما قبلها وما بعدها اتصالاً وثيقاً أولاً ، وطابع العهد المكي
 وأسلوبه غالبان عليها ثانياً . وهي سلسلة رائعة في بيان خير الأخلاق التي يتحلى بها المسلم

(١) إن المفسر الطبري يروي مدينة الآيات على النحو الذي أوردناه . ويروي مع ذلك رواية عن بعض
 التابعين أن بعض المسلمين في مكة قالوا يارسول الله لو أذن لنا الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب . فأنزل
 الله الآيات . وهذه الرواية مؤيدة لما أوردناه كما هو ظاهر .

المخلص ، والحدود التي يجب أن يقف عندها المسلم في مقابلة العدوان بالمثل ، والحث مع ذلك على الصبر والمغفرة والتسامح ، وقد تكررت السلاسل المماثلة في القرآن المكي ، كسلاسل الأنعام ١٥٠ - ١٥٣ والأعراف ٣١ - ٣٣ والرعد ١٩ - ٢٦ والإسراء ٢٣ - ٤٠ الخ .

والذي يتبادر لنا من روح الآيات ونصها أن بعض المسلمين كانوا يودون مقابلة الكفار في مكة على أذاهم بالمثل ولا يرون الإذعان والصبر على هذا الأذى فاقترضت حكمة التنزيل إيجاءها لتكون الخطة المثلى للمسلمين في موقفهم الحاضر آنذاك وفي كل موقف مماثل .

المبحث السابع

الأزمات النبوية النفسية

بواعث الأزمات النفسية ومداهها في صفحات السيرة النبوية - أنواع الآيات الدالة عليها - الآيات الدالة على حدة الأزمات وتعليقات عليها - الآيات الدالة على حزن النبي وضيق صدره من مواقف الكفار وتعليقات عليها - الآيات المتضمنة تسلية النبي ودلالاتها - الآيات المتضمنة تصيير النبي ودلالاتها - تأثر النبي بطلب الكفار لإقصاء الساكنين عنه - خطور التساهل مع الكفار على باله وإنما هو في ظروف أزمة نفسية - ما كان يشهده تمتع الكفار بالمال والقوة من أزمة في النبي ومدى ذلك - موقف أكثر أقارب النبي الجعودي في مكة وما كان يشهده في نفسه من أزمات حادة .

الصورة الأولى

في القرآن المكي آيات كثيرة تعبر عما كان يشعر به النبي صلى الله عليه وسلم من حزن وألم ، وتدلل على أنه كان يطارأ عليه من حين لآخر أزمات نفسية حادة بسبب موقف الأثرية الساحقة من العرب عامة وأهل مكة خاصة السليبي من الدعوة ، ثم بسبب موقف أكثر زعماء مكة السليبي والعدواني منها ومن المسلمين ؛ وبما لا يرب فيه أن هذا مما يتصل اتصالاً وثيقاً بالسيرة النبوية في العهد المكي ، وبما ينطوي فيه بمض صورته ومشاهدته ؛ وهو ما جعلنا نفرد لهذا الموضوع مبحثاً خاصاً نلم به من مختلف نواحيه .

والآيات المتصلة بهذا الموضوع أنواع : منها الصريح القوي في تعبيره ودلالته ، ومنها ما يمكن أن يكون بمثابة قرائن وملهمات ، كما أن منها ما يتضمن صوراً من صور العهد ويلهم أنه إنما كان في ساعة أزمة نفسية ؛ وسنستعرض الآيات على حسب هذا التصنيف ، مع التنبيه أولاً إلى أننا لم نحص كل ما يمكن أن يدخل في هذا الباب ، اكتفاء بما اخترنا لإيراده

وعرضه ؛ وثانياً أثارنا آيات سور كل صنف على حسب ترتيب نزولها ، لنساعد القارىء على معرفة ظرف الأزمة التي تعبر عنها أو تشير إليها صراحة أو ضمناً .

الصورة الثانية

فأولا مايدل على حدة الأزمات :

١ - في سورة فاطر الآية التالية :

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ آتَاهُ اللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ... »

٨

إذاحتوت نهيًا للنبي عن إهلاك نفسه حسرة على عدم إيمان الجاحدين ، وتسليته له بتقرير أن الهداية والضلال من الله ، وإذا تلمه أنها نزلت في وقت اشتد فيه الحزن والغم على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب موقف الجحود الذي يقفه قومه من دعوته .

٢ - في سورة طه الآيات التالية :

« طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ... »

٣ - ١

إذاحتوت تنبيها للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لم ينزل عليه القرآن ويندبه لرسالته ليشتقى ويحمل نفسه فوق طاقتها ، وإنما لتذكير من حسنت سريرته واستشعر خوف الله ؛ وفي هذا تسليته وتسكين للنبي صلى الله عليه وسلم في ظرف من ظروف اشتداد حزنه وغمه على ما هو المتبادر .

٣ - في سورة الشعراء الآيات التالية .

« طسّم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ »

لَهَا خَضِيعِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُخَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . . .

٦ - ١

إذ احتوت عتاباً محبباً للنبي صلى الله عليه وسلم على ما يبدو منه من حزن شديد يكاد يقتل به نفسه بسبب عدم إيمان الناس وإعراضهم ، وتسليته له وتشبيته ، فالله قادر على إهلاكهم ، وسوف يرون عاقبة استهزائهم بذكر الله وآياته . ومما لاريب فيه أنها نزلت في ظرف اشتد فيه حزن النبي وهمه من مواقف التكذيب والإعراض وهذا مما احتوته الآيات صراحة أيضاً .

ومن الجدير بالتنبيه أنه أعقب هذه الآيات سلسلة من قصص الأنبياء تضمنت ما كان من مواقف الأمم السابقة عربية وغير عربية من أنبيائهم ؛ وفيها مماثلة لما كان يبدو من كفار مكة وزعمائها من مواقف ويصدر عنهم من أقوال العناد والمكابرة ، مما يصح معه أن يقال إنها جاءت بسبيل تسليته النبي صلى الله عليه وسلم مما ألم به ، وإعلامه أن الأنبياء من قبله قد لقوا ما لقيه ، وقد سمعوا ما سمعوه ؛ هذا إلى ما فيها من إنذار الكفار بعاقبة مثل عاقبة الذين خلوا من قبلهم ، ووقفوا مثل مواقفهم أيضاً .

٤ - في سورة هود الآية التالية .

« فَلَمَّا تَرَأَتْ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقًا بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ... »

١٢

إذ احتوت تنبيها للنبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يمكن أن يجول في خاطره من تبرم و ضيق صدر ، فيتفادى تلاوة بعض ما يوحى إليه على الكفار بسبب مواقفهم وخشيته تحديهم بالإتيان بملك يصدقه ، أو استنزال كنز يفني به ويقوم دليلاً على رعاية الله له ، وإذ احتوت تشبيته له وطمأنة ، فليس هو إلا نذيراً ، وليس وكيلاً على الناس مكلفاً حملهم على الإيمان .

وقد روى الرواة أن الكفار كانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى الآيات إليه فيسخرون منه ، ويقولون : هلا استنزلت كنزاً أو أو ملكاً بدلاً من هذه الآيات إذا كانت من عند الله ؟ فكان يخجل ويتمهرب منهم أحياناً . وليس في الرواية مالا ينسق مع الآية إجمالاً . وصورة الأزمة الشديدة النفسية في الآية بارزة كل البروز

٥ - في سورة الكهف الآيتان التاليتان :

« فَلَمَّا كَبِّحَ بِفِئْتِكَ عَلَىٰ عَائِسِهِمْ لَمْ يَأْمُرْهُمْ إِلَّا رَبُّهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوا لَكُمُ الْآيَاتِ الْكَلِيمَ . . . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . . »

٧-٦

والآية الأولى مثل آية الشعراء الثالثة ، وفي الثانية تسلية بأن الدنيا إنما هي دار اختبار لمعرفة أعمال الناس . وتكرار الخطاب المائل في فترتين متباعدين يدل من دون ريب على تكرار الظروف ، وبالتالي على تكرار الأزمة من جراء موقف الجاحدين .

الصورة الثالثة

وثانياً الآيات التي تشير إلى حزن النبي وضيق صدره من موقف الكفار وأقوالهم .
١ - فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . . .

يس ٧٦

٢ - وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . . .

النمل ٧٠

٣ - وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . . . الحجر ٩٧

٤ - قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

الأنعام ٣٣

الظَّالِمِينَ بِثَابِتِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ ..

٥ — وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ...

يونس ٦٥

٦ — وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا

النحل ١٢٧

يَمْكُرُونَ ...

وهذه الآيات متماثلة بعض التماثل ، وهي بسبيل الإشارة إلى ما كان يعتلج في نفس النبي من حزن وفي صدره من ضيق بسبب مواقف الكفار ، أو بالأحرى طفاتهم ، الجحودية والتكذيبية والتعطيلية والعدوانية ، وما كانوا يوجهون إليه من تهمة وتهميدات ويبدوا أن مواقف الجاحدين كانت أحياناً تشتد حتى تؤثر في نفسه تأثيراً شديداً وتثير فيها الحزن ، فكانت الآيات توحى إليه في هذه الظروف . وتكرار الآيات يدل كاهو للتبادر على تكرار المشاهد الباعثة من حين إلى آخر ...

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

وثالثنا الآيات التي تتضمن تسلية النبي لعدم اهتداء الناس :

١ — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ...

سورة الشرح

٢ — فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ . إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْمَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَدْيِ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَّتْهُمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِثَابِتِنَا فَمَنْ مُسْلِمُونَ ... (١)

النمل ٧٩ - ٨١

(١) في سورة الروم آيات ماثلة بالنس لهذه الآيات . وسورة الروم من أواخر ما نزل ، والنمل مما نزل مبكراً .

٣ — إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ...
القصص ٥٦

٤ — وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ...
يونس ٩٩

٥ — وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتِطْعَتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ
أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَابِتٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ...
الأنعام ٣٥ - ٣٦

٦ — وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ ...
الأنعام ١٠٧

٧ — إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ ...
النحل ٣٧

٨ — فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ...

الفاشية ٢١ - ٢٢

٩ — نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدٍ ...
ق ٤٥

وهذه الآيات نزلت في مختلف أدوار التنزيل المسكي ، وفيها بعض التقارب في المعنى والهدف والنص كما هو ظاهر . وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من حين إلى حين ، لظروف أشد من ظروف ، ومواقف أنكى من مواقف ، بسبب عدم اهتمام الناس وموقفهم السلبي على شدة حرصه على اهتمامهم وخاصة من كان منهم محبباً إليه وكان يتوسم فيه الخير والارعواء ، فكانت الآيات تنزل

في هذا الظروف وبين حين وآخر مستهدفة في جملة ما تستهدفه تسليته وتخفيف ما يجده من لوعة ومضاضة .

الصورة الخامسة

ورابعا آيات التصبير :

١ — فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ .
لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ ... (١)

القلم ٤٨ - ٥٠

٢ — فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
الْفُرُوبِ ...

ق ٣٩

٣ — قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْخُلُقُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ
وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ...

يونس ١٠٨ - ١٠٩

٤ — فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَرِ ...

غافر ٥٥

٥ — فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَآءِ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَلَّ بِهِنَّ إِلَّا الْقَوْمُ
الْفَاسِقُونَ ...

الأحقاف ٣٥

٦ — وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ...

الطور ٤٨

(١) صاحب الخوت هو يونس عليه السلام ، وقد أشارت آيات في سورة الصافات إلى قصته إشارة أوضح يستفاد منها أنه لما واجهه قومه بموقف الجحود يثس منهم وهجرهم حنقا وغيظا .

٧ - فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ . . .

الروم ٦٠

وهذه الآيات كتلك نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكّي؛ وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من جراء مواقف الكفار الجحودية ومكايدهم من حين إلى آخر، بسبب ظروف أشد من ظروف، ومواقف أنكى من مواقف، فكانت الآيات تنزل بين حين وآخر لتثبيتته، وبث الطمأنينة والهدوء في نفسه ويُلفت النظر خاصة إلى آيات القلم، إذ تنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت الذي حدا به موقف قومه الجحودي إلى اليأس منهم وهجرهم، مما يمكن أن يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تأثر من صدمة الجحود منذ العهد الباكر تأثراً غير يسير. كذلك يلفت النظر إلى آية الروم، إذ توصيه بالصبر، والألمحله استخفاف قومه له على الفتور أو تغيير موقفه، أو النزوح، مما يدل على حادث شديد الأثر أثار في نفسه شيئاً غير يسير من القلق.

الصّورة السادسة

ونعتقد أن آيات سورة الأنعام ٥٢ - ٥٣ والكهف ٢٨ - ٣٠ والإسراء ٧٣ - ٧٥ والقصص ٨٥ - ٨٨ التي شرحناها في إحدى فقرات مواقف الزعماء المعتدلين في البحث الثالث، تنطوي على مشاهد من أزمت النبي صلى الله عليه وسلم النفسية؛ إذ يصح أن يقال في صدد آيات الأنعام والكهف: إن النبي إذا كان خطر على باله أن يهمل الفقراء والمساكين من المسلمين أو يصرفهم عنه حينما احتج الزعماء وطلبوا إقصاءهم عنه ليجلسوا إليه ويتحدثوا معه، فإنما كان هذا في ساعة من ساعات أزماته النفسية ومنبعثاً عن حزنه الشديد لتمسك الزعماء بجحودهم ومعارضتهم، ومتابعة الناس لهم، وعن أمله في ابحياز المعتدلين إلى صفه؛ وإذ يصح أن يقال هذا كذلك في صدد آيات الإسراء والقصص، وما يمكن أن يكون قد خطر على باله من التساهل والاستجابة لبعض مقترحات هؤلاء الزعماء.

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

ومما يصح إحقاقه بهذا الباب ما كان يثيره في نفسه ونفس المسلمين تمتع الكفار أو بالأحرى زعمائهم بزينة الحياة الدنيا من مال وبنين وجاه وقوة ، من أزمات ، إذ كان هذا في وقت كان فيه أكثر المسلمين في فقر وعوز شديدين ، وكان الأغنياء القليلون فيهم قد أنفقوا أموالهم ، وتمطلت مصالحهم بسبب مقاومة الزعماء الأقوياء لهم ^(١) .

وقد انطوت آيات مكية على الإشارة إلى هذا ، إذ جاء في سورة طه الآيتان

التاليتان .

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثْنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ... »

١٣١ - ١٣٢

إذ احتوتا نهياً للنبي عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وتذكيراً له على

سبيل التسلية بأن هذا ليس إلا فتنة وابتلاء .

وإذ جاء في سورة الحجر أيضاً هاتان الآيتان المائلتان بعض المائلة للسابقتين :

« وَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْعَشَائِرِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . . . »

٨٧ - ٨٨

وقد احتوتا تذكيراً للنبي صلى الله عليه وسلم بنعمة الله عليه واختصاصه بالقرآن ، ونهياً عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وعن الحزن على عدم ارعواهم والفقرة الأخيرة من الآية الثانية ذات مغزى خاص فيما هو المتبادر ، متصل بآيات

(١) في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ أن أبا جهل كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف أنه وقال له : تركت دين أبيك وهو خير منك ، فلنفسهن حملك ولنقلين رأيك ، ولنضعن شرفك ! وإن كان تاجراً أو ذا مال قال له : والله لنكسدن تجارتك ولتهلكن مالك .

الأنعام والكهف التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة ، إذ يستلهم منها أسها بسبيل إثارة عطف النبي على المؤمنين الذين كان أكثرهم فقراء ، واعتبارهم أفضل من الزعماء الكافرين ونبه أولاً إلى أن من المحتمل أن يكون مما أثار هذه الأزمة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من أثر تمسك الزعماء بالبحود والعناد وتأثيرهم بقوة جاههم ومالهم في سائر الناس ، وما كان من اعتدادهم بما كانوا يتمتعون به ، واعتبارهم ذلك دليل حظوة ربانية ، ومانعاً لهم من العذاب ، وسبباً من أسباب الترفع عن الانخراط في سلك واحد مع الفقراء والصعاليك ، ومؤهلاً لهم لرسالة الله ، مما رددته عنهم الآيات التالية وأمثالها :

١ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ...
سريم ٧٣

٢ — أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ...
المؤمنون ٥٥ - ٥٦

٣ — وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ...
سبا ٣٥

٤ — وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَىٰ بِتَيْنِ عَظِيمٍ ...
الزخرف ٣١

وثانياً إلى أن القرآن قد حكى مثل هذا الخاطر أو الأزمة النفسية النبوية عن موسى صلى الله عليه وسلم في إحدى آيات سورة يونس وهي :

« وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ... »

٨٨
مما يمكن أن تكون مما أورد على النبي صلى الله عليه وسلم خاطره وبرره له ، وأثار فيه أزمته النفسية أسوة بموسى عليه السلام .

الصورة الثامنة

وأخيراً نأتي إلى نقطة هامة نعتقد أنها كانت مما يثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أزمات نفسية حادة من آن لآخر ، ونظن أن بعض الآيات التي استعرضناها قد نزلت بسببها ، أو كانت فيما استهدفته في سياق تهذئة روع النبي ؛ ونعني بها تمسك أكثر أقارب النبي الأديين بدين الجاهلية ، وعدم متابعتهم الدعوة مع أنهم كانوا يتمصبون لنصرتهم بقوة العصبية الاجتماعية ، وقد كان ذلك موضوع تنديد قرآني في آية من سورة الأنعام على ما قرره كثير من المفسرين وهي : « وهم يهون عنه وينأون عنه ... ٢٦ » إذ قالوا في تفسيرها ما مفاده أن أقارب النبي الأديين وخاصة عمه أبا طالب كانوا يهون عن مس النبي صلى الله عليه وسلم بالأذى في حين يبتعدون عن دعوته .

ومن مشاهد النقطة التي نتكلم عنها ما انطوى في آيات من سورة الشعراء وهي :
« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّيَ ، ثُمَّ تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . . . »

٢١٤ - ٢١٧

إذ تأمر النبي بإنذار عشيرته الأقربين بصورة خاصة ، وإعلان البراءة مما هم عليه إذا عصوه ولم يستجيبوا إليه ، فإن من الطبيعي أن يكون هذا الأمر والاختصاص منبعثين عن وقوف أقاربه الأديين أو أكثرهم موقف السلب والجحود من دعوته .

ولقد روى المفسرون والرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية دعا أقاربه بني عبد المطلب وكانوا نحو أربعين رجلاً إلى وليمة أول مرة فتنفروا فور انتهاء الطعام؛ لأن أبا لهب قال لهم إن محمداً سحرهم أو سيسحرهم ، وأنه دعاهم إلى وليمة ثانية ، وقال لهم يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه ، فأبيكم يؤازرني؟ فأحجم القوم ، فقال علي رضي الله عنه : أنا يا رسول الله ،

فأخذ برقبته وقال : هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيعه ! ومما ذكره كذلك أنه لما نزلت الآيات صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، وجعل الذي لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ، وأن النبي قال لهم : رأيتم لو أخبرتم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ! ألهذا دعوتنا ؟ وهناك روايات أخرى تذكر أنه خاطب بني عبد المطلب والعباس عمه وطفة عمته وفاطمة ابنته وقال لهم : لا أغنى عنكم من الله شيئا .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فالآية صريحة بأن أقارب النبي صلى الله عليه وسلم أو أكثرهم كانوا إلى حين نزول الآيات على دين الجاهلية ، فأمر النبي بإنذارهم ؛ كما أنه يستفاد من الروايات بصورة عامة أن أكثر أقاربه الأذنين قد ظلوا في موقفهم السلبى بعد هذا الإنذار ، إذ مات عمه وحاميه أبو طالب على دين الجاهلية ، وظل عمه العباس كذلك إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة بمدة طويلة ، حتى إنه كان في صف الكفار مقاتلا في غزوة بدر ومن أسراهم ، وكان في صفهم ومن أسراهم عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ابني عمي النبي أيضاً^(١) ، وقد ناوأ عمه أبو لهب الدعوة أشد مناوأة إلى درجة أنه أخل بتقليد العصبية ومات على دين الجاهلية . وإذ ناوأه بعض أقاربه وإن كانوا دون أبي لهب شدة ؛ وإذ كان الذين تابعوه في العهد المكي من أقاربه الأذنين يكادون يعدّون على الأصابع ، بل إن عمه حمزة الذي أسلم في مكة قد ظل

(١) روى الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ١٦٢) أن العباس قال للنبي (صلعم) قد كنت مسلماً فقال له الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك . وأما ظاهره فقد كان علينا . فافند نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث .

بضع سنين متمسكا بدين الجاهلية ، ولم يسلم إلا في ظرف ثورة عصبية على ما ذكرته روايات السيرة .

وإنه لمن الطبيعي أن يثير هذا الموقف السلبي في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أزمات حادة من حين لآخر ؛ فقد عرفت بيئة النبي وعصره بالتضامن أو العصبية العائلية ؛ ومن المعقول أن ينظر الناس فيما ينظرون إليه من أمر دعوة النبي وسيرها إلى موقف أقاربه الأدين منها ، وأن يكون لهذا الموقف أثر فيهم ، وأن يتخذ الزعماء موقفهم إذا كان سلبيا - كما كان الأمر واقعا - حجة للانصراف والمكابرة والتمسك بدين الآباء وتقليدهم ، ووسيلة للدعاية بين عامة الناس ضدها . هذا إلى ما كان يعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من حزن على ضلال أقاربه وخاصة المحبين إليه منهم وما سوف يصيرون إليه من مصير رهيب ، ومن حرص شديد على هدايتهم ، مما انطوت على التعبير عنه الآيات التي استعرضناها من قبل .

المبحث الثامن

صورة متنوعة للمسلمين في العهد المكي

صلة هذه الصور بالسيرة النبوية - فقراء المسلمين ومساكينهم - أغنياء المسلمين - أقوياء المسلمين - تفاني المسلمين في تأييد النبي واتباع وصاياه - تفانيهم في الله وعبادته - أخلاقهم الكريمة - التفاوت بينهم في الطاعات - أبناء مسلمون وآباء كافرون - آباء مسلمون وأبناء كافرون - استمرار الصورتين المذكورتين إلى ما بعد الهجرة إلى يثرب - صور لما كان يقع بين المسلمين والكفار من جدل وأخذ ورد - سخيرية الكفار من المسلمين - ارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر - ارتداد بعض المسلمين وتوبتهم - صور لمواقف صنف من بعض المسلمين .

الصورة الأولى

في القرآن آيات عدة نزلت في مناسبات متنوعة وفي مختلف أدوار التنزيل يمكن أن ترى فيها صور متنوعة للمسلمين في العهد المكي . ولما كانت هذه الصور متصلة بالسيرة والدعوة النبويتين وأثراً من آثارها فقد رأينا أن نستعرضها في مبحث خاص تم به الصورة العامة لهذا العهد ويختم به هذا الفصل .

وننبه إلى أن من هذه الصور ما مر الكلام عنه في المباحث السابقة ، ولما كان من المفيد أن يكون جميعها منتظماً في سلك واحد فإننا سنكتفي بإشارة خاطفة إلى ما مر منها .

الصورة الثانية

وإليك سلسلة من هذه الصور :

(١) إنه كان بين المسلمين عدد غير يسير من الفقراء والمساكين ، وكانوا موضع استهزاء واحتقار من جانب الكفار وخاصة الزعماء ، ووسيلة إلى تعييرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، وإلى الدعاية ضد الدعوة . وهذا منطوق في آيات الأنعام (٥٢)

والكهف (٢٨) التي تكلمنا عنها في مبحث سابق ، كما هو منطوق في الآيات التالية :
 « وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ . أَتَتَّخِذُنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ
 زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ . . . »
 ص ٦٢ - ٦٣

(٢) إنه كان بينهم ذوو ثروة ومال أيضاً ، ويمكن الاستدلال على هذا بآيات عدة
 امتدح فيها المسلمون الذين يؤتون الزكاة والذين ينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية
 والذين يؤدون حق الفقراء المعلوم في أموالهم مما لا يصح أن يكون إلا من مثل هذه الطبقة
 كما هو المتبادر . وإليك بعض هذه الآيات :

١ - إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
 وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ . . .
 فاطر ٢٩

٢ - هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . . .
 النمل ٢ - ٣

٣ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ءَاخِذِينَ مَسَاءِ نَّهْمَهُمْ رَبَّهُمْ لَنُبْرِئَهُمْ
 قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَشْحَارِ
 هُمْ يَسْتَفْرِغُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . . .

الذاريات ١٥ - ١٩

٤ - أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . . .
 القصص ٥٤

٥ - قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
 اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ .
 إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
 ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . . .

المؤمنون ١ - ٨

٦ — إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأْمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . . .

المعارج ٢٢ - ٣٤

٧ — تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . . .

السجدة ١٦

٨ — وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . . .

الرعد ٢٢

وعما يلفت النظر أن الآيات التي تنوه بالمؤمنين الأغنياء وإنفاقهم ، أكثر من التي تتضمن الإشارة إلى الفقراء مهمهم ؛ والراجح أن هذا يستهدف التنويه بالعمل الذي هو عادة مما يصب على النفوس من جهة ، وتعظم قيمته في ظروف مثل ظروف البهد المكي وما كان فيه من كثرة الفقراء والمحتاجين بين المسلمين الذين تقتضي تلك الظروف الاهتمام لأمرهم والبر بهم من جهة أخرى .

(٣) إنه كان بينهم الأقوياء بأشخاصهم أو عصبياتهم . وهو مضمون آيات الأنعام ١٠٨ والجاثية ١٤ والشورى ٣٦ - ٤١ والنحل ١٢٦ والنساء ٧٧ التي شرحناها في مبحث سابق .

(٤) إنهم كانوا متفانين في تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وتأيدته ، واتباع أفضل الطرق التي يؤمرون بالسير فيها كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ...
الأعراف ١٥٧

٢ — الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ
الزمر ١٨

الصورة الثالثة

(٥) إنهم كانوا متفانين في عبادة الله في الليل والنهار ، والتقرب إليه بصالح الأعمال ،
والاستشعار لخشيته ، والخشوع للقرآن ، كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ...
يونس ٦٢ - ٦٤

٢ — اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَشِّبًا مِثْقَالِي تَقْشِيرِ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي
بِهِ مَن يَشَاءُ ...
الزمر ٢٣

٣ — إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ .
نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ...
فصلت ٣٠ - ٣٣

٤ — إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِبَنَاتِهِمْ
يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتًا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ...
المؤمنون ٥٧ - ٦١

٥ — يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّامَّةَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . . .

الإنسان ٧ - ١٠

٦ من هذا الباب آيات فاطر ٢٩ والأأنعام ٥٢ والكهف ٢٨ والذاريات ١٥ - ١٩ والمؤمنون ١ - ١٠ والمعارج ٢٢ - ٢٤ وقد نقلناها سابقاً ؛ ومنه آيات الفرقان ٦٣ - ٧٦ التي نقلها بعد قليل .

(٦) إنهم قد تأثروا بتعاليم الإسلام وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ووصايا القرآن تأثراً عظيماً واستغرقوا في ذلك ، وهذا يستلهم من آيات عدة أثبت الله فيها على أخلاقهم جميل الثناء ووصفها أقوى وصف كما ترى في ما يلي :

١ — وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . . .

الفرقان ٦٣ - ٧٦

٢ — وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ...

النحل ٤١ - ٤٢

٣ — أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُولُو الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثُقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا
أَبْنِيَاءَ وَجِهَ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ...

الرعد ١٩ - ٢٢

٤ - من هذا الباب آيات فصلت ٣٠ - ٣٣ والإنسان ٧ - ١٠ والشورى ٥٦ - ٤٣
والمعارج ٢٢ - ٣٤ والؤمنون ١ - ١٠ وقد نقلناها سابقاً .

(٧) على أنه يستلهم من بعض الآيات أنه كان بينهم تفاوت في الطاعة والتفاني بحيث
وصف فريق بالسابقين وفريق بأصحاب اليمين وفريق بالمقتصد وفريق بالسابق بالخيرات ،
وبحسب نبيه على ما هناك من تفاوت في جزائهم كما ترى في الآيات التالية :

١ -- ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ...

فاطر ٣٢

٢ — وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَبُ الِّمِيْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الِّمِيْمَنَةِ . وَأَصْحَبُ
الْمَشْئِمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمَشْئِمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّتِ
النَّعِيمِ . ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ...

الواقعة ٧ - ١٤

٣ — فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرْبًا أُنثَرَابًا . لِأَصْحَابِ الِّمِيْمَنَةِ . ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ .

الواقعة ٣٦ - ٤٠

وثلثة من الآخرين ...

٤ — فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا
إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . . .

الواقعة ٨٨ - ٩١

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

(٨) إنه كان منهم من أسلم وظل أبواه كافرين وبقي متمسكا رغم إلحاحهما وأذاها
للأدي والمعنوي . وهذا منطوق آيات العنكبوت ٨ ولقمان ١٤ التي تكلمنا عنها في
مبحث سابق .

(٩) إنه كان منهم كذلك من أسلم وظل أبناؤهم كافرين عاقين آباءهم كما يستلهم من
هذه الآية :

« وَالَّذِي قَالَ لَوْلِدِيَ أَفٍ لَكُمْ أَنَا نَبِيٌّ أَن أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ
قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِينَانِ اللَّهَ وَيَلُوكَ ءَامِنِينَ وَإِن وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ قَيُّوْلُهُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِرٌ
الْأَوَّلِينَ ... »

الأحقاف ١٧

ولقد ظلت الصورتان المذكورتان إلى ما بعد الهجرة من مكة إلى يثرب ، وكان لها
أحيانا أثر أليم في بعض الظروف يصل إلى حد الحرج كما يستلهم من الآيات المدنية التالية:
١ — لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَلَوْ كَانُوا ءِآبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ...

المجادلة ٢٢

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِن
اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْنَاكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ...

التوبة ٢٣

على أن من الحق والواجب أن نذبه على نقطة هامة . فإن تكرر التنبيه إلى عدم
الالتزام بطاعة الآباء إذا ما أمروا بالشرك في القرآن المكي . وهو ما جاء في آيات

سورة لقمان (١٣ - ١٤) وآية سورة العنكبوت (٨) التي أوردنا نصها في مناسبة سابقة يسوغ القول إن صورة إيمان الأبناء في حالة احتفاظ الآباء بدينهم الجاهلي كانت أقوى وأوسع نطاقاً. وقد عرف هذا معرفة يقينية من تراجم الرعيل الأول من مسلمي مكة وبخاصة قريش. وعرف إلى هذا من هذه التراجم أن معظم هذا الرعيل كانوا في سن الشباب أو في السن التي لم تتجاوز سن الشباب أي في سن النبي «صلم» حين بعثته وهي سن الأربعين ودونها حيث يبدو في هذا ظاهرة طبيعية ولكنها هامة في بابها من حيث أن سن الشباب هي السن التي تسمح لصاحبها اعتناق الجديد ونبذ القديم دون سن الشيخوخة التي كانت من أسباب بقاء معظم زعماء قريش في صف الكفار - على ما عرف من تراجمهم. ولقد تعرضوا لاضطهاد آبائهم وأعمامهم وزعماء أسرهم فاخترت الهجرة إلى الحبشة بإذن الله ورسوله فراراً بدينهم. وكان العدد الأعظم من المهاجرين منهم نساء ورجال على ما ذكرناه قبل.

ولقد كانت الدعوة الإسلامية ثورة كبرى من مختلف نواحيها. فهي ثورة دينية. وثورة اجتماعية. وثورة أخلاقية. وثورة نفسية. وثورة فكرية. وثورة إنسانية. وثورة سياسية. وثورة قومية. فكان أن استجاب لها شباب قريش وقاموا بأمرها بتأييد الله وإلهامه بمجاهداتهم وتضحياتهم وتغلبهم على تقاليد آبائهم المتنوعة. فكانوا المثل الرائع الخالد. (١٠) إن من المسلمين أناساً ارتدوا عن الإسلام وشرحوا بالكفر صدرأ وظلوا في صفوف الكفار، كما أن منهم أناساً ارتدوا ثم ندموا واغتمموا فرصة ما فهاجروا وعادوا إلى حظيرة الإسلام مجاهدين صابرين، وقد انطوت على ذلك آيات النحل ١٠٦ - ١٠٩ و ١١٠ التي شرحناها في مبحث محنة الأذى والفتنة.

(١١) إنه كان يبدو من بعضهم تبرم من شدة الأذى والحنة والخوف منهما، حتى إن منهم من كان يصل به الأمر إلى الختال والمراوغة والتفان في دينه أو اليأس من نصر الله وتأييده مما انطوت عليه آيات العنكبوت ١ - ٦ و ١٠ - ١١ والحج ١١ - ١٦ التي شرحناها في نفس المبحث أيضاً.

فصل في الكتابيين في العهد المكي

صلة الكتابيين بالعرب الحجازيين والدعوة النبوية - تصنيف الآيات في أربعة مواضع - الأول : القرآن لزاء الكتابيين بوجه عام - أول ذكر الكتابيين في القرآن ومداء - أول إشارة إلى الكتب السماوية ومداء - صفات النبي ودعوته الشاملة - تأييد القرآن لما قبله من الكتب ومداء - استشهاد علماء بني إسرائيل على صحة الوحي والتنزيل القرآني ومداء - استشهاد الكتابيين مطلقاً ومداء - تقرير معرفة الكتابيين للنبي والوحي القرآني ومداء - تنويه القرآن بأنبياء الكتابيين ومداء - تقرير وحدة الأسس بين الإسلام والأديان السابقة ومداء - تعدي الكفار باستشهاد الكتابيين ومداء - التقارب بين القصص القرآنية وقصص الكتب السابقة ومداء - هدوء الأسلوب القرآني المكي نحو الكتابيين ومغزاه - موقف النبي المسلم نحوهم منذ البدء - ما يلهم الأسلوب القرآني من موقف الكتابيين موقف العطف والتأييد - الموضوع الثاني : صورة من سورة القصص لإيمان الكتابيين ومداء - صورة أخرى من سورة الإسراء - شهادة أحد الإسرائيليين وإيمانه - صورة أخرى من سورة العنكبوت لإيمان الكتابيين - صورة من سورة الرعد بفرحهم ومداء - استدراك وتعليق في صدد آية في سورة العنكبوت - الموضوع الثالث : الآيات التي تشير إلى اختلافات الكتابيين ومداء وأثرها - الموضوع الرابع : عدم ورود تفصيل عن الخلافات والانحرافات اليهودية في القرآن المكي بالنسبة لليهود المعاصرين ومغزاه - ماجاء في سورة صريم عن ولادة يحيى وعيسى ومداء - ماجاء في سورة الزخرف عن عيسى ومداء - الفصول القرآنية عن المسيح اختوت حلاً صادقاً للمشاكل والخلافات فيه - أثر التقريرات القرآنية في استجابة النصارى للدعوة الإسلامية

الصورة الأولى

عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد الحجاز والشام واحتكوا بهم ، وأخذوا عنهم كثيراً من الأفكار والمعارف ، ومنهم من دان باليهودية والنصرانية وتضلع باللغة العبرانية ، واطلع على ما عند اليهود والنصارى من كتب ؛ وقد عرفوا كذلك ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق في الأمور الدينية والمذهبية ، وكان لكل ذلك صدى وأثر في نفوسهم وأذهانهم على ما بسطناه في كتابنا عصر النبي ويئته قبل البعثة .

وقد كان في مكة خاصة بعض الجاليات الكتابية ، يرجع تاريخ سكنها إلى ما قبل البعثة ، وشهدت أدوار الدعوة النبوية ولم تكن في عزلة عنها بطبيعة الحال .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن بين الدعوة النبوية القرآنية والديانتين الكتابيتين جامعة تجمع بينها وهي وحدانية الله صريحة ومؤولة ، ووحدية المصدر الذي صدرت عنه الديانات الثلاث وكتبها ، وقد كان الكتابيون من وجهت إليهم الدعوة بصورة عامة وخاصة .

ولقد ردد القرآن المكي كل هذا في فصول وآيات كثيرة احتوت صوراً متنوعة .
ومن الممكن تصنيفها في أربعة مواضع :

الأول : القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام .

الثاني : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

الثالث : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين .

الرابع : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الكتابيين العقائدية واستدراكاتها وتصويباتها .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

فأولا القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام :

(١) في سورة المدثر الآية التالية .

« وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَنقِذَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْمُؤْمِنُونَ ... »

٣١

ومضمونها يلهم تقرير وجود توافق بين ما جاء في القرآن وما عند أهل الكتاب ، وهذا من أسباب استهداف استيقانهم بصحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وتقرير عدم وجود محل لارتبابهم فيه .

والآية من الآيات التي نزلت مبكرة جدا بحيث يسوغ أن يقال إنها أولى الآيات التي ذكر فيها الكتابيون .

وهكذا يبدو أن ما يلهم مضمونها من التقريرات قد كان منذ أوائل التنزيل ، ثم أخذ يزداد قوة ووضوحاً .

(٢) في سورة الأعلى الآيتان التاليتان :

« إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى . . . ١٨ - ١٩ »

وفيها كما هو ظاهر تؤكد بأن بعض ماتضمنته آيات السورة من مبادئ الإسلام والسعادة الأخروية للمؤمنين الصالحين والشقاء للكافرين الفاجرين ، هو مما تضمنته الصحف المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وفيها بالتالي تقرير لوحدة الهدف والدعوة بين القرآن والكتب السماوية الأولى .

وقد ورد في سورة النجم آيات تماثل في نصها نص هذه الآيات ، وفي سياق تقرير المبادئ الإسلامية ، واتفاقها مع ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وسورتا الأعلى والنجم ، وخاصة الأعلى . مما نزل مبكراً جداً ؛ وفيها تقرير تصديق القرآن لما تقدمه من كتب سماوية مما ظل القرآن يردده في مختلف أدوار التنزيل .

(٣) في سورة الأعراف الآيتان ١٥٦ - ١٥٧ اللتان نقلناهما في الفصل الأول ، ولقد جاءتا عقب انتهاء فصل من فصول قصة بني إسرائيل وعطفاً عليها بأسلوب الاستطراد الذي جرى عليه القرآن كثيراً .

والأولى تضمنت تقريراً بأن الكتابيين يجدون صفات النبي الأمي - العربي - محمد عليه السلام في التوراة والإنجيل ، وتنويعها بالذين آمنوا به منهم وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ؛ والثانية تضمنت دعوة عامة إلى الناس جميعاً للإيمان بالنبي الأمي - العربي الذي يؤمن بالله وكتبه السماوية - كلماته - فدخل الكتابيون في شمول الدعوة أولاً ، وأعلن أن النبي مؤيد ومصديق للكتب السماوية السابقة ثانياً .

وسورة الأعراف من السور المبكرة في النزول ، ولقد كانت الآيات تتلى في مكة ويسمعا الكتائبون الذين شملتهم الدعوة بطبيعة الحال ، ثم آمنوا بالنبي وصدقوا بما جاء به كما ذكرت ، وفيهم نصارى وفيهم يهود على ما سوف نذكره بعد . ولقد ذكرت آيات مدنية نقلناها في مناسبة سابقة أن اليهود كانوا يستفتحون على العرب بالنبي العربي القادم ونددت بهم لكفرهم بما عرفوا حسداً وبنياً (البقرة ٨٩ - ٩٠) ، فلم يبق مجال للشك في أن الكتائبين كانوا يتحدثون عن صفات النبي الأمي - العربي وبيشرون به قبل بعثته ، استناداً إلى بشارات ونعوت كانت في الأسفار التي بين أيديهم ، ولما بعث آمن به منهم من طابت نفسه وتجرد عن الحقد والهوى والحسد .

وهكذا تكون الآية الأولى قد تضمنت تقرير حقيقة كان يحجر بها الكتائبون قبل نزول القرآن ، وبالتالي تقرير التوافق والنساق التامين بين التقريرات القرآنية وما عند الكتائبين وفي كتبهم من حقائق وبشارات ونعوت عرفوا أنها بشارات النبي العربي ونعوته .

الصورة الثالثة

(٤) في سورة فاطر الآيتان التاليتان :

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ . . . »

٣٢ - ٣١

والأولى تضمنت تقريراً بتأييد القرآن لما احتوته الكتب السماوية ، وتطابقه مع ما جاء فيها من مبادئ وأهداف ؛ وفي هذا تأكيداً للوحدة بين الدعوة النبوية القرآنية والكتب السماوية عند الكتائبين ؛ أما الثانية فيبدو أنها بسبيل تقرير أن القرآن قد جاء ليكون هو الكتاب المستقر بعد تلك الكتب ؛ وليكون شريعة الناس جميعاً ؛

وليكون الذين آمنوا بالقرآن والنبي الذي نزل عليه هم الذين اصطفاهم الله تعالى ليكونوا ورثة كتبه . وهذا من جوهر الدعوة النبوية المحمدية ، فهي مصدقة ووارثة لما قبلها وشريعة الناس جميعاً . وقد تكرر مضمون الآية الأولى في كل من سور الأنعام ويونس ويوسف والأحقاف كما ترى فيما يلي :

١ — وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . . .

الأنعام ٩٢

٢ — وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...

يونس ٣٧

٣ — وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ...

يوسف ١١١

٤ — وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ...

الأحقاف ١٢

(٥) في سورة طه الآية التالية :

« وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ...

١٣٣

وقد تضمنت تقرير أن التساوق والتوافق بين القرآن ، والكتب السماوية الأولى حجة قائمة وكافية على صحة الرسالة المحمدية والتنزيل القرآني ، إلى تقرير الوحدة بين القرآن وهذه الكتب بأسلوب آخر ؛ وفي الآية دلالة على أن العرب كانوا ملين بما تناولته واحتوته الكتب السماوية الأولى ، كما كانوا ينظرون إلى أهلها نظر الاعتماد والثقة .

(٦) في سورة الشعراء الآية التالية :

« أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَائِيلَ ...

١٩٧

ولقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن الانسجام التام في السياق والنظم والمضمون

وخطاب كفار مكة يحمل على ترجيح مكيتها ، وهي بسبيل الاحتجاج باعتراف علماء بني إسرائيل بالقرآن على صحة وحي الله به ، كما أنها بسبيل تقرير التطابق والتساوق بينه وبين ما يعرفه علماء بني إسرائيل أولاً ، وتقرير الاعتماد عليهم والثقة بشهادتهم شهادة إيجابية ثانية . وهي تلهم أن العرب كانوا كذلك يعتمدون عليهم ويشقون بهم ، إذ أريد إقامة الحجة عليهم باعتراف علماءهم بصحة التنزيل .

(٧) في سورة يونس الآية التالية :

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ... »

٩٤

والخطاب وإن يكن موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم فهو في الحقيقة موجه للسامعين ، وهذا مما جرى عليه الأسلوب القرآني كثيراً ، وقد تضمنت الآية استشهاد أهل الكتاب به ، والمتبادر أنه ينطوي في هذا تقرير استعداد أهل الكتاب للشهادة بصحة التنزيل القرآني ؛ كما ينطوي فيه تقرير طبيعة الوحدة والتساوق بين القرآن والكتب السماوية أولاً ، والاعتماد على أهل هذه الكتب بالشهادة الإيجابية ثانياً .

(٨) في سورة الأنعام الآية التالية :

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... »

٢٠

وهذه الآية تضمنت تقريراً قويا وواضحا بمعرفة أهل الكتاب صحة التنزيل القرآني معرفة لا يتطرق إليها أي شك كما يعرف الأب ابنه . وطبيعي أن ينطوي في هذا تقرير الوحدة والتساوق من جهة ، والثقة والاعتماد من جهة أخرى .

وقد جاء في السورة نفسها آية أخرى تضمنت تقرير نفس المعاني بقوة أيضاً

وهي هذه :

« أَفَنْزِلَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ

ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْلَحُونَ إِنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَرَدِّينَ ...

١١٤

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

(٩) وفي سور الأنعام أيضاً الآيات التالية :

« وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ
دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ . وَالْيَسَعَ
وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
وَأَجْتَبَيْنَهُمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ
مِن عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا
لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاتِهِمْ آقَدَتْهُ قُلُوبٌ
لَّا أَسْتَلْكُم عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ . . . »

٨٤ - ٩٠

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات حكمت موقفاً حجاجياً بين إبراهيم عليه السلام
وأبيه وقومه . ومع أن التعقيب استهدف إقامة الحججة على المشركين العرب^(١) فإن
الآيات قد احتوت تنويهاً بأنبياء الكتابيين وما كانوا عليه من هدى وحق ، وأمرأ
للنبي صلى الله عليه وسلم يجعلهم له قدوة والاهتداء بهديهم . وواضح أن هذا ينطوي أولاً
على تقرير احترام أنبياء الكتابيين ، وثانياً على تقرير وحدة الطريق والهدى بينهم وبين
النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته .

(١) جملة « فإن يكفر بها هؤلاء » عنت الكفار العرب على الأرجح .

(١٠) في سورة غافر الآيتان التاليتان :

« وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدَىٰ وَذِكْرَىٰ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ ... »

٥٤ - ٥٣

والآيتان تضمنتا التنويه بموسى وبني إسرائيل والتوراة ، مما هو متصل بما نحن بسبيل تقريره .

(١١) في سورة الشورى الآية التالية :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا
بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ... »

١٣

وفيها تقرير حاسم لوحدة الأسس فيما أوحى الله إلى الأنبياء ، وخاصة نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وما أوحى إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي تقرير لوحدة الأسس بين القرآن والكتب السماوية ، وبين المسلمين وأهل هذه الكتب وللتطابق والتساوق بين الفريقين .

(١٢) في سورة الأنبياء الآية التالية :

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ... »

٧

وقد احتوت تحدياً استشهادياً بالكتابين أهل الذكر . والمتبادر أنه ينطوي فيها تقرير استمدادهم للشهادة وتقرير الثقة بهم والاعتماد عليهم فيها .

وفي سورة الأنبياء التي نزلت بعد النحل آية مماثلة لهذه الآية ، أوردت لنفس الغاية التي وردت لها آية النحل ، مما يؤكد المعنى الذي قررنا أنه ينطوي في هذه الآية وبدل على تكرار الموقف الذي احتيج فيه إلى تقرير التحدي الاستشهادي .

(١٣) في سورة الأنبياء الآية التالية :

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ... » ٩٣

وقد جاءت عقب سلسلة من قصص الأنبياء ، منها ما هو شخصي ، ومنها ما هو متصل بمواقف الكفار منهم وفيهم إبراهيم وموسى وهرون وإسحق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب ويونس - ذو النون - وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وقد نوهت الآيات بهم ، وجميعهم من أنبياء الكتابيين . أما الآية فقد احتوت تقرير وحدة طريق الأنبياء ، وأن هذه الطريق هي طريق المسلمين أيضاً ، واحتوت بالتالي تقرير الوحدة في الأسس بين الإسلام وأهل الكتاب .

وقد تكرر هذا المعنى في آية في سورة « المؤمنون » التي نزلت بعد سورة الأنبياء مما يؤكد المعنى الذي استهدف تقريره كما هو واضح .

ويضاف إلى ما أوردناه من مفردات في كل منها صورة غير الأخرى ، مافي ماتوالى وروده في القرآن المكي من قصص أنبياء أهل الكتاب ، وأحوالهم الخاصة ، وسيرة أقوامهم معهم - في سور الفجر والقمر وقوص والأعراف ويس - ومريم وطه والشعراء والنحل والقصص ويونس وهود ويوسف والحجر والأنعام والصفات وسبأ وغافر والزخرف والدخان والذاريات ووح وإبراهيم والأنبياء والمؤمنون - مما يتطابق قليلاً أو كثيراً مع ماورد في كتب أهل الكتاب وما فيها من ثناء على هؤلاء الأنبياء ودعوة للتأسي بهم واحترامهم ، مما يتضمن معنى التساوق والاتحاد والتطابق بين القرآن والكتب السماوية ، وبالتالي بين الإسلام وأهل الكتاب .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

وهكذا فإن القرآن منذ الوقت المبكر من العهد المكي أكد وظل يؤكد طيلة العهد وفي مختلف أدوار التنزيل وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية ،

ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب ، وتأيد القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم للأَنْبياء السابقين والكتب السابقة، والتنويه بهم ، وأنه استشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية ، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ، كما يلهم طبيعية وتوقع استجابتهم للدعوة المحمدية القرآنية واندماجهم فيها ونصرها وتأيدها .

وإذا استثنينا الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتّابيين وانحرافهم عن أصل الدين الصافي ، وأهدافه العليا ، وما فيها من تنديد خاطف غير عنيف على ماسوف نذكره بعد ، فإن الأسلوب القرآني المكي في أهل الكتاب المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يهود ونصارى هو أسلوب هاديٌ محبب ليس فيه عنف ما .

ومن الطبيعي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم الذي أوحى إليه منذ الوقت المبكر بما أوحى وظل يوحي إليه بمثله بأساليب متنوعة ، قد وقف منذ البدء موقف المسلم المتحجب من الكتّابيين في مكة المتحد معهم في الأهداف والمبادئ ، والمحترم لأنبيائهم وكتبهم والمعترف بها والمؤيد لها .

ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ألم هذا الموقف قبل نبوته أيضا ، إذ كان بينه وبين بعض الكتّابيين في مكة - على ما استلهمناه وشرحناه في فصل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم - صلة ود ومبادلة عطف وتصديق ، وأن هذا من أسباب هذا الموقف الودي المتبادل ، هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأيد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم ، واستشهاد بهم واعتماد عليهم ، وتلقين بالوحدة التامة بينهم .

ومضامين المفردات القرآنية التي قلناها أولا ، والأسلوب الهادي الذي ظل متنسقا في أدوار التنزيل واحتوى استشهاد أهل الكتاب وانطوى فيه معنى الثقة بشهادتهم الإيجابية ثانياً ، إلى ما احتواه القرآن المدني من حملات عنيفة على اليهود بسبب مواقفهم الجاحدة الماكرة في المدينة ثالثاً - كل ذلك يسوغ القول بحزم أن الكتّابيين في الإجمال قد وقفوا منذ البدء من الدعوة المحمدية القرآنية موقف العطف والتأييد وظلوا كذلك إلى آخر العهد

المكي ، وأنه لم يقع بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم احتكاك وعداء كما وقع بينه وبين اليهود في المدينة .

على أنهم لم يبقوا عند هذا الحد ، بل حققوا ما كان متوقفاً من استجابتهم للدعوة واندماجهم فيها على ما سوف نذكره فيما يأتي :

الصورة السادسة

وثانياً : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

(١) في سورة الأعراف الآية التالية :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ .

١٥٧

والآية صريحة بأن فريقاً من النصارى واليهود في مكة وجدوا صفات النبي صلى الله عليه وسلم مطابقة لما في أيديهم من أسفار التوراة والإنجيل فآمنوا به واتبعوه ونصروه فاستحقوا التنويه الذي احتوته الآية .

وسورة الأعراف من السور المبكرة في النزول فتكون الصورة التي احتوتها الآية من الصور المبكرة لإيمان فريق من النصارى واليهود بالرسالة المحمدية .

(٢) في سورة القصص الآيات التالية :

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ۗ
ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ۗ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ
أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ۖ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَمُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ۗ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ...

٥٥ - ٥٢

ومع أن بعض الروايات ذكرت أن الآيات مدنية فإنها غير موثقة ، والانسجام التام في السياق والنظم والمضمون ، والصورة التي احتوتها الآية الأخيرة خاصة ، تسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بمكيها ؛ وقد تضمنت خبر إيمان الكتابيين بالقرآن وحكاية أقوالهم عن إيمانهم به وتصديقهم بأنه الحق من ربهم ، كما تضمنت خبر تعرضهم للوم المشركين ، وبالأحرى لزعمائهم ، وتأنيبهم فلم يأبهوا لذلك وظلوا متمسكين بموقفهم الإيماني . وهذا موقف عظيم يدل على قوة نفس ورسوخ إيمان ، بحيث لم يبالوا ما يمكن أن ينالهم من أذى أولئك الزعماء الذين لا بد من أنهم قدروا خطورة تصديق أهل الكتاب بالرسالة الحمديّة والتنزيل القرآني ، ولهم ما لهم من أثر في أذهان العرب واعتماد عليهم وثقة بهم ؛ ويزداد هذا الموقف عظمة إذا ما لوحظ أنهم في محيط أ كثرته الساحقة وزعماءه الأقوياء أعداء ألداء للدعوة ، يقدمون على كل شيء في سبيل تعطيلها والصد عنها ، وهم أقلية ضئيلة أو أناس غرباء لا عصبية لهم ، وقد أودى بعض المسلمين من عهد مبكر أشد الأذى ، وظل المسلمون عامة يتعرضون لمحنة الأذى والفتنة ؛ وسورة القصص من السور المبكرة في النزول نوعاً ما ، والآيات تحكي أمراً واقعاً قبل نزولها ؛ ومعنى هذا أن الكتابيين قد أخذوا يستجيبون للدعوة النبوية وينضمون إليها ويجهرون بتصديق النبوة والتنزيل القرآني منذ عهد مبكر .

(٢) في سورة الإسراء الآيات التالية :

« قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ... »

١٠٧ - ١٠٩

وفي هذه الآيات وصف آخر لموقف الكتابيين من القرآن في خشوعهم وبكائهم

من الخشية وسجودهم حينما كان يتلى عليهم إيماناً به وتصديقاً لما جاء فيه .

ولقد جاءت الايات في مقام التحدي للكفار والتفريع لهم ؛ معلنة أن سجودهم ومواقفهم لا قيمة ولا اعتبار لها ما دام الذين أوتوا العلم يقفون هذا الموقف التصديقي الخاشع ، ولموقفهم الاعتبار الأكبر والقيمة العظيمة . وهذا يلهم أن هذه المواقف والمشاهد كانت مما يقع على مرأى أو علم من الكفار من جهة ، وأنها كانت من عوامل طمأنينة المسلمين ووثوقهم ، وقوة صمود الدعوة واستعلائها من جهة أخرى . وسورة الإسراء هي أيضا من السور التي نزلت مبكرة نوعاً ما ، والايات تحكي مشهداً واقعاً قبل نزولها ، وفي هذا توكيد لما قلناه من استجابة الكتائبين للدعوة منذ العهد المبكر .

(٣) في سورة الأحقاف الآية التالية :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَنَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . . . »

١٠

وقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن سياقها ومضمونها الذي يوجه فيه الخطاب والتحدي والإنذار إلى الكفار ، يسوغ ترجيح مكيتها إن لم نقل الجزم بذلك . وهي صريحة بأن بعض بني إسرائيل شهد بصدق التنزيل القرآني ومماثلته لتنزيل التوراة وآمن به ، وفيها شيء من المعنى الذي احتوته الآيات السابقة : من حيث الاعتداد بإيمان الكتابي الإسرائيلي واعتباره حجة دامغة على المشركين .

(٤) في سورة العنكبوت الآية التالية :

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ . . . »

وفي الآية صراحة بأن الكتابيين يؤمنون بالتنزيل القرآني . وطبيعي أن هذا لا بد أن يكون تقريراً لواقع مشاهد . وفي الآية شيء من المعاني التي تلهمها الآيات السابقة كما يظهر من إنعام النظر فيها .

(٥) في سورة الرعد الآية الآتية :

« وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ
مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ... »

٣٦

وفيها صراحة بما كان يستشعره الكتابيون من فرح واستبشار بالتنزيل القرآني لما يرون فيه من مطابقة للأهداف العليا التي في كتبهم ومن وحدة المصدر . وطبيعي أن هذا لا بد أن يكون مقترناً بتصديقه وتأييده من جهة ، ومستنداً إلى واقع مشاهد من جهة أخرى .

وفي الآية شيء من المعاني التي تلهمها الآيات السابقة أيضاً .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

والآيات باستثناء آية الأحقاف لا تذكر هوية الكتابيين حيث تذكرهم مطلقين ، أما الآية المذكورة فإنها تذكر صفة المؤمن الشاهد صراحة وهو إسرائيلي . وقد استدللنا بها وبقرائن قرآنية أخرى في كتابنا عصر النبي وبيئته ، على احتمال وجود جالية يهودية في مكة ، أو على الأقل على تردد يهود المدينة على مكة ، ووجود علاقات تجارية أو غير تجارية بينهم وبين أهلها ، والمعروف بإلهام القرآن على ما شرحناه في كتابنا الأنف الذكر ، أنه كان عدد غير يسير من جوالي النصارى مستوطنين مكة ، ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثير من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة تحمل طابع الأسماء النصرانية ، كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطعلاً نبأ النبي العربي ، وأعلن إيمانه به .

وهكذا يمكن أن يقال إن أهل الديانتين الكتابيتين اليهود والنصارى في مكة الذين واجهوا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم عياناً وسموه قد رأوا فيه من الأعلام والصفات النبوية ما هو متطابق لما هو مكتوب عندهم في أسفار التوراة والإنجيل فقابلوا دعوته بترحاب وفرح وشهدوا بصدقها وصدق التنزيل القرآني وآمنوا بهما مع ما كانوا عليه وكان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون عليه من قلة وضعف وتعرض للأذى والمناوأة . وهذا واقع بعيد المدى والخطورة في صدد الدعوة الإسلامية بالنسبة لأهل الكتابين كما هو المتبادر .

وننبه إلى أن الصيغ القرآنية تلهم أن الكتابيين في مكة إطلاقاً وقفوا هذا الموقف ، كما أن تكرار تقرير القرآن ذلك يلهم أن هذا الموقف وهذه المقابلة كانت من كافتهم . وروايات السيرة لم تذكر فيما اطلعنا عليه أنه ظل في مكة كتابيون متمسكون بأديانهم ولم يندمجوا في الدعوة الإسلامية .

ولقد ورد في سورة العنكبوت هذه الآية :

« وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ... »

٤٦

والآية احتوت تعليماً قرآنياً للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بالخطوة التي يجب عليهم أن يسيروا عليها مع أهل الكتاب . وهي خطوة متسقة مع المفردات والتقارير والأسلوب المكي القرآني ؛ ومع ذلك فإنها تلهم أنها تتضمن تقرير أمر واقعي ، وهو أنه كان في مكة كتابيون في أواخر العهد المكي - لأن سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن المكي - وأنه كان يقع جدل ديني بينهم وبين النبي والمسلمين ، وأن منهم من كان يسلك في جدله سلوك المكابرة والتعجى والظلم ؛ فإذا كان هذا الاستلham صواباً فمن الراجح أن يكون هؤلاء ممن وقفوا تحت تأثير زعماء الكفار وصددهم وتهويشهم ،

أو كانت تربطهم بهم مصالح وروابط لم يسعهم أو لم يمكنهم التضحية بها أو التفتت منها ؛ ومهما يكن من أمر فإن الآيات القرآنية تلهم أن موقف الكتابيين بالإجمال كان موقفاً إيجابياً كما قلنا ، وأن شذوذ بعضهم عن طريق الأثرية سواء كان السبب جدلياً أو تعصبياً أو عقلياً أو مادياً ، من الأمور المتسقة مع طبائع الأشياء والأشخاص والبيئات ، وليس من شأنه أن ينقض ما استلهمناه وقررناه .

على أنه لما كانت هجرة المسلمين إلى يثرب بدأت في ظروف نزول سورة المنكبوت على ما شرحناه قبل ، فإن من الجائز أن تكون الآية قد تضمنت الخطة الواجب على المسلمين أن يسيروا عليها في المدينة حيث يكثر اليهود ، لاسيما وقد جاء بعدها آية تقرر أن الذين أتوا الكتاب يؤمنون بالنبي والقرآن وبالتالي تقرر موقف الكتابيين الإيجابي تقرير شيء واقعي وهي :

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ... »

٤٧

وبهذا التوجيه ينتفي ما يمكن أن يكون من وهم التناقض كما هو المتبادر وتنسق التقريرات القرآنية وملهماتها .

الصورة الثامنة

وثالثاً : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين :

(١) في سورة هود وفصلت آيتان متماثلتان نصاً وهو :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ... »

هود ١١٠ وفصلت ٤٥

(٢) وفي سور الشورى والزخرف والجمانية والسجدة هذه الآيات :

١ — شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْمَتِ رَبِّهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ . . .

الشورى ١٣ - ١٤

٢ — وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ . . .

الزخرف ٦٣ - ٦٥

٣ — وَلَقَدْ آتَيْنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . . .

الجنات ١٦ - ١٧

٤ — وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِئَاتِينَآ يُوقِنُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . . .

السجدة ٢٣ - ٢٥

وقد جاءت هذه الآيات في سياق إنذار المشركين ، والتنديد بهم ، والحجاج معهم ؛ وبسبيل نفي الخلاف عن الأهداف والمبادئ السامية ، ونسبته إلى الكتابيين الذين إنما وقعوا فيه بغيًا ، أي لأغراض باغية لا تمت إلى الحق والحقيقة في تلك المبادئ

والأهداف ؛ ثم بسبيل دحض ججة المشركين العرب باختلاف الكتابيين ، وأنخاضهم ذلك وسيلة للتمسك بما عندهم والتبجح به أولاً ؛ وبسبيل تقرير كون القرآن قد جاء بالحق ، ووضع الأمر في نصابه الحق ، وإنه لم يبق حجة لمحتج ثانياً .

غير أنه يمكن مع ذلك أن تلهم أنها استهدفت في الوقت نفسه تقرير واقع الكتابيين من الاختلاف والنزاع والانشقاق مذاهب وشيئا فيما بينهم ، ودعوتهم إلى الانضواء إلى راية القرآن الذي يمت إلى المصدر الذي تمت إليه كتبهم ، والذي يعود بدين الله إلى صفاته ومبادئه السامية التي لا تتحمل في أصلها خلافاً ، واتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، ونصره وتأييده ، والتسليم بما جاء به القرآن من حلول الحق لمشاكلهم وخلافاتهم المذهبية والنفسية ، لاسيما أن الآيات كانت تتلى في مكة ويسمعا الكتابيون فيها .

على أن هذا المعنى منطوق في آيتي الأعراف ١٥٧ - ١٥٨ اللتين نقلناهما قبل ، ومنطوق في بعض الآيات التي نقلناها آنفاً ؛ وقد جاء قويا صريحاً في بعض آيات سورة النمل كما ترى فيها :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .
وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ... »

٧٨ - ٧٦

ثم في بعض آيات سورة مريم التي جاءت تعقيباً على قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم كما ترى فيها :

« ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْخُلُقِ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ... »

٣٦ - ٣٤

ولعل من الحق أن يقال إنه كان لهذه التقريرات والدعوة القرآنية أثر فيما كان من تنبه الكتائبيين في مكة في مبدأ الأمر إلى ما وصل إليه أمرهم من خلاف ونزاع واتقسام لا يمت في أصله إلى مبادئ الدين وأهدافه السامية ، وفي إقبالهم على الإسلام ورؤيتهم في التقريرات القرآنية علاجاً شافياً لما هم فيه وفي الإسلام عهداً جديداً يستقبلونه برضى وطمأنينة نفس ؛ هذا إلى ما كان من مطابقة بين التقريرات القرآنية وما كان عليه بعض الفرق النصرانية من عقائد ومذاهب أو من مقارنة ؛ إذ من المحتمل كثيراً أن تكون الجاليات النصرانية في مكة من هذه الفرق ، فكان ذلك عاملاً في إقبال الذين أقبلوا منهم على الإسلام يسر وارتياح وإخلاص^(١) .

الصورة التاسعة

ورابعاً : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الكتائبيين العقائدية واستدراكاتها وتصويباتها .

ليس في القرآن المكي من تفصيل عن الانحرافات والخلافات العقائدية التي كان عليها الكتائبيون في مكة إلا بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية فيه . وكل ما ورد بشأن اليهود — عدا الإشارات الحافظة إلى خلافاتهم التي كانوا عليها في عهد النبي ، وقد أوردناه آنفاً — هو مواقف اليهود السابقين في عهد موسى وبعده ، وقصصهم وانحرافهم إلى عبادة العجل ، وتمردهم من حين إلى حين على أوامر الله والأنبياء ، وترديهم الأخلاقي والاجتماعي الذي حاق فيهم بسببه السكوارث والمصائب وأدى إلى تسلط الأقوياء عليهم كما يبدو من قصصهم في سؤر الأعراف وطه والإسراء بصورة خاصة ؛ هذا في حين أن القرآن المدني احتوى بالإضافة إلى الحملات العنيفة على أخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة ، إشارات إلى عقيدتهم ببنوة العزيز الله ، وقذفهم مريم وابنها بأسلوب يفهم منه أن هذا من عقائد المعاصرين .

(١) في تاريخ انتشار الإسلام للمستشرق الانكليزي أنرولد تقريرات مستندة إلى وثائق ودراسات حمل على أنه كان بين الفرق النصرانية من يتطابق مذهبه مع التقريرات القرآنية في شأن عيسى عليه السلام . .

وقد يمكن أن يستلهم من هذا أن اليهود في مكة كانوا أفراداً قلائل ، وأهم لم يحتكوا بالنصارى أولاً ثم بالنبي والمسلمين ثانياً احتكاكاً عادائياً : هذا إلى أن التطابق بينهم وبين الدعوة الإسلامية الذي كان أشد مما هو بين النصارى وبينها لإيمانهم بالتوحيد الصريح غير المؤول ، لم يدع محلاً للتشاد والجدل ، وأوجد بين الفريقين صلوات تقاربية وحزبية وثيقة جعل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين يتوقعون أن يستجيب إليهم اليهود بسرعة أكثر من كل ملة ، وهذا ما هو منطوق في الفصول القرآنية المدنية على ما سوف نذكره في حينه .

الصورة العاشرة

أما بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية فقد ورد أولاً فصل طويل في سورة مريم هذا هو :

« كَمَيْمَصَ . ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ بَيْتِي يَرْحَمْنِي وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَكُونُ لِي غَلَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَٰحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا . وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُرْفَعُ حَيًّا . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا

بَشْرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيُّ هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا . فَوَادَعَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهَزِيءَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا . يَاخُذْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَاهُ وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ أَلْحِقْ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ . . .

والقسم الأول خاص بقصة ولادة يحيى صلى الله عليه وسلم . والقسم الثاني الذي يلهم أن قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم ودحض عقيدة بنوته لله هما المقصودان الجوهريان ، يسوغ القول أن القسم الأول جاء مقدمة لقصة ولادة عيسى وتمهيداً ، فقد

كانت قصة ولادة يحيى مما وردت الإشارة إليه في بعض الأناجيل^(١) ومما يؤمن به المسيحيون ويعتبرونه معجزة ربانية ؛ فأريد بإيرادها إثبات أن ولادة المسيح هي أيضاً معجزة ربانية لا تقتضي أن تكون سبباً للاعتقاد بينوة عيسى لله . وقصة ولادة عيسى عليه السلام متماثلة في الخطوط مع ما ورد عنها في الأناجيل ، وإن كان هناك بعض اختلافات في الجزئيات وخاصة في كلام عيسى في المهد مما لم يرد في الأناجيل ومنتقد مع ذلك أنه كان متداولاً بين النصارى هو وغيره مما جاء في القرآن ولم يحيى في الأناجيل . وقد استهدفت آيات قصة عيسى عليه السلام - فوق تقرير حقيقة ولادة عيسى وأنها ليست إلا معجزة - تنزيه الله عن اتخاذه أبناء واستغناءه عن ذلك وعدم اتساقه مع المنطق الذي يفرض لله الكمال التام ، وأن الله هو وحده رب الناس جميعاً ، وله وحده تجب العبادة ، وأن ما وقع من انحراف عن هذه الحقيقة إنما نشأ عن اختلاف في الفهم ، وتشعب في الآراء بين الأحزاب من بعده .

والفصل يبدو لأول وهلة تقريراً قرآنياً مباشراً ؛ لا سيما وقد تبعه فصول عن أنبياء آخرين بنظم واحد . على أن هذا لا يمنع أن يكون قد حدثت مناسبة قبل نزوله ، كبحث في ماهية المسيح ، أو جدل في عقيدة النصارى فيه بين العرب المسلمين والكافرين ، أو سؤال من هؤلاء أو هؤلاء ، أو موقف جدلي بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى ، ونحن نرجح هذا . ولعل في الآية « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون » قرينة على هذا الترجيح ، إذ تلمح أن الفصل جاء تعقيباً على موقف جدلي اختلف فيه في أمر عيسى فاحتوى القول الحق لوضع الأمر في نصابه الحق .

وقد ورد ثانياً في سورة الزخرف الفصل الآتي :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا يَا أَلِهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا

(١) انظر الإصحاح الأول من إنجيل لوقا . وقد جاء فيه قالت : مريم للملاك : كيف أحبل وأنا لا أعرف رجلاً . فقال لها إن اليصابات نسبتك وزوجة زكريا حبلت أيضاً بابن في شيخوختها مع أنها كانت عاقراً . وأنه ليس أمر غير ممكن لدى الله .

عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ . وَإِنَّهُ لَعَلِيمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْبَيِّنَاتِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَوْمِ ...

٥٧ - ٦٥

والآيات قد سقت على سبيل الحجاج مع مشركي العرب والرد عليهم ، إذ احتجوا بإسراك النصرى المسيح عليه السلام في العبادة مع الله ، ورأوا في إشراركهم الملائكة منطلقاً أكثر سلامة على ما شرحناه في مكان آخر ، غير أنها على كل حال متصلة بما هية عيسى وعقيدة النصرى فيه ، وتقرير أنه إنما هو عبد الله ، وأن دعوته إلى الله وحده وأن الانحراف عن هذا إنما كان بسبب اختلاف الأحزاب بعده وتشعب الآراء فيه ؛ كما تضمنت الإشارة إلى انحراف العقيدة فيه ، والتنديد بذلك وقررت وجه الصواب في الأمر بأسلوب آخر انتهى إلى النهاية نفسها التي انتهى إليها فصل سورة مريم .

وفي سورتي الأنبياء والمؤمنون ثالثاً إشارتان خاطفتان إلى ولادة عيسى عليه السلام كما ترى فيما يلي :

«وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ...»

الأنبياء ٩١

« وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

المؤمنون - ٥٠

والقصد ظاهر في الآيتين اللتين وردتا عقب فصول في سيرة الأنبياء السابقين ، وهو الإشارة إلى أن ولادة عيسى عليه السلام إنما كانت معجزة وعناية ربانية خاصة ، وبالتالي

تصويب العقيدة المتحرفة فيه . ومن الجدير بالذكر أن آية سورة الأنبياء سبقت بآيتين فيها حكاية نداء زكريا ربه واستجابة الله وهبته له يحيى .

الصُّورَةُ الْجَادِيَّةُ عَشْرَةٌ

وفي الجملة فإن من الممكن أن يقال إن قصة ولادة عيسى وشخصيته كانتا موضع جدل ومناقشة وأخذ ورد وقيل وقال قبيل البعثة ، واستمر ذلك بعدها ؛ فالعرب من جهة كانوا يرون فيما عليه أهل الملل الكتابية في أمر عيسى عليه السلام ما يدعو إلى العجب ، حتى كانوا يرون أنفسهم على هدى أكثر من النصارى في تأليه الملائكة ونسبتهم بالبنة إلى الله ، واليهود كانوا يرمون السيدة مريم بالبهتان بسبب حملها بعيسى بدون أب شرعى ظاهر ، ويصفونه بالكذاب والدجال . والنصارى كانوا في أمره أحزاباً وفرقاً ، منهم من يرى أن ماهية الله هي نفسها ماهية عيسى ، ومنهم من كان يعتقد أنه أقنوم من أقانيم الألوهية الثلاثة ، ومنهم من كان يعتقد بألوهيته ، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفتين ناسوتية ولاهوتية ، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفة واحدة وهي اللاهوتية ، ومنهم من كان يعتقد بأن صفته هي الناسوتية ويؤمن بالله ويعتقد بأن المسيح نبي رافقت ظروف ولادته معجزة ربانية ، ومنهم من رفع السيدة مريم إلى درجة الألوهية أو اللاهوتية الخ مما حكته آيات قرآنية مدنية^(١) وما نقلته الأخبار^(٢) فجاءت هذه الفصول والآيات القرآنية تضع الأمور في نصابها الحق فتقرر أن فيما عليه هؤلاء وهؤلاء وأولئك تفريطاً وإفراطاً وغلوّاً ، وبعداً عن المنطق والحق وعقيدة التنزيه والتوحيد ، وأن هذا إنما كان بعد عيسى وناشئاً عن اختلاف الآراء والتأويلات والمذاهب فيه ، فولادة عيسى تمت بمعجزة ، وقد

(١) اقرأ آيات النساء ١٥٦ و ١٧١ والمائدة ١٧ و ٧٣ و ١١٦ والتوبة ٣٠ والصف ٧

(٢) اقرأ تاريخ انتشار الاسلام للمنشرق الانكليزي أرنولد . وقرأ المجلد ٣ الجز ٢ ص ٥٥٦ -

٦٣٥ و المجلد ٤ الجزء ٢ ص ٨٠ - ٩٠ و ٢٣٠ - ٢٣٩ و ٢٦١ - ٢٧٤ و ٣٧٦ - ٤١٦

و ٥٢٦ - ٥٢٨ من تاريخ سورية للمطران الدبس . وفي انجيل برنابا نصوص كثيرة جداً تتطابق مع ما جاء في القرآن عن عيسى ومحمد عليهما السلام .

سبقت بمعجزة مقاربة من حيث النوع ومعترف بها ، فلا يقتضي هذا أن ترمى مريم بالبهتان ، وأن يوصف ابنها بغير الشرعية ، وينمت بنعوت بذیثة كما فعل اليهود ، ولأن يحار في التعلیل ويذهب فيه مذاهب ويجعل عيسى إلهاً ، أو جزءاً من الإله ، ويرى فيه لاهوتية أو لاهوتية ، وناسوتية معاً ، وترفع مريم إلى الألوهية أو اللاهوتية كما فعل النصارى - وتقرر أن عيسى عبد من عباد الله ونبي من أنبيائه ، أرسله ليدعو إليه وحده بالبينات والحكمة ، وليحل ما صار إليه اليهود من خلافات ، وتقرر له التكريم ، ولأمه التنزيه في نطاق عبوديتهما لله ، وهكذا تضع حلاً للخلافات القائمة حول ماهيته وشخصيته لدى اليهود والنصارى والعرب معاً وتهيئ الطريق أمام غلاة النصارى للرجوع عن غلوائهم ، وتفتح الباب لهم ولذين تناسب عقائدهم في المسيح مع هذه التقريرات خاصة ليدخلوا منه إلى الإسلام ، ويخلصوا مما هم فيه من شكوك وخلاف وريب ونزاع ، وتسد على العرب طريق الاحتجاج والمحاكمة ، وتلزم اليهود حدهم فيما كانوا يرسلونه من أقوال بذیثة ضد المسيح وأمه في المحيط العربي .

وطبيعي أن هذه التقريرات كانت تتلى جهره ، وبسمها الكتايبون الذين آمنوا بنبوة النبي والتنزيل القرآني وشهدوا على صحتهما وأظهروا فرحهم بهما ، فمن الحق أن يقال إنهم قد وجدوا في هذه التقريرات حقاً وصدقاً ، ومنطقاً سليماً وحجة كافية ، وحلاً لما هم عليه من خلاف وشقاق وتضاد في أمر المسيح ، فكان مما حدا بهم إلى الاستجابة لداعي الإسلام ونبي القرآن ، بالاندفاع والفرح ، والخشوع ورضى النفس على ما وصفهم القرآن .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

وأوله

عهد السيرة النبوية المدني

فهرس الجزء الأول

المقدمة	٣
فصل في شخصية النبي عليه السلام	٧
١ - عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكته وقرشته	٨
٢ - شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة	١٧
٣ - أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله	٤٥
٤ - حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية	٦٨
٥ - صور من اجتهادات النبي الشخصية أو الملهمة	٩٧
٦ - صور لسلك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم	١٠٢
٧ - الوحي وأوليائه	١١٣
عهد السيرة النبوية المكي	١٣٩
تمهيد	١٤٠
فصل في موقف العرب غير الكتابيين في هذا العهد	١٥٠
١ - دور الخطوات الأولى	١٥١
٢ - موقف زعماء مكة من النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته وبواعثه	١٧٥
٣ - مشاهد وصور متنوعة بين النبي صلى الله عليه وسلم والزعماء بين الشدة والاعتدال	١٨٦
٤ - الصلات بين المسلمين والكفار	٢٣٥
٥ - مشاهد التحدي	٢٣٩
٦ - محنة الأذى والفتنة ومشاهدها ونتائجها	٢٥٨
٧ - الأزمات النفسية النبوية	٣٠٦
٨ - صور متنوعة للمسلمين في العهد المكي	٣١٩
فصل في موقف العرب الكتابيين في العهد المكي	٣٢٧

